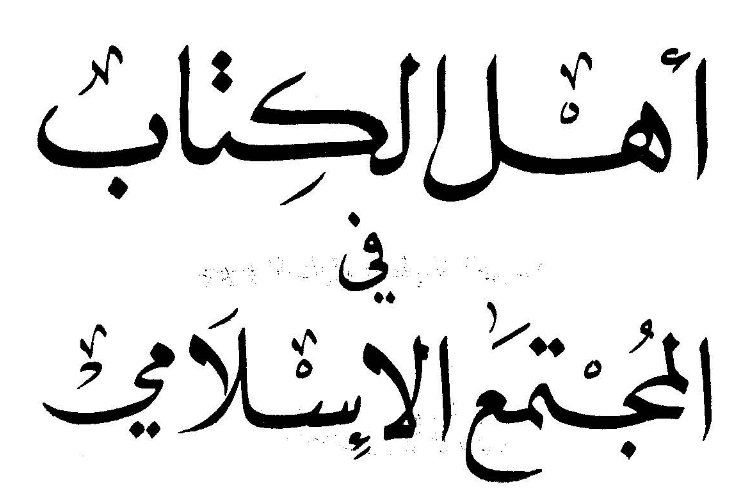
حسن الزّين

أهل الكتاب في المجتمع الإسلامي

أضواء على الأوضاع الاجتماعية والقانونية

حسن الزين



أضواء على الأوضاع الإجتماعية والقانونية

بيروت ــ لبنان

الطبعة الأولى

١٤٠٢ هـ — ١٩٨٢ م

مقدّمة

نريد لهذا الكتاب ان يضرب في عمق الوجدان الاجتماعي لبعض الذين أثارتهم أقلام مغرضة وكتابات مفرقة حاقدة ، من مسلمين وغير مسلمين ، عبر الصورة التي قدمتها لأسس التعامل الاسلامي مع أهل الكتاب ، ليروا ان التسامح والتآلف والتساوي في الحقوق والواجبات بين أبناء المجتمع الواحد من مسلمين ومسيحيين كان مبدأ اسلاميا هاما حددت ملامحه بوضوح في جميع مصادر التشريع الاسلامي وان في التعصب والحقد مخالفة للاسلام ضمن أشد نصوصه تقديسا وحرمة وأسمى مبادئه قيمة ووضوحا .

كما نريد ان نظهر أيضا ان الاسلام بريء من كل ما انبتته عقول اولئك الذين اقتصر انتاجهم على الزخرفة الورقية في كتابة الحواشي والتعليقات ، والبعد عن روح النص عبر التمسك بحرفية لم تكن يوما قواعد أخلاق او مصادر تشريع الا في أذهان تثاقلت فأعماها الجهل عن رؤية الحقيقة والتجرد في ما كتبت او أرخت او تعاملت .

واذا كانت حرية المعتقد والفكر هما الأساس في تعامل الاسلام مع الآخرين فانه بالنسبة لأهل الكتاب قد كان لها وجه آخر أشد تعبيرا وأبعد تطبيقا فيما عرفته كل عصور التاريخ الاسلامي ، ولم يتم الخروج عليها الا في فترات زمنية كانت نتيجة استبداد شخصي في اكثر الاحيان ، وهي

فوق ذلك لا تقاس بشيء كبير في عمر الزمن الطويل للعلاقات الطيبة بين ابناء المجتمع الواحد ، مهما تفنن بعض مؤرخي الاستعمار الجديد من أجانب ومسلمين احيانا في تفسير بعض الوقائع القليلة المنتقاة والتعبير عنها بما يخالف اسبابها وتنائجها وفترتها الزمنية القصيرة في مسلسل الاندماج التاريخي الطويل بين المسلمين والمسيحيين بشكل خاص في المجتمع الواحد .

الحديث عن أوضاع أهل الكتاب في المجتمع الاسلامي يدفع بنا الى تقصي هذه الأوضاع سواء في غياهب التاريخ الاسلامي أو أماكن اشراقه منذ نشأته ، من أجل رسم الصورة الصحيحة والفكرة الواضحة لهذه العلاقات التي سادت بين ابناء المجتمع الواحد عبر عصور من التعايش والتفاعل والاندماج . ولا بد من اجل ذلك من التمييز بين النظرية والواقع ، بين القول والعمل . فما هو موقف الاسلام الموضوعي من هذه المسألة ؟ وكيف سار الخلفاء في مختلف العصور في تطبيق المبادىء واخراجها الى أرض الواقع ؟.

هل كان ثمة تطابق دائم بين النظرية والواقع ؟ أم ان اتساع الشقة بين المصالح والميول السياسية وبين جوهر المبادىء وروحها قد أدى الى تعامل يختلف باختلاف تلك المصالح والميول والنزوات ؟.

وهل كان ذلك يتوافق في حال حدوثه مع وحدة المجتمع واستقامة الحكم وتماسك عناصر الدولة.؟.

من هذا المنطلق سوف نحاول رسم صورة صادقة لأوضاع اهل الكتاب القانونية والاجتماعية عبر مختلف العهود التي توالت على الدولة الاسلامية باختلاف مجتمعاتها وأشكال التطور التي عرفتها هذه المجتمعات فأثرت او تأثرت بوجود أهل الكتاب الفكري والاجتماعي

والسياسي وما كان لهذا الوجـود من تحركات تستدعيها ظروف الحياة الجديدة وردات فعل كانت بمجملها في صالـح المساهمة في جميع صور التطور والتقدم وفي بعضها القليل تصادم مع بعض مظاهر الحكم فتعديل لها في اكثـر الاحيان •

وسوف نتعامل في شرحنا مع واقعين : الواقع القديم ويشمل عهـد الرسول (صلعـم) وعهد الخلفـاء الراشدين والعهـود التاليـة مـن جهة ، ثم العهـد العثماني من جهة اخرى باذلين الجهـد في تلمس شؤون حياة اهل الكتاب في توافقها واختلافها مع شؤون الحكم ومعطيات الحياة الاسلامية وتطور هذه العلاقات من عصر الى عصر وعهد الى عهد •

عهد الرسول (صلعم) حـدد الأطـر ورسم مبادىء العلاقات بين الاسلام وأهل الكتاب ، ضمن ما عبرت عنه آيات القرآن ومـا ظهـر في السنة الشريفة ، وأقام صورة صادقة واضحة لأصول الممارسة ظلت دعائمها تؤلف حدودا مغلقة بوجه نزوات الحكم في أعنف قفزاته نحو الاستبداد المطـلق •

مختلف العهـود التي عقـدها محمد (صلعم) أصبحت نموذجـا لمثيلاتها في مختلف عصور الحكم الاسلامي • وردات فعله وتصرفاته تجاه كل مـا يتعلق بأهل الكتاب بقيت مثالا يحتذى بل دخلت فـي نطـاق النظرة الاسلامية والموقف الاسلامي من هذه المسألة في كل ما تعرضت له من اعمال وقدمت من حلـول ، يلاحظ انها كانت كلها في صالح التسامح وفي صالح أهل الكتاب من مسيحيين ويهود •

وجـاء بعده عهد الخلفاء الراشدين فتوضحت الصورة بعـد ان تزايدت حالات الاندمـاج والاختلاط والتصادم أحيانا ، التي تستدعي تدخل الفقه والاجتهاد للتعبير عن الموقف الاسلامي من كل جديد تطرحه

الظروف الاجتماعية والحضارية التي اخذت تتنوع وتتطور • وكانت تصرفاتهم في انسجامها مع المبادىء التي رسمها النبي الكريم ومع روح هذه المبادىء ونصها تؤدي الى تشدد في تمكين أهل الكتاب من احتلال موقعهم في المجتمع الاسلامي ، في تماسك والفة كبيرين • فتوضحت الهيكلية الاجتماعية والقانونية للمسيحيين واليهود في القول والممارسة في صورتها المثلى ، وهنا تبرز الملاحظات التالية :

١ ـ لقد أصبحوا احدى طبقات المجتمع الاسلامي •

٢ ـ وصارت المساواة تامة بينهم وبين المسلمين وهذا رابع الخلفاء الراشدين علي بن ابي طالب (كرم الله وجهه) يقول : (دماؤهم دماؤنا) في تعبيره عن المساواة التامة •

٣ ـ صاروا يتمتعون بجميع الضمانات التي تتوفر لسائر المواطنين وسوف نرى كيف برزت هذه الضمانات الاجتماعية والسياسية والقضائية في كلام الخلفاء الراشدين وأعمالهم وخاصة الخليفة الثاني عمر بن الخطاب والرابع علي ابن ابي طالب (ع) •

وبعد ذلك العهد لن يتحمل الاسلام في نظرته العميقة الشاملة وزر كل ما صدر عن أنظمة الحكم وتصرفات الحاكمين، نظرا للتغير الذي طرأ على مفهوم الحكم في بعده وقربه من الاسلام ، ولكن الخطوط الكبرى للمفاهيم السابقة ظلت سائدة في معظم الاحيان في جميع ما تعلق بأهل الكتاب ، رغم ان بعض العهود عرفت مخالفات هامة للمبادىء الاسلامية الكبرى التي تتعلق بحياة المجتمع الاسلامي ككل ، ورغم ظهور المذاهب والاجتهادات المختلفة في بعدها وقربها من مبادىء الدين وأصول الحكم الاسلامي والعقيدة الاسلامية •

اما في العصرين الأموي والعباسي فقد اختلفت الحال باختلاف بعض تفاعلات ومظاهر اجتماعية وسياسية كانت لصالح الاسلام ولصالح أهل الكتاب في اكثر الأحيان •

فقد شهد العصر الأموي شيئا من التمييز القومي في يظرية العنصرية التي زالت في العصر العباسي •

وتفاعلت المواقف من اهل الكتاب مع التطور الاجتماعي والسياسي والاقتصادي الكبير لا سيما في العصر العباسي فأدى ذلك الى :

١ ــ بروز دور ثقافي كبير لأهل الكتاب في جميع ما ترجم عن اللغات الأخرى وبعض ما ألف ونشر باللغة العربية •

٢ ــ ظهور بعض قوانين تحد من حرية فئات من اهل الكتاب من سكان الثغور لأسباب حربية وعسكرية تتعلق بما نسميه النظام العام في عصرنا الحديث •

٣ ــ وصول عدد منهم الى مراكز الحكم الكبرى من وزراء ورؤساء ديوان الجيش وكتاب الدواوين •

٤ ــ ظهور الفتن الطائفية والمذهبية بين المسلمين وخروج بعض الحكام عن المبادىء الاسلامية في ضرب بعض الطوائف والمذاهب الاسلامية المخالفة لمذهب الحاكم وانعكاس اثر كل ذلك على طوائف أهل الكتاب في اسباب سياسية بحتة تتعلق بتثبيت دعائم الحكم والنظام (الشخصي في أكثر الأحيان) • ثم بروز مظاهر تنبىء بتأثير هذا الانعكاس على طبقات اجتماعية جاهلة يطلق عليها المؤرخون المسلمون اسم (الرعاع) في كتاباتهم ، ولم يكن لهذه الطبقات ان تنطلق في أعمالها من دعائم فكرية واجتماعية تعبر عن روح الفقه وأسس الشريعة نظرا لما كانت

تتخبط فيه من جهل • وربما كان للاغراء المادي في بعض الاحيان أثر في توجيه بعض من فئات الطبقة الجاهلة كما يحدث في هذه الأيام بالنسبة لتوجيهات سياسية دينية او غير دينية •

أمـا في العصور الحديثة التي تبدأ مع الفتح العثماني فقد اختلفت الاسباب كما اختلفت النتائج التي كانت تؤثر في علاقات أهل الكتاب بسائر طبقات المجتمع الاسلامي وتتأثر بها • وكان ابرز مظاهـر تطـور هذه العلاقات وما يعبر عنه ،تلك المعاهدات التي توالت عبر مختلف عصور الدولـة العثمانية في علاقاتها مع الدول الاوروبية الكبرى ، وكانـت اسبابها المعلنة تنطلـق من المطالبة بحقـوق نصارى الشرق في المساواة والحرية والاستقلال المذهبي واسبابها غير المعلنة ، ولا نريد ان نسميها غامضة او خفية لأنها كانت واضحة في أذهـان المطالبين والمستجيبين ، كانت تأمين مصالـح اقتصادية وسياسية للبلـدان الموقعـة للمعاهدات ولمواطنيها ولكن هذه الاسباب الاقتصادية كان لها تأثيـرات اجتمـاعية أدت في بعض الأحيان الى تمزيق وحدة المجتمع العثماني حتـى داخـل تركيـا نفسـها •

فلماذا كانت هناك مطالبة بمعاهدات تعقد ؟•

هل كان السبب تعصب ديني أو عرقي أو اجتماعي يميز بين طائفة وأخرى وفئة من ابناء المجتمع الواحد ؟ •

هل أدى عدم تقيد الاتراك العثمانيين بالمبادىء الاسلامية لجهـة التسامح والمساواة الى كل هذه التناقضات ؟•

ألا يمكن تصور الاسباب الداخلية والخارجية لهذه الفوضى التي أدت الى ضعف الدولة العثمانية ومن ثم الى زوالها ، في مـا أدى اليـه

عـدم التقيـد بالمبادىء لجهة الايمـان والتطبيق من عـدم التفاعل مع الحضارات الأخرى او التأثير فيها ؟.

أليس في كل ذلك ما يدعو الى الاعتقاد أنه نشأ عن التحجر والجهل وأدى الى بناء سيطرتهما علـى عقلية الحكم ونشاط الحاكمين فـي فترات طويلـة من الزمن ؟.

ألا يتعلق انصراف الأتراك العثمانيين عن طلب العلم (لا في الصين ولا في اسطنبول ايضا) بما كان عليه المجتمع العثماني من بعـد عـن شؤون الفكر ومعطيات العلم ؟.

والأسباب الخارجية للظلم الاجتماعي الحاصل هل يمكـن تصورها في تطور الغرب وامتداد قـوته ونفوذه ونمو هذه القـوة بشكل كبير ومتواصل خصوصا من الوجهة الفكرية في وقت كان اقفال باب الاجتهاد لدى المسلمين قد أدى الى انحطاط وبعد عن مشاكل العصر وروحه ؟

لقد نجم عن التحجر الفكري ظهور فتاوى ينعدم فيها منطق العقل والدين فاستعملت مقولة : (الفتنة أشد من القتل) مثلا في تبريز قتل من يخشى ان يقوم بفتنة في المستقبل كما سنرى في متن هذا الكتاب .

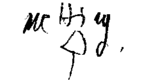
وأمـام هذا الواقع يضطر الحكم العثماني للرضوخ الـى مطالب الدول المنادية بتحسين أحوال غير المسلمين ومن خلال تحديدها وحدها لعناصر هذا التحسين فيتنازل بدافع من ضعفه وجهله عن حقـوق تطـال سيادة الدولة على رعاياها ويعمد من أجل الاستعاضة عما فقـد الـى اخضاع الرعايـا المسلمين لموجبات جديـدة بديلة مالية ومعنويـة يحاول بواسطتها رأب الصدع وسد النقص الحاصل من جـراء التنازلات ، في هيبة الدولة وخزائنها ، والابقاء على مظاهر سلطة تتآكل باستمرار .

وهل يمكن تصور اسباب ذلك الظلم في ان عالم الغرب القوي في ذلك الزمن اعتبر النزاع مع العثمانيين امتدادا لصراعه التاريخي الفكري والعسكري مع الحضارة التي اصطدم بها في الاندلس لعدة قرون فدفع بكل تحدياته ، متأثرا برواسب تاريخية ، في وجه أمة لم تعش من فترة الصراع الفكري القديم سوى جوانبها المظلمة فلم تتمكن من القيام بدور منتج في الصراع الجديد ، وانعكس كل ذلك فوضى وضعفا داخليا تمثل بتنازلات استمرت في التزايد حتى قضت على الكيان العثماني بكامله ؟

امام كل ما ذكرنا لا بد من استنتاج مفاده : ان التاريخ العربي والاسلامي بحاجة الى قراءة جديدة على ضوء المعطيات والأدوات الفكرية الحديثة وذلك ليس فقط لمصلحة الاسلام والمسلمين في نفض الغبار عن ذلك التراث الضخم بما يمثل من عمق حضاري في تفهم الحريات والحقوق وبسط وسائل حمايتها وتعميق مفاهيمها بل لمصلحة سائر الطوائف الأخرى وخاصة المسيحية منها التي ساهمت في صنعه ، بنفض الغبار أيضا عن دور كبير يتجلى في استجاباتها المختلفة لحركة التفاعل التاريخي وذلك العطاء الفكري والسياسي والاجتماعي الذي ساهمت به في بناء الحضارة العربية والاسلامية في بعض العصور نتيجة لما تمتعت به من حرية في القول والعمل والحركة وحقوق تساوت في سعتها وعمقها بل زادت أحيانا عن حقوق المسلمين •

والانتاج الفكري والاجتماعي الذي قدمه أهل الكتاب دليلنا على ما ندعي ، بالاضافة الى ما سنقدم من وقائع وأمثلة . وما كان للظلم والاضطهاد وعدم المساواة ان يسمح لمن يتحمل نتائجها بأن ينتج فيبدع وأن يساهم فيستمر ؟

ولكن تقييما مقصودا مورس على كل ذلك التراث من العلاقات



والتعامل والانصهار ، كان يتم بمختلف طرق البحث التي تنقب عن الواقعة المعينة فتبرزها خارج اطارها الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والحربي أحيانا وتعطيها عندئـذ من التفسير ما يسمح بتحقيق الهدف السياسي او الاقتصادي او الاجتماعي الذي يحرك مصالـح الفئة الخارجية المستفيدة مـن كـل ذلـك .

وانك لترى في بعض كتب التاريخ الحديثة مسلسلا من وقائـع تفصل بينها فترات زمنية طاعنة في القدم . وتعطى لهذه الوقائع تفسيرات متشابهة دون النظر الى ما يفرق بين ظروفها في الزمان والمكان والمجتمع . فيعطى لأعمال قام بها عمرو ابن العاص مثلا في فترة ولايته الثانيـة على مصر تفسيرات مشابهة لما قام به ابراهيم باشا بسبب بعض خلافاته مـع الاقباط في مصر . والفرق في عمر الزمن يقارب ألف عـام !

وأمـام كل هذه المحاولات يبقى القارىء في حيرة من أمر تاريخه وتراثه عبر مختلف التيارات والتحليلات المستمدة من الأسباب التي ذكرنا وتتوالى الأسئلة التي لا تجد لها جوابا في الكثير مما يكتب ويقال .

هل كان المسلمون يفرضون الدين الجديد على أهل بلاد الفتح ؟

اذن لما كان بقي على هذه الأرض غيرهم ولتحول كل السكان بقدرة السيف وفي فترة زمنية يسيرة الى مسلمين وقضي على جميع مـا نشاهد من أقليات طائفية تختلف عددا من بلد لآخر ، تماما كما حدث في اسبانيا بالنسبة لمسلميها بعد خروج العرب منها .

ولكن بعض المؤرخين الغربيين يحدثنا عن ان المسلمين ظلوا أقلية في سوريا وغيرها من البلدان لعدة قرون تلت الفتح الاسلامي .

فالتحول اذن استغرق مدة زمنية طويلة وذلك يبدو شـديد التعبير

How Seperate?

في تلك العصور بالذات • لكن ما يهمنا هو ان نحدد أوضاع أهل الكتاب الإجتماعية والقانونية في المجتمع الاسلامي وما أدى اليها وما أدت اليه من اسباب وتتائج من العهد الذي عقده الرسول (صلعم) مع اليهود وأهل نجران الى آخر معاهدة عقدتها الدولة العثمانية بشأن امتيازات تمنح لغير المسلمين من نصارى ويهود • كيف كانوا يعيشون ويعملون وينتقلون عبر كل تلك العهود وكيف كانوا يتصرفون وكيف كانت ردات فعلهم امام الأحداث الفكرية والاجتماعية وتجاه الاعمال الجديدة والتشريعات التي تطبع بطابعها كل عصر جديد •

هل كانوا يتمتعون بالحقوق والحريات العامة التي كان يتمتع بها المسلمون وبالقدر ذاته وفي الظروف ذاتها ؟ ولكن التاريخ الاسلامي عرف فترات سحقت فيها حريات المسلمين وكمت الأفواه وقطعت الأعناق وساد الاستبداد ، فهل كان بالامكان حفظ أهل الكتاب بعيدا عن كل هذا ؟ وهل يمكن ان نعتبر في شمول هذه التعديات لأهل الكتاب تعصبا دينيا كما يريد لها بعض من المؤرخين ؟•

عرفت بعض عصور التاريخ الاسلامي فترات ضربت فيها لأسباب سياسية ايضا بعض الطوائف الاسلامية وتعرضت للظلم والاضطهاد بقسوة وعنف فاذا قامت نفس هذه الاسباب السياسية لدى بعض الطوائف المسيحية فأدت لنفس النتائج فهل يعطى لهذه الوقائع تفسير ينطلق من التعصب الاسلامي القريب من العنصرية ، كما يريد ان يؤكد لنا بعض المؤرخين ؟•

Many authority

عندما يحصد العنف السياسي حريات المواطنين بقسوة وغلظة في فترات تسود فيها سطوة مستبد لا يعود بالامكان التحدث عن حقوق يتمتع بها أهل الكتاب او غير أهل الكتاب من المواطنين • ولا يجوز

لمؤرخ يعتمد الصدق والتجرد والموضوعية ، وصف هذه الفترات بأنـها فترات تعصب ديني ظلم من جرائه أهل الكتاب وانتهكت حقوقهم •

وعلى سبيل المثال نسوق كل مـا كتب عن اضطهاد حدث في عصر الحاكم بأمر الله والجميع يعلمون ما حل بالمسلمين في ذلك العصر • ولكن نسبة كل هذه العصور الى التاريخ الاسلامي الضئيلة من حيث الزمـان والمكان لا تتناسب مع الأهمية التي تعطى لها في كتب تتحدث عـن ذلك التاريخ فلا ترى فيه غير وجهه السلبي الذي لا يقاس بشيء بالمقابلة مع تاريخ الشعوب الاخرى في التعامل مع الأقليات الدينية فيها لا من حيث الزمـان ولا المكان كما سبق القول •

فاذا ما أخذنا بعين الاعتبار الاحكام والقواعد التي تعبر عـن أوضاع أهل الكتاب وتنظم هذه الأوضاع يمكن طرح السؤال التالي :

هل روعيت هذه القواعـد والاحكام بشكل متماثل ومستمر فـي جميع العهود وبمعنى آخر هـل كان ثمـة تطبيق صحيح لـها على أرض الواقـع ؟•

هذه هي المسألة • فهل كانت معطيات الحياة السياسية تحميهم من الضغوط في تعاملهم مع المسلمين ؟ أي هل كانت حياتهم طبيعية خالية من العقد التي تدفع الى التصنع والحقـد واخفاء واقع الفكر والعمل ؟•

واذا ما كان ذلك قد حدث بشكله الصحيح فلماذا قامـت الثورات والانتفاضات وهي متعددة وأحيانا شديدة التأثير ؟•

اذا كنا سوف نعالج الاجابة عـلى هذا التساؤل فعلى ضوء عاملين اثنين لا بد من أخذهما بعين الاعتبار عـند تحـري الحقيقة التاريخيـة بموضوعية بعيدة عن المتاجرة والتعصب وهما يتعلقان بالمدة الزمنية التي

استغرقتها هذه الثورات او الانتفاضات وبردات الفعل على قيامهـا وعلى اسبابـها ومن هذا المنطلق يمكن طرح السؤالين التاليين :

هل كان القضاء على هذه الانتفاضات يؤدي الى موجة عنف وحرمان تجتاح ما كان القائمون بها يتمتعون به من حقوق ويحصلون عليـه مـن حريـات ؟.

وهل كانت الأسباب التي أدت اليها تعود الى الظهور من جديد في اطار من الانتقام والتسلط كما كان يحدث عندما تنبعث الثورة عن احدى الطوائف او الحركات الاسلامية المتعددة ؟.

اذا كان التاريخ يحدثنا عن السخط والانتقام بعد القضاء على كـل انتفاضة تصدر عـن طائفة او حركـة اسلامية فانه يحدثنا عن اعادة بناء الكنائس التي كانت سبب الثورة بعد كل انتفاضة يقوم بها أهـل الكتاب في أشد الأوقات السياسية صعوبة وعن اعادة الامور الى ما كانـت عليه بعد ازالة الاسباب في كثير من الأحيان وهذا ما سوف نحاول تفصيلـه وبحثه من خلال ما كتب الأولون والمحدثون من المؤرخين .

فالاسلام ليس دين تعصب كما يريد البعض ان يوحي به للمسلمين، والصورة التي يقدمها القرآن الكريم عن أهل الكتاب وخاصة المسيحيين منهم ليست الا لتدين التعصب وتجعله نوعا من مخالفة قواعد الشرع فيما يتعلق بأعنف مبادئه وأشدها وضوحا في التسامح والمساواة .

علي ابن أبي طالب (ع) كان يقول : (دم الذمي كدم المسلم حرام) [٢].
وأحد كبار المؤرخين المسلمين يقول [٣] : (ولكي يتجنب المسلمون أقل اشتباه في استغلال قوتهم وسيطرتهم لم يكن يسمح للعنصر الحاكـم ان يمتلك أرض الذمي ولو عن طريق الشراء) .

ومن هنا برزت القاعدة العامة : (لا الامام ولا السلطان يستطيعان ان يجردا الذمي من ممتلكاته) .

وكان المسلمون والذميون سواء بسواء تشملهم المساواة المطلقة في نظر القانون .

ونسمع عن ديوان خاص ينشئه خلفاء بغداد للقيام بمهمة المحافظة على أموال الذميين ورعاية مصالحهم ويقلدهم بذلك منافسوهم في قرطبة بالأندلس . وكان اسم رئيس هذا الديوان في بغداد (كاتب الجهباذ) وأسمه في اسبانيا (كاتب الذمم) .

واذا كان المتوكل العباسي قد أبعد غير المسلمين عن مناصب الدولة فهو نفسه قد سوى ضريح الامام الحسين (ع) بالأرض ومنع الحجاج ان يحجوا للعتبات المقدسة وأبعد العقلانيين من المسلمين كما اخضعهم الى ظروف قاسية !

واذا استشهد بعض المؤرخين بالتصانيف المتأخرة في الشريعة فانه يلزمهم ان يفطنوا الى ان هذه التصانيف قد كتبت بينما كان النضال العنيف يحتدم بين الدولة الاسلامية والديار الاوروبية طلبا للحياة من جهة المسلمين (٤) .

واذا كان بين المسلمين اليوم من تغرر به أبواق الاعلام الخبيث والغايات السيئة وما كتب في عصور الانحطاط فيندفع في طريق التعصب البغيض فانه بذلك يخالف منطق الدين الاسلامي ويبتعد عن منطلقاته وينابيعه ليدور في فلك يتناقض كل التناقض مع مبادئه .

فالاسلام منذ انفتح على حياة البشر وظهر الى الوجود أقام هيكلية علاقة واضحة الخطوط والرؤى مع أهل الكتاب وخاصة المسيحيين

منهم • واذا كانت هذه العلاقة قد تعرضت لأزمـات في بعض من فترات التاريخ فانها استطاعت ان تتجاوزها في سعة أفق وحيوية كبيرتين •

يقول الامـام محمد عبـده في « رسالة التوحيد » في اشارة الى الظـروف الاجتماعية والسياسية التي رافقت ظهـور الاسلام : كانـت الشعوب تئن من ضروب الامتياز التي رفعت الطبقات على بعض بغير حق وكان من حكمها ان لا يقام وزن لشؤون الادنين متى عرضت دونهـا شهوات الأعلين فجاء دين يحدد الحقوق ويسوي بين جميـع الطبقات في احترام النفس والدين والعرض والمال ويسوغ لامرأة فقيرة غير مسلمـة ان تأبى بيع بيت صغير بأية قيمة لأمير عظيم مطلق السلطان فـي قطـر كبير • ومـا كان يريده لنفسه ولكن ليوسع به مسجدا فلما عقد العزيمة على أخذه مع دفع اضعاف قيمته ، رفعت الشكوى الى الخليفة فورد أمره برد بيتها اليها مع لوم الأمير ، على مـا كان منه عدل يسمح ليهودي ان يخاصم مثل علي ابن أبي طالب امام القاضي وهو من نعلم مـن هـو ويستوقفه معه للتقاضي الى ان قضى الحق بينهما (٥) •

من هذا المنطلق في احترام حقوق أهل الكتاب كانت أسس الأوضاع القانونية تنشأ فـي جو تسوده المساواة مع المسلمين في جميع الحقوق ، وكان للتعامل شأن كبير في ابراز هذه الأوضاع الى الواقع عبر كل ما كان يواجه الحـكم والقضاء والمجتمع من مسائل يطرحها الوجـود القانوني والعملي لأهل الكتاب في المجتمع الاسلامي في بداية الفتح • ولـم يكن هذا الوجود يسيرا لانهم كـانوا يؤلفون في بعض البلدان اكثرية استمر تحولها عدة قرون كما كان الأمر في سوريا وفلسطين •

بدأت هذه الاوضاع في الظهور منذ عهد الرسول (صلعم) وعبر المصاعب التي واجه ، والانتصارات التي حقق ، فكانت العهود والمواثيق

وطرق التنفيذ التي اصبحت الاسس الدائمة لمسيرة التعاون في تكامل خلق جو التسامح الكبير ودفع بمسيرة العلاقات الى نوع من الانصهار والاندماج بين ابناء المجتمع الواحد في اطار من العيش المشترك الذي حقق الخير والنجاح للحضارة الاسلامية عبر مختلف عصورها .

حرية المعتقد وحرية الفكر اللتان منح الاسلام لأهل الكتاب كانتا تستدعيان كل تلك المعاملة السمحاء من اجل اقامة البناء الاجتماعي المتوافق مع وجودهما .

وليس لوجودهما ان يتحقق بدون المساواة امام القضاء والمساواة امام القانون بين المسلمين وأهل الكتاب أفرادا وجماعات . فكانت الوقائع التي ذكرها الامام محمد عبده نتيجة حتمية ومنطقية لموقف الاسلام منهم ، ولم تكن منة من أولي الأمر في ذلك الزمان والمكان . او بمعنى آخر كانت الاستجابة الواقعية لما طرح القرآن والسنة من مبادىء استدعتها الظروف الزمنية والمكانية التي تكونت في عهد الخلفاء الراشدين والتي اختلفت عن العهد السابق عليها ، بعد ان بدأ كيان الدولة يتعاطى مع ظروف الحكم الجديد التي امتدت لتشمل عالما مختلف الأصول والديانات والحضارات وتتعاطى معه بمنطق الدين الذي يتفاعل مع كل هذه المظاهر في عملية هضم وتمثيل تتسع لكل شؤون الفكر وكل نظم الحياة .

عهد الرسول الامين وعهد الخلفاء الراشدين وما جرى فيهما مجرى التعامل الاجتماعي والسياسي والحقوقي يعبر عن الاساس النظري والقانوني والعملي للهيكلية القانونية والاجتماعية لأهل الكتاب في المجتمع الاسلامي .

Equality

واذا كان هذا الأساس ينطلق من مبدأ المساواة القائم في نصوص القرآن والسنة فان هذه المساواة تتأكد في نصوص عديدة وفتاوى مختلفة أخرى حتى تكاد تصبح من المسلمات في التصور الاسلامي للعلاقات مع الآخرين ، انطلاقا من القاعدة الفقهية التي تقرر ان (لهم ما لنا وعليهم ما علينا) والتي تبدو تفسيرا لكلمة الامام علي (ع) : (انهم قبلوا عقد الذمة لتكون اموالهم كأموالنا ودماؤهم كدمائنا) .

ثم يقول واحد من مشاهير الفقهاء وهو السرخسي : (ولأنهم قبلوا عقد الذمة لتكون اموالهم وحقوقهم كأموال المسلمين وحقوقهم) .

لقد ذهب الفقه الاسلامي مدى أبعد في هذا الاتجاه ، فلم يكتف بتقرير المساواة بين المسلمين وغيرهم بل زاد على ذلك ان اعطى غير المسلمين حق مباشرة التصرفات التي تتعارض مع ما تقضي به الشريعة الاسلامية ، ما دامت شرائعهم ودياناتهم تسمح بها واباحة الخمر وتربية الخنزير لهم أبرز مثال على ذلك . وقد أفتى الفقهاء بأنه اذا أتلف أحد من المسلمين خمر الذمي أو خنزيره كان عليه غرمه وجاء في « الدر المختار » : ويضمن المسلم قيمة خمره وخنزيره اذا أتلفه .

ان هذا التأكيد على قيمة المساواة لا بد ان يقابله تحديد لمعنى المساواة ذلك اننا لا نتحدث هنا عن قيمة مطلقة مجردة ، انما نحن بصدد قيمة اجتماعية تنشد مثلا أعلى بغير شك لكنها تظل محكومة بخريطة الواقع ومزروعة في أرض البشر .

واذا كان الاسلام يقبل استثناءا على قاعدة المساواة ، تفرق بين المسلم وغيره فذلك ليس انطلاقا من أفضلية المسلم على غيره ولكن استيفاء

لشروط معينة في مواقع بذاتها ، تفترض ان اعتناق الفرد للاسلام ، عنصر يوفر أكثر قدر من التوافق والانسجام (٦) .

اباحة مجال الحقوق بحيث تتسع لما يحرم على المسلمين ، واقامة بعض الاستثناءات التي تحصر بعضها بالمسلمين لضرورات وشروط يقتضيها ما يشبه (النظام العام) في ذلك الزمن وهي لا تتوفر في غير المسلمين . كل ذلك ليس بذي تأثير على مبدأ المساواة وسعة تطبيقه وهو ليس بغريب عن مجتمعات الدول الحديثة في تعاملها مع بعض الأقليات القومية التي تضمها تلك المجتمعات وتتمتع بالمساواة التامة مع سائر المواطنين ، ورغم كل ذلك يبرز في هذه المجتمعات الحرص على حصر بعض مراكز الأمن والقضاء والادارة الحساسة بمواطنين ينتمون الى الأكثرية دون ان يعتبر في ذلك أي مساس بالمبدأ والقانون .

ان الديمقراطية بمفهومها الحديث هي نظام حكم الأكثرية العددية والعقائد التي تسود نظم الحكم ويصل أفرادها الى مراكزه هي عقائد الأكثرية التي لا نراها تسمح لغير هؤلاء بالوصول الى أي مركز اداري حساس . فاذا ما لاحظ بعض المؤرخين في بعض الانظمة والعهود الاسلامية حصر بعض المراكز بالمسلمين فمن هذا المنطلق كان الحصر ، الذي طالما اخترق حجبه كثير من اليهود والنصارى فوصلوا الى أعلى مراكز الجيش .

ولسوف نتعرض لجميع هذه الامور ولكل ما أشرنا اليه في هذه المقدمة بحثا وتفصيلا متوخين من وراء ذلك الموضوعية في البحث والدقة في الاستناد . وقد حاولنا جهدنا ان نصل الى جلاء الكثير من

الامور عن طريق مؤلفات ليس لأصحابها ان يتحاملوا على أهل الكتـاب وهم منهم ولا ان يحرفوا في الوقائع ارضاء وتزلفا لأي من الحكام السياسيين كما حرصنا في اختيارنا لسائر المؤلفات والمراجع على ما كان له شهرة فـي تحري الحقيقـة وسعة العلم ودقة الاحكام وما يقربنا من واقع نسعـى وراء تبين حقائقه وتاريخ نحرص على قراءة منصفة وموضوعية لـه ..



الحياة الاجتماعية

في الغرب كما في الشرق كان الظلم والاستعباد ينشر ظلاله القاسية على المعذبين في الأرض من جميع الاجناس والأديان ، وكانت الجماهير تقاسي من حياة البؤس والفقر والحرمان عبر تصرفات أسياد يتمتعون وحدهم بجميع الحقوق وجميع الامتيازات بعيدا عن أية مساواة أو أية رحمة . وكان القانون يختلف تفسيره وتطبيقه باختلاف الضعيف والقوي .

وامتد هذا التعسف حتى شمل رجال الدين في بيزنطية وغير بيزنطية فتنكر قسم منهم للمبادىء التي كان يفترض ان يحموها ويبشروا بها وسكت القسم الآخر الذي لم تفتنه السلطة بعيدا عن مواقعها منعزلا عن مراكز التأثير .

وفي هذا الجو من التعسف والجور واللامبالاة بالقيم والانسان تشمل مختلف بقاع الأرض ، ظهر الاسلام في دعوته التوحيدية التي لا تعترف بغير المساواة بين البشر مبدأ وأساسا وكان أهم وأقسى ما ألب أهل مكة ضد الدين الجديد كونه (يود أن يدك صروح الفوارق الاجتماعية فيذهب بامتيازاتهم التي طال عهد تمتعهم بها،ويجعلهم يهجرون تقاليدهم الموروثة) . (٧)

في هذه الظروف الاجتماعية القاسية التي كانت تسود العالم في جميع

شعوبه ، ظهر الاسلام مبشرا بالمساواة العملية بين البشر والغاء كل امتياز طبقي • وكان طبيعيا ان يكون تعامله مع معتنقي الأديان الأخرى منبثقا من هذه المبادىء ، بعد ان واجه هذه العلاقة في مطلع الرسالة وبداية الدعوة ، فحدد الرسول (صلعم) أسسها ووضح ممارساتها في اطار من القول والعمل كان يعبر عن نظرة الاسلام الى هذه العلاقة وتصوره لها وتحديده لقواعدها•

واذا كنا سوف نعرض لتطور هذه العلاقة مع أهل الكتاب عبر مختلف عصور التاريخ الاسلامي فلكي نظهر ما انتهت اليه من تحديد لأوضاعهم وما تعرضت له هذه الاوضاع في فترات تاريخية معينة من اصطدام بأعمال استبداد تخالف منطق القواعد الثابتة التي رسمتها الشريعة، أو أعمال عنف تنطلق من مبدأ الخطر الداهم ويدعي لها مطلقوها صورة الردع والزجر ، وما اذا كانت هذه الفترات تستحق كل هذا المجال الذي يعطى لها في مراكز الاعلام الحديث ، قياسا على الزمن الذي استغرقته ، أو التعويض والمنع الذي تصدى لمواجهتها وازالة آثارها ، او حقيقة حصول الحدث وصحة اسناد الواقعة ، أو شرعية السبب الذي أدى اليها بعد عهد الرسول (صلعم) •

واننا لنرى في كل ما واجه اهل الكتاب في عهد الخلفاء الراشدين في علاقتهم بالمجتمع الجديد من قول او عمل ، امتدادا وتطبيقا للمبادىء التي رسم صورتها كتاب الله وسنة الرسول ، في شموليتها وانسانيتها • ومن اجل تفهم روح هذه المبادىء في ظهورها الى عالم الواقع الذي أريد له ان يختلج في مصدر كل حركة تسود اصول الحكم وتبسط يده كل البسط لتصل بالامور الى (أجمعها لرضا الرعية)لابد من ملاحظة الكلام التالي[٨]:

«واشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتنم أكلهم فانهم صنفان اما أخ لك في الدين أو نظير لك

في الخلق يفرط منهم الزلل وتعرض لهم العلل ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ فأعطهم من عفوك وصفحك »

جاء هذا الكلام في رسالة علي بن أبي طالب (ع) الى الاشتر النخعي عندما ولاه مصر ، وفيه يتراءى الموقف الاسلامي من مفهوم العدالة ومفهوم المساواة في شمولها لغير المسلمين . وفي مختلف نواحي الفكر الاسلامي السياسي نرى العدالة هدفا اساسيا للحكم ومبررا آصيلا للسلطة به تقاس فضائل السلطان ومن خلاله يحكم على عهده .

لكن تعريف العدالة تغير خلال مختلف عصور التاريخ الاسلامي . في البدء كانت تتمثل في تطبيق الشريعة الالهية والدفاع واحترام مبادىء الاسلام المقدسة ولكن بعد انقضاء عهد الخلفاء الراشدين أخذ الحكام المسلمون يعلقون اهمية أقل على هذه القوانين خارج مجالات الأحوال الشخصية والطائفية ، ولم تعد تؤلف وحدها مقياسا لعدالة الحاكم لأن الكلمة اخذت معنى التوازن وحماية النظام السياسي والاجتماعي وتثبيته . كل طائفة وكل عنصر يحتفظ بوضعه القائم ويعطي ما يستحق عليه ويأخذ ما يستحق له .

وفي الحالة الثانية كان غير المسلمين يحتلون وضعا معينا ومحددا فاذا انحرفوا عن مكانهم فان ذلك يعني اختلال التوازن الاجتماعي الذي يؤدي الى تهديد النظام الاجتماعي والسياسي .

ومن هذا المنطلق فان المقابلة بين موقف كل من المسيحية والاسلام تجاه الالحاد والهرطقة تظهر اختلافات أساسية .

في تاريخ الكنيسة تبدو الهرطقة موضوع اهتمام خطير وهي تعني انحرافا بالنسبة للعقيدة والممارسة الدينية المحددتين بصورة الأمر . في الاسلام يبدو الاهتمام بما يفكر به الناس ، قليلا جدا ، منذ اللحظة

التي يعتنقون فيها العقائد الاساسية • المسلمون يستطيعون اعتقاد ما يشاءون طالما أنهم يماشون القواعد الاجتماعية • حتى الهرطقة التي تبتعد بشدة عن قواعد الاسلام تبدو محتملة الوجود ولنا في التعامل مع الخوارج شواهد على ذلك فكثيرا ما هادنتهم السلطة الحاكمة في فترات انحسر خطرهم فيها • ولكن العنف والردع يبدآن عندما يتم الاعتقاد بأن العقائد المتطرفة او المنحرفة تؤلف خطرا جديا على النظام الاجتماعي والسياسي •

وهكذا كان أمر الخوارج في الصدر الأول من ملك معاوية متصلا لكنه كان يسيرا ، فسار فيهم المغيرة وعبد الله ابن عامر سيرة علي (ع) ، فكانا لا يهيجانهم ان سكنوا ، ولا يعرضان لهم بمكروه حتى يظهروا خلع الطاعة وينشروا الفساد في الأمر • فلما صار الأمر الى زياد في العراق اشتد في أمر الخوارج وعرف الخوارج ذلك من امره فاحتالوا في التخلص منه والاستخفاء من شرطه وعيونه • وقد أخاف زياد الناس جميعا ، فاستتروا منه أشد الاستتار ومكروا به أعظم المكر وكثر القعود بين الخوارج في أيامه وانتشر مذهبهم وتشجع النساء فملن الى هذا المذهب وشاركن فيه ، وخرج بعضهن فيمن خرج من أهل الكوفة ، وتعرض بعضهن للقتل والمثلة في البصرة (٩) •

وتجاه هذا الذي وصفنا يمكن القول ان التدابير التي كانت تتخذ تجاه الرعايا غير المسلمين تبدو محكومة باعتبارات مشابهة ، والتصدي أو الاضطهاد يبدأ عندما يتم الاعتقاد بوجود خطر جدي على النظام الاجتماعي والسياسي مصدره الفئة التي تتخذ التدابير ضدها •

ولم تكن هذه التدابير دائما مستمدة من قوانين الاسلام اذا لم تكن أحيانا وفي فترات متعارضة معه • ولكنها على كل حال نادرة بالنسبة

لغير المسلمين اذا مـا قيست بما كان يكابده المسلمون عبر بعض مذاهبهم وفئاتهم • واذا عرفنا ان التاريخ الاسلامي شهد فترات عنف سببها حكـام عتاة لم يكونوا كثيري التقيـد بالشرع والعدالة أدركنا سر بعـض ردات الفعل وأسبابها •

فزياد بن أبيه عندما ولي البصرة قال في خطبته البتراء : (لآخـذن البريء بالمسيء والصحيح بالسقيم) ولم يبد أي تأثر عندما نهض من ذكره قول الله عز وجل :

(وابراهيم الذي وفى ألا تزر وازرة وزر أخرى وان ليس للانسان الا مـا سعـى ••)

من هنا يمكن ان ننطلق في دراسة وضع غير المسلمين فـي الأقطار الاسلامية قريبا من هذه الوقائع التاريخية التي تمتلىء بها كتب الباحثين في التاريخ الاسلامي ومـا واجه المجتمعات الاسلامية من متاعب ومصاعب في استيعابها وتعاملها مع غير المسلمين في الداخل والخارج ولم تكـن قواعد هذا التعامل في كثير من الاحيان لترتبط بالاسلام كدين ونظام وبشرائعـه كمبدأ يحدد أسس الممارسات العامة والخاصة وليس من الامانة التاريخية في شيء ان ننسب للاسلام كل مـا واجه غير المسلمين من مصاعـب عبر تاريخهم الطويل ولا ان ننسب للاسلام كل مـا سكت عنه الحكـام من اعمال كانت تجري بعيدا عن معطياته •

فماذا واجه غير المسلمين وأهل الذمة بشكل خاص من سكان المناطق الاسلامية من متاعب ومصاعب وما علاقتها بالاسلام ؟ •

ان الاحترام الذي أظهره الاسلام لأهل الذمة ليس يحتمل مثلـه أي دين تجـاه حملة أية عقائد مخالفة له • فالقرآن الكريم واضح في تفصيلـه

لموقف الاسلام منهم : (ليسوا سواء من اهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله اناء الليل وهم يسجدون • يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسرعون في الخيرات واولئك من الصالحين) سورة آل عمران (١١٣ ــ ١١٤) •

صورة أهل الكتاب اذن كما تبدو من خلال آيات القرآن الكريم لم تكن لتساعد على اذكاء الحقد الديني بينهم وبين المسلمين فهم ليسوا بالكفرة وعقيدتهم لا تبتعد عن الصلاح الا بالقدر الذي يبتعدون عنها ، ولكن القرآن الكريم يضيف اليهم طائفة الصابئة والتاريخ لا يذكر لنا الكثير عن أحوال هذه الطائفة التي تواجه نفس الصورة ونفس المصير :

(ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) • (٦٩ ــ ٥)

هؤلاء هم أهل الذمة وقد كانوا يؤلفون طبقة معينة في المجتمع الاسلامي وقد ورد في نهج البلاغة على لسان علي ابن أبي طالب (ع) في رسالته الشهيرة الى واليه على مصر : (الرعية طبقات منها جنود الله ••• ومنها أهل الجزية والخراج ••• وكل قد سمى الله له سهمه أي نصيبه من الحق •)

ومما يلاحظ ان علي ابن أبي طالب (ع) لم يهمل أمر (المعاهدين) في أية من رسائله لعماله • وقد ورد في كتاب له عليه السلام الى عماله على الخراج : (ولا تمسن مال أحد من الناس مصل ولا معاهد) [١٠] • فمالهم حق لهم حرام على غيرهم ، حكمه حكم مال المسلم في الدولة الاسلامية •

هذه الحقوق لم تكن لتمس ولم تكن لتنتقص سوى عندما يسمح بذلك الشرع (القانون) • ولعل ذلك المساس بالحقوق في شروطه القديمة

مما تحتمله القوانين الحديثة وتشير اليه أنظمة العصر الحديث •فان ثمة حاجزا يدعى اليوم (النظام العام) وكل ما يمس النظام العام يحول دون تطبيق القانون ومفهوم النظام العام هذا يبرز بقوة وعنف اثناء الحروب التي تهدد المجتمع بالاحتلال وتهدد الدولة بالانهيار وأثناء الثورات التي تهدد أمن البلد الداخلي فيوقف تطبيق القانون الذي يؤلف الخطر وتهدر الحقوق وتلغى الأنظمة ويوقف تنفيذ الاحكام بالقدر الذي يهدد النظام العام والأمن العام بالخطر مهما كان نوعه وأنى امتدت جذوره •

من هذا المنطلق يلاحظ عبر التاريخ الاسلامي بعض التناقضات في مواقف تتخذ تجاه أهل الكتاب من هدر لحقوق مشروعة لبعضهم الى مضايقات تتناول حرياتهم التي احترمها الشرع الاسلامي بل ولم يفرق بينها وبين ما يعامل به المسلمين ، هذه المضايقات ، وهي قليلة ونادرة بالنسبة لطول الفترة التاريخية التي تظهر فيها او تختفي تمت بصلة ، وهذا أندر وجودا ، الى مزاج بعض الحاكمين وجورهم وخروجهم على قواعد الاسلام او عدم اهتمامهم بها ، وتمت بصلة احيانا اخرى الى الحروب التي يخوضها المسلمون ضد اعدائهم في فترات متباعدة واخرى متقاربة ، وتمت بصلة الى مدى جدية الخطر المحدق بالنظام أو مدى هزاله وعدم تأثيره • ويحدثنا المؤرخون عن اتهامات تشابه ما يسمى اليوم (تعاملا مع العدو) ، أبرزها فرض اللباس الخاص على نصارى الثغور ، كان ينتج عنها كما حدث في عهد الرشيد تخريب لمسلسل العلاقات الحسنة التي كانت تسود أبناء المجتمع الواحد من مختلف الملل في ظل الحكم الاسلامي ، وقد جاء في كتاب « الخطط » للمقريزي ان شيئا من قلة التفاهم كان بين العرب والأقباط في مصر في مطلع القرن الثالث للهجرة وأن الأقباط قد أدخلوا في الحديث أحاديث يوصي فيها النبي (صلعم) بالأقباط خيرا ، ومن هذه

الاحاديث ما يبين بكل جرأة الدور الذي يقوم به الكتاب النصارى في الدولة الاسلامية .

ففي حديث ذكروه : وهم (القبط) أعوانكم على عدوكم وأعوانكم على دينكم ، قالوا : كيف يكونون أعوانا على ديننا يا رسول الله ؟ قال : يكفونكم أعمال الدنيا وتتفرغون للعبادة) .

ولقد قام الأقباط بهذا الدور خير قيام حتى ان اكثر الفتن التي وقعت بين النصارى والمسلمين في مصر نشأت عن تجبر المتصرفين الأقباط ، ولما جاءت انتصارات الروم على المسلمين حوالي منتصف القرن الرابع الهجري كان لها صداها في مصر ، فلما ورد الخبر بأن الروم دخلوا الشام عام ٤٣٩ هـ - ٩٦٠م وقتلوا وخربوا هاج المسلمون على النصارى ووقعت صيحة في الجامع العتيق بعد صلاة الجمعة فهاج الرعاع ونهبوا كنيستين[١١] ولما غزا الامبراطور نقفور جزيرة اقريطش في العام ٤٤٠ هـ ووصل خبر ذلك الى مصر تعرض المسلمون لكنيسة ميخائيل وظلت مغلقة مدة طويلة [١٢] .

اذن كان من اهم اسباب الفتن بين المسلمين وأهل الكتاب في التاريخ القديم تلك الحروب التي كان المسلمون يخوضونها مع اعدائهم وهذا ما سبب مضايقات كثيرة لأهل الكتاب خصوصا من النصارى ولكن سبب جميع هذه المضايقات يبدو أمنيا اكثر منه تعصبا دينيا لذلك كانت شدة التسامح تظهر وتختفي وفقا لقوة وضعف الدولة الاسلامية وكانت تبلغ أوجها في فترات قوة الدولة وسلامة كيانها وتتمايل بين الشدة والضعف في فترات تتعرض فيها سلامة الدولة للخطر ويضعف نفوذها وتتقلص قوتها ولكنها تتأثر الى حد كبير ودائم بتحركات العدو خاصة البيزنطي على الحدود الشمالية .

وليس غريبا ان نلاحظ ان أوضاع غير المسلمين تسوء بعد الحروب الصليبية مع ان العالم الاسلامي أصبح أضعف من ذي قبل وأفقر نسبة للعالم المسيحي . وانه لأهون على المرء ان يظهر متسامحا عندما يكون قويا منه عندما يكون ضعيفا او مهددا .

لا نجد المؤرخين حتى المسيحيين منهم يذكرون الا قليلا من المشاغبات بين المسلمين وأهل الذمة حتى نهاية القرن الرابع الهجري والحوادث التي سردت تبدو تافهة خصوصا وأنها في أكثرها قد ووجهت من قبل السلطة وأخمدت على الفور لانها كانت وليدة نزوات شخصية ربما او غير ذلك من الاسباب التي اعتاد المؤرخون القدماء اهمالها عندما تكون ذات طابع اجتماعي او تتعلق بتزاحم مهني او تجاري الى ما هنالك مما كان يعتبر تافها في نظر هؤلاء ، فهم لا يسردون من الاسباب الا ما تعلق بشؤون الملك والجيش والقضاء والعلم والعلماء وهذا ما يعكس النظرة الاجتماعية لبعض المهن التي تخرج عن ما ذكرنا : سنة ٣١٢ هـ ، يقول المؤرخون ، ثار المسلمون بدمشق وهدموا كنيسة كبيرة وأخذوا منها زهاء مائتي الف دينار وكذلك ثاروا بالرملة ونهبوا كنيستين وهدموا كنيسة قيسارية فرفع النصارى الأمر الى المقتدر فوقع لهم ببناء هذه الكنائس .

وكذلك يحدثنا المؤرخون عن حوادث جرت في عسقلان وفي مدينة السلام سنة ٣٢٥ هـ وكذلك سنة ٣٩٢ هـ (١٣) . وسنة ٤٠٣ هـ ، ولكن كل هذه الاحداث تبدو ضئيلة وعادية في مسلسل التاريخ الطويل سواء بأسبابها وبنتائجها ونعتقد انها لا تخرج عن كونها نتيجة خلافات محلية داخلية لأسباب تجارية ربما أو اجتماعية او مشابهة لما يحدث بين أهل المدينة الواحدة في هذه الأيام من خلافات متعددة الاسباب. وربما وجدنا فيما حدث للموالي المسلمين ما يلقي أضواء على ما كان يجري بالنسبة

للرعايا من أهل الكتاب ولماذا لا تكون الاسباب واحدة أو متشابهة طالما ان النزاعات البشرية في المجتمع الواحد لا تتغير ؟

واذا كان يحيى بن سعيد يطلق اسم (الرعاع) على منفذي الفتنة في مصر ضد الأقباط عام ٤٣٩ هـ ـ ٩٦٠م مستعملاً العبارة التالية : (وهاج الرعاع) ، فان في هذا التعبير دليلا على سخط واشمئزاز وأسباب تافهة ربما وبعيدة عن التعصب الديني ولو كان الأمر غير ذلك لما أمكن للمؤرخ المذكور ان ينسب هذه الصفة لهذه الاعمال او لما استعملها لو كان مقتنعا بأسباب الفتنة •

وهؤلاء هم الموالي المسلمون يعانون م ن ضيق واعتداءات و •••• وليس السبب تعصبا دينيا وليس حقدا مذهبيا ولكن تعصب من نوع آخر لا بد ان يستجمع شروطه غير المسلمين ايضا والأمر هنا ليس يتفق مع تعاليم الاسلام في شيء ، والموالي مسلمون ، ولكنه يتعلق بخلافات سياسية تحركها عوامل حقد وتزاحم على الحكم ترفض التقيد بمعطيات النظام وأمور الدين في عصور يبدو الرادع الخلقي فيها ضعيفا وكذلك الرادع التنظيمي بعد ان ابتعد اهل الحكم عن بعض مقتضيات النظام الاسلامي الأساسية كمبدأ الشورى الذي استبدل بالاستبداد في بعض العهود •

الموالي اذن كانوا من المسلمين وتعرضوا لما تعرض له أهل الكتاب في صور تشتد وتضعف وفقا لقوة وضعف بعض الحكام والولاة • وقد لقي الموالي من أسيادهم الأرستقراطيين معاملة كلها ذل وهوان • ويقول المؤرخ سايكس (١٤) : ان هذه المعاملة تفوق ما تحمله النورمان من السكسون الفاتحين • وقد ورد على لسان اليعقوبي ان هزيمة ابن الأشعث كانت نقمة على الموالي ، فبدأت فترة جديدة من التعذيب وسفك الدماء

وبلغت قسوة الحجاج عليهم حدا جعل عبد الملك يبدي استياءه من تصرفاته فبعث اليه يلومه ويوبخه ، واستمر الحجاج في سياسة الاضطهاد في عهد الوليد بن عبد الملك ، حتى هرب آلاف الموالي من العراق الى الحجاز حيث الوالي الأموي العادل عمر بن عبد العزيز ، لكن الحجاج بعث الى الوليد يبين له خطورة هرب الموالي الى الحجاز ، فعزل الوليد عمر وولى خالد بن عبد الله القسري وأمر باعادة العراقيين الى الحجاج [١٥] .

اذن لم تكن فترات الظلم والاستبداد لتختص بأهل الكتاب وحدهم بل كانت تتعداهم احيانا ، بل تقتصر على غيرهم في كثير من العهود ولم يكن الاضطهاد اللاحق بالموالي المسلمين في بعض هذه العهود ليتفق مع الشريعة الاسلامية أو ليستوي مع مقتضيات النظام السياسي الاسلامي ، كما لم يكن الأذى الذي يلحق بأهل الكتاب في بعض من الفترات ليتفق مع تعاليم الاسلام او مع مقتضيات النظام السياسي الاسلامي القائم، ولكنه، كما قلنا استبداد السلطة ودكتاتورية الحكم والبعد عن (الشورى) يتسمر في بعض فترات التاريخ ليظهر نتوءات لم تكن لتعبر عن مظاهر الدين ولا عن مقتضيات العدالة . وفترات الاضطهاد أو الفتن أو غيرها مما ألحق الأذى ببعض من أهل الكتاب ،لا تنتسب الى الاسلام الا بالقدر الذي يمكن ان تنتسب اليه اعمال زياد ابن أبيه أو قوله عندما ولي البصرة موجها لأهلها كلاما قاسيا شديدا بعيدا عن المنطق والحق وعن مقتضيات العدالة :(لآخذن البريء بالمسيء والصحيح بالسقيم) . وقصر هذه الفترات كما سبق ان رددنا جعلها لا تستقيم مع ما يعطى لها من تفسير لتؤلف تعبيرا عن قواعد ثابتة في مفهوم الحكم في المجتمع الاسلامي ، خصوصا وأن آثارها كانت تزال بسرعة بما يحفظ هيبة العدالة التي تؤلف المبدأ والأساس في نظام الحكم في الاسلام .

ومثل آخر يبدو فيما حدث عند الغزو المغولي • فالمغول فتحوا مراكز الاسلام الاساسية ومكنوا لسيطرتهم عليها وحطموا الخلافة وأقاموا لأول مرة بعد عصر الرسول (صلعم) سلطة غير اسلامية في مراكز الثقل الاسلامي • بعض المسيحيين واليهود القاطنين في تلك المراكز المتكلمين بلغة أهلها بدوا ادوات ثمينة في يد الملوك المغول وبعضهم شغلوا مراكز هامة ، وبطبيعة الحال فان الافراد الذين تعاونوا لم يكونوا الكثرة الساحقة من اليهود والنصارى ، وكان من المسلمين نفر تعاونوا أيضا مع هؤلاء المغول وكان لبعضهم من العلماء رأي في أن هذا التعاون قد خفف من الويلات التي كان من الممكن انزالها بالمجتمع الاسلامي • وكان من بين المسلمين والنصارى من رفض التعاون أو تحفظ في ذلك ولكن التاريخ على العموم لا يذكر للمتحفظين مواقفهم التي لا تصل الى مواقع أضوائه وهذه المواقع كثيرا ما تفرضها سلطة القوي وأثره في تدوين الوقائع على النحو الذي يمنع وصول الصوت والصدى في كثير من الأحيان ، ويبقي للبحث والتنقيب والتحليل والاستنباط دور في تقصي أصداء الوقائع التي أهملها أو حطمها أو حور في أهدافها وغاياتها ، استبداد حاكم أو عاطفة مؤرخ أو حقد متعصب •

وهكذا نجد انه عندما تحول الفاتحون المغول الى الاسلام ودخلوا العالم الاسلامي وتبنوا ممارساته دفع بعض اليهود والنصارى ثمن ما فعلوا خلال مساهمتهم مع الفاتحين الجدد •

ولا بد هنا من الاشارة الى الحروب الصليبية حيث تضامن مع الصليبيين بعض أبناء الطوائف المسيحية وواجهوا بعض المتاعب بعدذهابهم، ولكن هذه الفترة لم تعرض اليهود لأية ردة فعل لأنهم لا يكنون أية عاطفة للصليبيين، وبعد بعض المواجهات العنيفة في هذه الحروب ظهرت موجة من

الاعتقاد بأنه لا يمكن الركون الى غير المسلمين في هذه الحروب والملمات، وسيكون لهذه الموجة أثرها في تحرير تصرفات بعض الحكام من قيود الشريعة ومن مقتضيات الاعراف وما درج عليه المسلمون من سعة الأفق وسعة التسامح ٠

ثم ان دور الامبراطوريات الاوروبية في البلدان الاسلامية في العصور الحديثة خلق وضعا مشابها ٠ اذ هنا ايضا قام نفر من أعضاء الأقليات المسيحية واليهودية ، بتأدية خدمات مختلفة للسلطات الامبريالية ٠ وبعض هذه الأقليات من الطبقات العليا اندمجت بالسلطة الاوروبية وتبنت لغتها وثقافتها وأحيانا جنسيتها (١٦) ٠ ورغم أن بعض المسلمين فعلوا مثل ذلك ، فان وضعا على شيء من الصعوبة واجه هذه الأقليات أو بعضها في بعض البلدان عند نهاية حكم الامبراطوريات وانسحاب اوروبا ، ولكنه لم يدم طويلا امام حرص الشعوب المستقلة حديثا على وحدتها واستقلالها ٠

ولكن ماذا تعني هذه الوقائع للمؤرخ المنصف اذا شاء ان يتقصى أسبابها ونتائجها ؟٠

ان الفترة الزمنية التي تمثلها هذه الأزمات تبدو واضحة من حيث المدة امام مسلسل التاريخ الطويل والوئام الذي ساد فيه علاقات المسلمين بالنصارى خلال قرون عديدة ٠ ويبدو موقعهم في بعض هذه الفترات متصلا بالطبقة العليا من المجتمع ويمكنهم هذا الموقع من ادخال الأحاديث (المبرمجة) التي ترضي مطامحهم في الربح والنفوذ ٠ واذا كان دخول الروم الى سوريا وارتكابهم جرائم القتل والتخريب ضد المسلمين قد أدى الى هياج الرأي العام الاسلامي ضد النصارى وذلك محل ريب لأن المؤرخ الذي يتحدث عن الاعتداء ينسبه الى (الرعاع) كما رأينا وهذا

يعني انه لم يشمل كل طبقات المجتمع ولم يشمل بشكل خاص الطبقة المنورة، فان عدم امتداد اعمال الشغب لمناطق السكن واقتصارها على فترة زمنية قصيرة ، وعدم المامنا بتفاصيل ما أحدثه الروم في سوريا من دمـــار في الارواح والممتلكات ، كل ذلك يقلل من اهمية ما حدث ويبتعد بأسبابه ونتائجه عن أية دلالة يمكن الركون اليها للقول بروح عداء أو دوافع حقده

اذا كانت الوقائع التي رافقت فترات الحروب والعنف ليست مؤشرا على حقيقة الغاية وصحةالهدف وسلامة الموقف فانه لا بد للباحث من تقصي أحوال أهل الكتاب في الفترات العادية من التاريخ الاسلامي ، هـــل كانوا دائما كما تشير رسالـــة الخليفـــة علي بن ابي طالب (ع) ، طبقة مـــن طبقات هذا المجتمع الكبير الذي يضم المسلمين كأكثرية لا يستغنـــى عنها من الناحية الاجتماعية ، كما لا يستغنى عن اي من سائر الطبقات ، أم ان دور هذه الطبقة التي يؤلفون أخذ يتقلص ويضعف بعد هذه الكلمات التي عبر عنها مفهوم الاسلام الحق في عهد الخلفاء الراشدين وعلى لسان أكثرهم تشددا في انتقاء الكلمات التي تعبر عن الموقف الذي لا لبس فيه ولا ابهام ولا غاية سوى تطبيق المبادىء التي اقامها الدين الحنيف ؟ .

لا بد في هذا المجال من الرجوع الى تاريخ العصور التي تلت لتقصي واقع اهل الكتاب ودورهم في المجتمع الجديد ومدى قبول هذا المجتمـــع لهم واندماجهم فيه .

ومـــا وردنـــا على لسان المؤرخين في هذا المجال كثيـــر يتنـــاول الدور الفاعل الذي كان لأهل الكتاب في المجتمع الاسلامي والحرية التي يتمتعون بهـــا تعبر عنها مظاهر متعددة ووقائع كثيرة كانـــوا يظهـــرون من خلالها في مـــوقع التأثير الاجتماعي والاقتصادي والسياسي احـــيانا . هذا الموقع بالذات دفع ببعض عاداتهم وتقاليدهم بل والمظاهر ذات الجذور

الدينية من هذه العادات والتقاليد الى واجهة المجتمع الاسلامي بسبب التسامح الذي كان يسود هذا المجتمع نتيجة لموقف الدين الاسلامي منهم ولسلامة الموقع الذي رسم لهم في مجتمعه الجديد . ولو كان الأمر خلاف ذلك لاندثرت هذه المظاهر أو آزيلت مع ما أزيل من مظاهر المجتمعات الملحدة ورموزها ، ومن اهم المظاهر التي تسترعي الانتباه لما لها من دلالة اجتماعية وسياسية كان اشتراك المسلمين في الاحتفال بالأعياد المسيحية في الحواضر الاسلامية الكبرى .

يقول بعض المؤرخين : ان أعياد أهل بغدادتكاد تكون نصرانية من كل وجه ، وكانت اعياد القديسين في مختلف الاديرة أكثر الأعياد نصيبا من احتفال الناس في القرن الرابع الهجري ، ولكن هذه الاديرة كانت لا تخلو حتى في غير الأعياد من الزوار الذين لا تربطهم بالدين صلة (١٧) . وكانت الاديرة ببساتينها الفسيحة وقاعات شرابها الباردة مجتمع اهل البطالات ومقصد طلاب اللذات من البغداديين وكثيرا ما يقترن ذكر الاديرة بذكر الشراب في كلام الشعراء . قال ابن المعتز :

يدير المطيرة نقرى المدا م لدى القس لما أتيناه زورا

ولم تكن الحال في مصر تختلف كثيرا عما تقدم وكان يوم أحد الشعانين يوم عيد كبير للعامة ولا بد أنه كان عيدا قديما من أعياد الأشجار وخصوصا اشجار الزيتون وكان في مصر عيد يسمى عيد الزيتونة (١٨) . وكانت الوصائف في يوم أحد الشعانين يظهرن في قصر الخلافة ببغداد متزينات في ثياب جميلة غالية وفي أعناقهن صلبان من الذهب وبأيديهن قلوب النخل وأغصان الزيتون .

وكان الرسم بمصر وسائر البلدان ان تزين الكنائس في هذا العيد بأغصان الزيتون وقلوب النخل ويفرق منها على الناس على سبيل التبرك

فمنع الحاكم بأمر الله ذلك في بيت المقدس وفي سائر اعمال مملكته وأمر ألا تحمل ورقة من ورق الزيتون ولا من سعف النخل في كنيسة من الكنائس وألا يرى من ذلك شيء في يد مسلم ولا نصراني ، وكان من العادات الخاصة بالنصارى في هذا العيد لبس الثياب البيضاء (١٩) .

وكان الخميس المقدس يسمى في مصر خميس العدس ، لأن النصارى يأكلون العدس في هذا اليوم وكان العدس يعتبر طعام الحداد . وكان أهل الاسكندرية في يوم خميس العدس يخرجون الى المنارة بمآكلهم فمنهم من يذكر الله ومنهم من يصلي ومنهم من يلهو ولا يزالون هناك الى نصف النهار (٢٠) .

وفي الشام كان هذا اليوم يسمى الخميس الأزرق أو خميس البيض وكان يباع فيه بأسواق القاهرة بيض مصبوغ عدة ألوان (فيقامر به العبيد والصبيان والغوغاء) (٢١) . وكان عيد بربارة يأتي في اول الشتاء (الرابع من كانون الاول) وكان المسلمون يعرفونه ، فيقول المقدسي أنه من أعياد النصارى التي يتعارفها المسلمون ويقدرون بها الفصول وبه يعرف وقت الأمطار ومن أمثال الناس كما يقول المقدسي :

(اذا جاء عيد بربارة فليتخذ البناء زمارة ، يعني فليجلس في البيت) . والمقدسي يفتخر بأنه رأى عيد بربارة . ولكن المسلمين كانوا يحتفلون ايضا بليلة الوقود التي تعرف بالسدق (٢٢) وتكون بحسب ما ذكره ابن الأثير وأبو الفدا في ليلة عيد الميلاد (٢٣) .

ويقول المقريزي : انه كان للناس عند خليج الخور مجتمع يكثر فيه لهوهم ولعبهم وسنة ٤١٥ هـ كان ثالث الفتح فاجتمع عند كنيسة المقس في مصر خلق كثير من النصارى والمسلمين في الخيام للأكل والشرب واللهو وشوهد من سكر النساء وتهتكهن وحملهن في قفاف الحمالين سكارى

واجتماعهن مع الرجال ما يقبح ذكره (٣٤) .

وكان الى جانب هذه الأعياد آثار رأس السنة الفارسية القديمة وكانت العادة بالاجمال ان يحتفل بعيد النبروز بتبادل الهدايا فكان الخليفة في بغداد يفرق على الناس اشياء منها تماثيل مصنوعة من عنبر ، وكان خلفاء الفاطميين يهدون للناس فيه الكسوات والطعام (٣٥) .

ولكن ما علاقة كل ذلك بوضع الأقليات في الدولة الاسلامية عبر مختلف عصورها ؟ وهل تعبر المشاركة في الأعياد عن الوضع الحقيقي لأهل الكتاب في المجتمع الاسلامي ؟ اذا لم تكن كل ذلك فانها من دون أي شك تعبير عن تسامح أدى الى نوع من اندماج تلك الأقليات الدينية في المجتمع الاسلامي وتفاعلها معه وتأثيرها فيه بشكل او بآخر لأن الأعياد خاصة الدينية منها لا يمكن ان تأخذ طريقها الى المجتمع الآخر اذا كان لا يزال على شيء من التعصب الديني او العنصري او السياسي والدلالة الاجتماعية والفكرية التي تعبر عنها هذه الظاهرة هي بالضرورة وليدة تطور حضاري يتفاعل فيه الفكر والدين والمجتمع ضمن معطيات ايجابية بعيدة عن أية سلبيات يفرزها ضيق أفق الدين او المجتمع او الفكر الذي يميزها .

ولأن هذه العادات لا تنشأ فجأة وبقدرة قادر أو أمر حاكم فتلك المشاركة لا بد لها من وقت يطول او يقصر وفقا لتطورات اجتماعية واقتصادية تترافق مع منهجية فقهية تستقيم مع خطها أو هي ترسم أفق هذا الخط .

اذا كانت عادات أهل الكتاب وأعيادهم قد دخلت المجتمع الاسلامي وتفاعلت معه فرسخت حتى لم تعد لتفترق عن تقاليده الاصيلة فذلك لا شك، لم يكن ليحدث لو أن مقاومة دينية في جذورها كانت ممكنة امام هذا التفاعل ولولا ذلك التسامح الذي يسيطر على المبادىء الاسلامية الاصيلة

ليحول دون منع اقامة شعائر سائر الأديان ودون ان يمس حتى مـا أدخل عليها من عادات وطقوس بعيدة عـن صورة منشأها ورغـم ان مشاركة المسلمين في بعضها احيانا ، يؤلف حافزا أو وسيلةلبعضهم لارتكاب محرمات معروفة كالشراب واللهو وحتى الخـلاعة التي يحـرمها المسلمون وغيـر المسلمين كما حدث سنة ٤١٥ هـ بعد الاجتماع الذي جرى عنـد كنيسة المقـس في مصـر ومـا ادى اليـه الشـراب بعدهـا مـن فجـور ،

فان مـا يهمنا من هذه المشاركة ليس مـا أدت اليـه مـن وقـائع وتفاصيل وما تطورت اليـه طريقة تنفيذها بل ما تعبر عنه كنتيجة لحريـه القول والعمـل التي أعطيت لغيـر المسلمين في مختلف عصـور الدولة الاسلامية ولو كان للاسلام موقف آخر ، لكانت النتائج مختلفة تماما ولما أمكن لهذه الأعياد ان تصبح تقليدا لدى المسلمين كما كانت لدى غيرهم .

وثمة ، مع كثرة الظواهر الناتجة عن اندماج أهل الكتاب في المجتمع الجديد ظاهرة أخرى ، وهي دور الاديرة المتناثرة في كل مكان مـن البلاد الاسلامية والمتركزة بشكل خاص في اهم الحواضر وأشدها تأثيرا في حياة العالم الاسلامي يومذاك ، في بغداد والقاهرة ودمشق .

يستفـاد مما يقوله ابن حوقل : أنـه كان في مدينة بغداد فـي أول القرن الثالث للهجرة (ما يين أربعين وخمسين ألف نصراني) وان اكثـر أهالي مدينتي الرها وتكريت مـن النصارى وان فيها كثيرا من الأديـرة القديمة التي تقارب عهد عيسى عليه السلام والحواريين ، لم تتغير أبنيتها وثاقة وجلدا (٣٦) . وكانت الاديرة منتشرة في كل اجزاء بغداد وسبب ذلك على مـا يبدو ان الحكومة الاسلامية لم تكن لتتدخل في شعائـر أهـل الذمة الدينية ، بل كان يبلغ من بعض الخلفاء ان يحضر مواكبهم وأعيادهم ويأمر بصيانتهم (٣٧) .

وهناك ظاهـرة تستدعي التوقف عندها لما لها من دلالـة على الثقة بشعائر أهل الكتاب فيستسقون بها المطر وهذا مـا يستدعي مسلسلا من العلاقات الطيبة تستمر خلال فترات زمنية طويلة تختمر خلالها أسباب هذه الظاهرة في تطور نحو تبادل الثقة عبر تجارب تحتاج للزمن الطويل ٠

ففي حالة انقطاع المطر كانت الحكومة تأمر بعمل مواكب « يسيرفيها النصارى وعلى رأسهم الأسقف واليهود ومعهم النافخون في الأبواق» (٢٧)٠

هذه الظاهرة تبدو غريبة في بلد اسلامي ولكنها شديدة التعبير عن الاحترام الذي يبديه الناس والحكام نحو النصرانية واليهودية ، ويؤكـد هذا الاحترام ما ذهب اليـه البعض من ان المسلمين كانوا يرون ، أو بعض فقهائهم ، في الديانتين شكلا غير متكامل من الاسلام ٠ واذا ما أخذنـا بعين الاعتبار ما للمطر من أثر في حياة تلك المجتمعات التي تعتمد الزراعة بدرجة أولى ، ومـا بدا من اعتمادهم لصلاة خاصة في هذا الشـأن تقـام في الاعوام التي يشح فيها المطر وتدعى صلاة الاستسقاء نستطيع تقـدير البعد الفكري والديني الذي ترمز اليـه هذه الواقعة بما فيها مـن تسامح يصل الى درجة الارتفاع بالايمان النصراني أو اليهودي نحو مرتبة الاعتراف له بشيء من ما يسميه المسلمون (الكرامات) يعززه ما كان لانعدام المطر من آثار سيئة في احداث المجاعات والمشكلات الاقتصادية المخيفة، يجري التقرب الى الله من اجل تلافيها بواسطة طقوس يتحدث عنها المؤرخـون بشيء من الاطالة ٠

من هنا نستطيع تأكيـد مـا كان لتلك الاديرة المنتشرة في مختلف نواحي بغداد والقاهرة ودمشق وغيرها من الأقطار ، من أثر فـي الحياة الاجتماعية للمسلمين وتصور الحريـة التي يتمتع بهـا سكان تلك الأديرة

وقاصدوها في تلك العصور النائية • لقد ازدهرت الاديرة وتنامت في هدوء يذكر بعصورها القديمة الاولى واذا كان بعضها يتعرض لشيء من مضايقات في فترات معينة فان ما كانت تتعرض له بعض المؤسسات الاسلامية المعاصرة يدل على ان الامر يتعلق باحداث شخصية من تصرفات حاكم يخضع لتأثير نزوة من نزواته او عقدة من تلك العقد النفسية التي تصنعها ظروف معينة لتواجه أخطارها ونتائجها جهات أخرى في ظروف مشابهة او معاكسة ربما •

وازدهار الاديرة كان القاعدة في تلك الفترة من التاريخ خصوصا في القرنين الثالث والرابع الهجري ، ومنها الدير المسمى دير قنى (٢٨) • وهذا الدير كان يقع (على مسافة ستة عشر فرسخا من بغداد ، منحدرا في الجانب الشرقي ، بينه وبين دجلة ، ميل ونصف وفيه مائة قلاية لرهبانه والمتبتلين فيه ، لكل راهب قلاية ، وهم يبتاعون هذه القلالي بينهم من ألف دينار الى مائتي دينار الى خمسين دينارا ، وعليه سور عظيم يحيط به وفي وسطه نهر جار ، وعيده الذي تجتمع الناس اليه عيد الصليب (٢٩) •

وكان أكبر الاديرة بمصر الدير المعروف بدير انطانيوس وبينه وبين النيل ثلاثة ايام في البرية وقيل ان عدد نخيله ألف رأس نخيل وله ثلاثة عيون ماء تجري دائما ويسقى منها البستان ومن جملة البستان فدان وسدس كرم عنب وبه جوسق كبير وقلال للرهبان مطلة على البستان) • (٣٠)

واذا كانت هذه هي اوضاع النصارى في المجتمع الاسلامي عبر التاريخ واذا كانت الوقائع التي أمكن سردها تعبر عن نظرة الاحترام المتبادل بين المسلمين والنصارى فلا بد من ملاحظة ان هذه الأجواء سادت عصور

ازدهار الحضارة الاسلامية وانطلاقها وتقيد الحكام بمعطيات الدين الاسلامي في مبادئه وأوامره ونواهيه •

هذه لمحة عن حياة النصارى من اهل الكتاب في المجتمع الاسلامي، وهي بقدر ما تعطي فكرة واضحة واستنتاجا سليما عن تطبيق الشريعة الاسلامية على الأرض تقدم لنا ايضا صورة عن اسلوب الحياة المشتركة كما أدى اليه هذا التطبيق بعد ان خرجت المبادىء من على الورق الى حنايا المجتمع ، ولكنها عندما تواجه خلجة الحياة لا بد ان تؤثر فيها وتتأثر بها • فالمبادىء الاسلامية أدخلت المسيحيين واليهود الى صميم المجتمع الاسلامي وجعلتهم طبقة من طبقاته كما سبق ان فصلنا ولكن هذه الطبقة لم تكن شيئا ماديا يوضع الى جانب اقسام اخرى فيسد فراغا ماديا وحسب بل ساهمت في صنع مجتمع كامل يحمل تاريخا وحضارة ومميزات بشرية خاصة لا بد من ان تتفاعل مع التشريع الجديد والمجتمع الجديد فتتغير فيه ويغير فيها بالقدر الذي يسمح به الدين الجديد والاوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي واجهها وبقدر آخر يزيد وينقص بتغير تلك الاوضاع وتنوعها في مواجهتها لألوان مختلفة من مظاهر الاجتماع والسياسة والاقتصاد واستيعابها لاعداد جديدة من أهل الكتاب تختلف نشاطاتهم الاجتماعية والاقتصادية شدة ولينا وتقدما ازدهارا وتختلف بلدانهم من حيث الرخاء والفقر وقسوة الحياة وليونتها ، من الشمال الى الجنوب الى الشرق والغرب •

وقد كان المسلمون خلال تلك التطورات يحترمون كل الاحترام مبادىء التسامح التي بشروا بها والتي انطلقت من قيم اقاموا وعقود وعهود احترموا بنودها حتى لفظت الدولة الاسلامية آخر أنفاسها • وقد أدى ذلك احيانا الى معاناة اجتماعية ، تزداد وتنقص تبعا لتسامح أو ضيق

صدر الخلفاء والحاكمين ، وقد تبلغ تلك المعاناة حد احتمال الوصول الى ارتكاب محرمات لا يقرها الاسلام ولا تقرها اديان اهل الكتاب .

فحرمة الاديرة جعلت الخلفاء والحاكمين يغضون الطرف عن ما كان يجري في أعياد النصارى واليهود أحيانا كما سبق بيانه ، داخل بعض الاديرة من تعاطي المسلمين الشراب حتى السكر الشديد ، وما حدث عام ٤١٥ هـ في مصر وسبق ان بيناه في صفحات سابقة ، كل ذلك ينم عن حصانة كانت تتمتع بها المؤسسات التابعة لأهل الكتاب بعيدا عن تدخل سلطة الدولة ، ولا شيء غير ذلك كان يمكن ان يمنع السلطة من التدخل كما كانت تفعل دائما في مثل هذه المناسبات في الأوساط الاسلامية ، حيث كان شارب الخمرة يسجن ويمنع وكان متعاطي اللهو المحرم يسجن وتطبق بحقه الحدود في نفس الفترات التاريخية التي تحدثنا عن حصانة تحمي المسلم من العقوبة على ما يرتكبه من شرب ولهو داخل تلك المؤسسات . والتاريخ يوضح باسهاب ما كان يتعرض له بعض الشعراء والماجنين من عقوبات تواجههم رغم منزلة بعضهم عند الخلفاء . لكنه لا يتحدث حتى عن تدابير تتخذ في ايام يتعاطى فيها نساء الخمرة حتى السكر وحتى يحملن (في قفاف الحمالين) نتيجة حفل يقام في دير أو في كنيسة وهو ما كان كثير الحدوث ! وما لا يمكن ان يفسر بغير وجود حصانة أقرها المجتمع الاسلامي لمؤسسات أهل الكتاب وأشخاصهم (وما ملكت ايمانهم) ايضا ، والتسامح لا يمكن ان يخرج من كتاب يقرأ او عظة تسمع أو حديث يبلغ ولكنه حالة نفسية اجتماعية تسود مجتمعا بعينه عندما تأخذ قوة (الفرضية) في نفوس ابنائه .

هذا ما اختمر في المجتمع الاسلامي بعد الدعوة وحين نضجت المبادىء ودخلت نفوس الناس وقلوبهم فانبتت ذلك التفاعل الذي أوصل أهل

الكتاب الى أعلى درجات الحكم ، ولو كان ما جرى منافيا لعواطف الناس وغير متفق مع شعورهم لما أمكن لخليفة أو حاكم ان يتخذ من التدابير ما يؤجج العواطف ويعرضه لنقد الناقدين ويعرض مركزه للسقوط أحيانا عندما يخالف (البيعة العقد) . ولم يبق هذا الافتراض الذي أقره الاسلام نظريا بل طبق في بعض الاحيان التي انتفض فيها الرأي العام من اجل الغاء البيعة وخلع الأمير . اذن التسامح الاجتماعي لم يكن بالنسبة للسلطة ينبع (عن هوى) من الخليفة أو الوالي أو غيرهما ، بل كان ينبع من ضمير المجتمع الذي هو الشعب لأنه من الواضح انه لم يكن نتيجة لاستبداد حاكم وخروجه عن ارادة الجماعة بل على العكس فانا نلاحظ في العهود التي يتميز فيها الخليفة بالاستبداد ، خطا معاكسا للتسامح التاريخي الذي درج عليه المجتمع الاسلامي . وكل تلك العهود المظلمة ولو كانت نسبتها الى التاريخ الاسلامي هزيلة وضامرة ، كان سببها على ما هو ظاهر من وقائع ، نزوة حاكم جائر ، أو استبداد قائد مغرور .

وحتى يصبح لأعياد النصارى وقع في نفوس المسلمين يجعلهم يحتفلون بها احتفالهم بأعيادهم ، يجب ان يكون التفاعل الاجتماعي والحضاري والوحدة الاجتماعية قد بلغت شأوا بعيدا في نفوس الناس وقلوبهم ولا يمكن كما يحدثنا علماء النفس والاجتماع ، لذلك ان يتم وسط أي خوف أو أي ظلم أو حتى أية حيرة تلم بأحد الجانبين الدينيين . ولو كان الجانب المسيحي غير مطمئن أمنيا واجتماعيا وحتى سياسيا لما مكن لهذه المشاركة ، ولو بصورة غير مباشرة ، ان تتم وبالشكل الذي كانت تتم فيه وفي الفترات الطويلة التي لم يقطعها سوى فترات لم تكن ذات بال ، لأن هذه الظواهر الشاذة بحد ذاتها تأكيدا للأمن الاجتماعي الذي كان يتمتع به أهل الكتاب .

ولو كان المسلمون يعانون من عقدة الخوف أو الحقد أو الكراهية للطرف الآخر لما أمكن ايضا لتلك المظاهر ان تأخذ المدى الذي بلغته من الالفة والاندماج .

واذا كان جميع المؤرخين غير المسلمين من مستشرقين وغير مستشرقين لم ينكروا هذه الوقائع ولم يهملوا ما أدت اليه ، فان بعضهم قد تقصى نبأ الفترات المظلمة النادرة في تاريخ المجتمع الاسلامي التي وجد فيها من يضرب عرض الحائط بمقتضيات الدين وأسسه ويمعن في سردها وفي شرحها باسهاب في محاولة لجعلها موازية لكل ذلك التاريخ الطويل من التسامح والتعايش .

ولكن وقائع التاريخ الصحيح لابد لها ان تتبلور مهما بلغ دور الاقلام المضللة ومهما غابت في بطون القرون والأجيال وبعد بها الزمن. ألم يكتشف المؤرخون والباحثون والمنقبون بعد تجميع الجهود ان بعض الفراعنة القدماء كانوا يغيرون في النصب المقامة وينسبون لأنفسهم معارك وانتصارات تمت في عهود غير عهودهم ؟ .

واذا كان التاريخ الاسلامي بحاجة الى قراءة جديدة بالادوات الفكرية الجديدة التي ولدتها حضارة هذا القرن فليس فقط من أجل جلاء بعض غوامضه التي نجمت عن وقائع تبدو على تناقض مع واقع هذا التاريخ ومعطياته بل من أجل ما لحقه من تصرف بعض الباحثين الذين أضافوا ، عن قصد ربما ، غوامض جديدة لوقائع لم يكن فيها من الابهام ما يولد احتمال تناقضها مع بعضها ومع مجتمعها قبل ذلك فشوهوا التاريخ العربي

والاسلامي لدرجة انكار وجود بعض من اشخاصه ومفكريه واتجاهاته .

واذا كان هذا هو مجرى حياة النصارى في المجتمع الاسلامي فماهو المسلك الذي ظهر في التعامل مع الفريق الآخر من أهل الكتاب ، الفريق الذي عارض الدعوة الاسلامية منذ البدء وواجهها بأقسى وأعنف معارك الفكر والسلاح عندما كانت لا تزال في مهدها ، أعني بذلك الطائفة اليهودية في المجتمع الاسلامي القديم ؟.

ولا بد هنا من التساؤل عن وضع اليهود الاجتماعي قبل الاسلام هل كانوا يتمتعون بحرية المعتقد والفكر والعمل ؟ وهل كانوا يتمتعون بالمساواة مع الطائفة التي ينتمي اليها الحاكم الروماني مثلا ؟.

يحدثنا التاريخ عن ان القانون الروماني كان يحرم على اليهود بناء الكنائس وان كنائسهم لم تبن الا في زمن الاسلام في مصر (زمن الصحابة والتابعين) [٣١] . وليس من الصعب تصور حال اليهود تحت الحكم الروماني عندما نعلم ان الكنيسة الرومانية الرسمية كانت تعادي وتعامل بقسوة من يخالف تفكيرها من المسيحيين ! [٣٢] .

أما في اوروبا فيكفي للاطلاع على احوال الطائفة اليهودية قبل الفتح الاسلامي وبعده الاستماع لقول الكاتب اليهودي دينوف متحدثا عن أوضاع اليهود الذين كانوا يعيشون في الوسط الاوروبي في ذلك الزمن ، يقول ديبنوف :

(هل من المعقول ، ان كل هذا الرعب ـ سيول الدماء وأنين التجمعات المبادة ، وكثافة صفوف الشهداء والخوف الدائم وعدم الاطمئنان للغد ، ان كل ذلك لم يكن ليترك آثاره في الطبيعة اليهودية ؟ لقد انعزل الفكر اليهودي من جديد يومها عن العالم) . [٣٣]

أما بعد الفتح الاسلامي فقد تغيرت الاوضاع وأصبح اليهود يمارسون طقوسهم في البلاد الاسلامية بحرية تامة نجمت عن حرية المعتقد التي قال بها الاسلام (لا اكراه في الدين) وانخرطوا في المجتمع الاسلامي كأهل ذمة يؤلفون طبقة من طبقات هذا المجتمع تتمتع بالحقوق وتقوم بالواجبات ، وقد وصلوا الى أعلى المراتب العلمية والسياسية فقد كان للخلفاء أطباءمن اليهود ولم يحتج هؤلاء الأطباء الىتغيير دينهم (٣٤)،وعظم نفوذهم حتى صار لا يعمل شيء في بلاط المعز الا بمعونة اليهود وعرف ذلك العصر الوزير الداهية ابن كلس الذي كان يهوديا فأسلم ، وصار يتحيز الى اخوانه في الدين من قبل (٣٥) •

وقد واجهوا احيانا وضعا متميزا حتى عن النصارى • يقول بتاحيا : ان اليهود في العراق لا يدفعون شيئا للخليفة وانما يدفع الواحد منهم كل عام دينارا واحدا لرأس الجالوت (٣٦) • ويؤكد المؤرخ بنيامين ان غالبيه دافعي الجزية كانوا يدفعون الحد الأدنى • ويقول ربى بتاحيا :

ان رؤساء اليهود في الموصل كانوا هم الذين يعاقبون مرؤوسيهم ولو كان احد طرفي الخصومة مسلما • وكان بالموصل في القرن الرابع للهجرة سجن يسجن فيه اليهود (٣٧) •

ويقول ابن الاثير : ان العزيز بالله استناب بالشام يهوديا اسمه منشأ فاعتز به النصارى واليهود وآذوا المسلمين (وكذلك استوزر عيسى بن نسطورس النصرائي) ، ومهما يكن فان وضع اليهود في الشرق كان مرضيا جدا ولم يكن ليختلف عن وضع النصارى الا لجهة وجود عدو يعتنق النصرانية على حدود الدولة وما كان يمكن ان يوجبه ذلك من احتياطات ربما كانت أشد قسوة ، تتخذ تجاه سكان الثغورغير المسلمين • والمجتمع

الجديد لم يغر اليهود بالثورة حفاظا على مركز خسروه اذ لم يتغير تجاههم شيء عندما حل المسلمون محل النصارى في حكم البلاد وربما يصبح من البديهي القول ان شعاراتهم ومعابدهم وطقوسهم احترمت في المجتمع الاسلامي وتمتعت بالحصانة ذاتها التي كانت للنصارى وانهم شاركوا غير المسلمين في بعض فترات المعاناة واستثنوا احيانا اخرى .

وقد ولي الوزارة في القاهرة من عام ٤٣٦ حتى ٤٣٩ هـ — ١٠٤٤م — ١٠٤٧ م ابو نصر صدقة بن يوسف الفلاحي وكان يهوديا فأسلم وكان يدير الدولة معه ابو سعد التستري اليهودي [٣٨] . ونجد في شعر الحسن بن خاقان اشارة الى ذلك حين يقول :

يهود هذا الزمان قد بلغوا   غاية آمالهم وقد ملكوا
العز فيهم والمال عندهمو   ومنهم المستشار والملك

واذا كان يهود المشرق كما نرى قد بلغوا في اندماجهم بالمجتمع الاسلامي هذا المبلغ دون ان يلاقوا اية صعوبات في التأقلم مع الدين الجديد الذي لا يكره الناس على اعتناقه ، فأين هو موقع يهود المغرب وهم يزيدون عددا ، من المجتمع الجديد والحضارة الجديدة في نظرتها الجديدة الى الله والكون .. واليهود ؟.

هنا لا بد من الاستماع الى هذا القول لرئيس تحرير جريدة اليوم الاسرائيلية نسيم رجوان وهو اذ يقدم نموذجا عن عمق تأثير الموقف الاسلامي المنفتح من اهل الكتاب عموما ، ومن اليهود على وجه الخصوص، يعترف بأن هذا الموقف ، بالتباين والتضاد مع الموقف الاوروبي المناهض لهم خارج اسبانيا ، كان السبب في استمرار اليهودية ونجاتها من الانقراض يقول رجوان [٣٩] :

تمخض اللقاء بين اليهود والعرب في القرون الوسطى عن تتاج حضاري هام ومثمر • كان اليهود قد عانوا خلال قرون الكثير من الشقاء والبؤس حيث كان الملوك الاسبان القساة الغلاظ ، بعيدين كل البعد عن الشفقة والرحمة • وعندما دخل المسلمون اسبانيا لم يكتفوا بتحرير اليهود من الاضطهاد ولكنهم ، والقول للدكتور ازيدو ابستاين ، شجعوا بينهم نشر حضارة كانت توازي بخصبها وعمقها اشهر الحضارات في مختلف العصور •

هذا ويؤكد الدكتور أروين روزانتال اليهودي ، احد كبار المؤرخين في كامبردج ، أنه (باستثناء العصر التلمودي ، لا يوجد عهد اشد ابداعا وأكثر ايجابية في تاريخنا المضطرب الطويل ، من عصور ثبت فيها الاسلام نفوذه من المتوسط حتى المحيط الهندي) •

ولكن قبل ان نتساءل عن شكل هذا الابداع الذي يتحدث عنه الكاتب اليهودي المعاصر ، لا بد من ملاحظة تتعلق بالمناخ الاجتماعي الذي أدى الى هذا الخصب الحضاري الذي تميز به وجود العرب المسلمين في اسبانيا • وفي اعتقادي ان اهم ما يميز هذا المناخ هو جو الحرية الفكرية الذي أشاعه الاسلام هناك بعد ان كان ملوك اسبانيا قد أخمدوا كل صوت مخالف لما يعتقدون أو يفكرون أو يعملون •

فالاسلام الذي يطرح مبدأ (اللااكراه في الدين) كمنطلق للحوار الهادىء الرصين الذي يتناول اعمق ما يميز العقيدة ، وهذا مفترض حكما في اقناع الناس ونشر الرسالة التي لا تؤمن بالعنف وبالاكراه سبيلا ، قد حدد وسائله وسبله • وكان طبيعيا ان يستفيد اليهود من هذه الحرية تعطى في النقاش والبحث والعمل والتمتع بالحقوق وان تزدهر الثقافة وتعم بلدان المغرب الاسلامي في خضة شديدة تهزه من الأعماق وتحدث فيه مختلف التغييرات الثقافية والاجتماعية والفنية وهذا ما يشير اليه رجوان

قائلا : ان نشاطات الغزاة العرب الثقافية والتجارية والفنيـــة جعلـــت مـــن اسبانيا البلد الأشد ثقافة وانفتاحا على العلم في اوروبا . يرد هذا الاستنساخ في أكثر من مرجع تاريخي واذا كنا قد اخترنا المراجع اليهودية فلأنها عندما تعترف بجزء من الواقع تؤلف شاهدا أشد دلالـــة .

يقول سيمون ديبنوف في كتابه (تاريخ اليهود) وفي معرض حديثه عن يهود اسبانيا في القرون الوسطى : لأول مرة يتمكن قسم من الشعـــب اليهودي من التمتع بحرية الفكر وفي القرنين الحادي عشر والثانـــي عشر من الميلاد بلغ تطور الفكر اليهودي قمة النجاح .

ولكن ماذا يقصد ديبنوف بعبارة الفكر اليهودي ؟ (وتسهل تعبير الكلمة عن اتناج هذا الفكر في مختلف الحقول ؟ ام أنه يقصد بذلـــك ما يتعلق بما صدر من كتب فـــي شرح اليهودية كـــدين وشرح مبادىء هذا الدين ، عن كتاب يهـــود ؟ .

ويبدو انه يقصد الوجه الآخر أي ما يتعلق بشرح مبادىء اليهودية كفكر ودين، والكتب المنوه عنها كانت في نظر الكاتب اليهودي من أهم مصادر في هذا الموضوع عبر التاريخ . أليس ذلك خير معبر عن جـــو الحريـــة التي أشاعها المسلمون في المغرب حرية القول والعمل والمعتقد ؟ ثم أليس في مـــا يعبر عنه هذا الواقع صورة لمساواة تتعدى في حدودها كل مـــا سمحت بـــه عادات التاريخ القديم وتطبيقا عمليا للنظرية الاسلامية القائمة على نشر الدين الجديد بواسطة الحوار الرصين البعيد عن العنف (وجادلهم بالتي هي أحسن) ؟

ان صدور هذه الكتب بموضوعها الذي يجادل حتما ولو بصورة غير مباشرة الدين الجديد ويتناقض معه ويبشر بنفسه ، هو بحد ذاته ظاهرة لم تعرفها مجتمعات ذلك العصر بل انه يؤلف ثورة في تلك المجتمعات وذلك

العصر مع ما كان يحفل به تاريـــخ مختلف الشعوب ، من ضغط واكراه واضطهاد . وفي هذا المجال يقول ديبنوف في كتابه المشار اليه :

في هذا المناخ الصالح ، الذي ليس له سابقة في التاريخ ، استطاع يهود اسبانيا ان يتفهموا او يديروا عدة مشاريع وبشكل خاص ان يحددوا ويفسروا اليهودية بوضوح وقوة لم تعرفا عبر تاريخ الشعب اليهودي .

وبعد كل هذا الكلام يعترف الكاتب اليهودي بالتأثير الاسلامي في كل ما كتب الذين اشار الى انتاجهم عندما يتحدث عن ان : (طـريقـة الشرح وأشكاله كانت تعتمد الى حد كبير على الاستعارة من الثيولوجيـا والفلسفة الدينية الاسلاميتين حتى ان تقنين هالاشاه والرسبونا الصادرين في ذلك العصر حملا الطابع الاسلامي الواضح) .[٤٠] كما يقول الكاتب اليهودي روزنثال :

(لقد أمكن لليهود كما سبق ان بينا وفي ظـل المجتمع الاسلامي ان خرجوا عن عزلتهم وتعاطوا جميع انواع الاعمال ، فبجانب رجـال الدولة ذوي النفوذ امثال : (حصداي بن شبروت وصموئيل هاناجيد) نجـد في بلاط الخلفاء مجموعة من ألمع علمـاء قواعد اللـغة والشعراء والفلاسفة أمثال : نوح بن غاناش وسليمان بن جابيرول وموسى بن عزرا) . [٤١]

واذا كان اليهود قد بلغوا أعلى مراكز الحكم في الدولة كما حـدث للنصارى في المشرق وتغلغلوا في جميع دروب العلم والمعرفة حتى برز بينهم العلمـاء في قواعد اللغة العربية والشعراء والفلاسفة فهل كان ذلك ظاهرة طبيعية في مجتمع ديني متعصب كما يصفه كثير من مؤرخي الغرب ؟.

هل كان يمكن لهذا العدد من رجال الحكم والأدب والعلم ان يظهر بهذه النسبة العالية بالقياس الى المجموع العددي ليهود الأندلس ، لو كانت بذور التعصب الديني موجودة في المجتمع الاسلامي في الاندلس ؟.

عدة عوامل كان من شأنها القضاء على هذه الظواهر ، في حال وجود التعصب الديني في المجتمع الاسلامي ، ابرزها الضغط الأمني والسياسي الذي يفجره عبر رجال الحكم والنظام السياسي وعندئذ لا يمكن للمواهب ان تنمو ولا للعلم ان يتقدم ، كما علمنا التاريخ •

ان المجتمع الخائف كالانسان الخائف لا يمكن ان ينتج فيحسن الانتاج فيصل الى مشاركة الآخرين في درجات العلم والفن ، وهكذا بدون المساواة والحرية ما كان بوسع معتنق اليهودية في الأندلس الخروج من عزلته ومشاركة بقية المواطنين في الحقوق والواجبات ولكان اختنق فكريا مع المختنقين في غياهب الغيتو كما حصل للفكر اليهودي في سائر انحاء اوروبا في ذلك العصر •واذا كان ،كما رأينا من شهادة الكاتب اليهودي ، هذا الفكر قد تأثر في اسبانيا الى حد كبير بالفكر الاسلامي في خطوطه وشكله (٤٢) ، فليس لذلك سوى تفسير يعبر عن قوة الفكر الاسلامي وسلامة قواعده وصحة اساليبه في خلق مناخ الحرية والحوار في المجتمع الاندلسي ، وفي ان النظام الذي يعتمدهما يحقق لنفسه مناخا صالحا للحياة والاستمرار بخلاف اي نظام يعتمد الضغط والاضطهاد سبيلا لفرض خطوطه وأساليب حياته وعمله ، وما كان الكبت يوما ليساعد على تطوير الفكر واقناع الناس بل ان شواهد التاريخ تقدم الدليل المعاكس فيما سجلت لانتشار الحركات التي تعتمد السرية بسبب المنع والاضطهاد فتتغلغل حتى حنايا وغياهب الفكر أو النظام الذي اضطهد وكبت في انتصار غالبا ما يتحقق •

لذلك كان الفكر الاسلامي المنفتح في الاندلس في مناخ الحريه والمساواة التي أنشأ ، مصدر حضارة ومبعث تقدم حمل الى العالم الحديث وعصر النهضة والانبعاث كل ثمرات تلك الجهود التي تحققت في ذلك العصر • واذا كانت هذه الجهود لم تعط مكانها المناسب في تاريخ العالم

فذلك لأن قراءة جديدة لتاريخ الاندلس وتاريخ الاسلام بوجه عام بحاجة الى الظهور بأدوات فكرية جديدة تتناسب مع حضارة العصر بعيدا عن كل تعصب او حقد او خوف . وعندئذ قد تبرز عبر تسلسل الاحداث حقائق طالما ابتعدت عنها اضواء المفكرين أو هي لم تلج بعد متاهاتها الخيرة .

ولكن التاريخ الاسلامي في المشرق والمغرب عرف ازمـــات أو هـــو تعرض لأزمات سياسية أو عسكرية أو فكرية كانت لها انعكاساتها علـــى المجتمع الواحد عبر بعض طوائفه التي واجهت متاعب كثيرة بسبـــب هذه الانعكاسات وأهم هذه الطوائف تلك التي تدخل في عداد أهل الكتاب ، فهل كانت الوحيدة التي تتحمل عبء ذلك ؟ أم ان الى جانبها من التجمعات أو الفئات أو أصحاب بعض المذاهب من تحمل مثلهـــا او زاد عليها أو نقص عنها في التعرض لما تعرضت له ؟ واذا لم تكن وحدها في محيط هذا العبء الثقيل احيانا فهل كانت الاسباب واحدة ام انها كانت مختلفة ومتعددة ؟ وما هي نسبة هذه الفترات في زمن التاريخ الاسلامي الطويل ؟.



العلاقة التعاقدية

العلاقة التعاقدية التي نظمت شؤون وأوضاع اهل الكتاب في المجتمع الاسلامي ، تعرضت للكثير من النقد ممن رأوا في تنظيم العلاقات بموجب عقد نوعا من الغربة يختص بها اهل الكتاب من مسيحيين ويهود في المجتمع الاسلامي فالمتعاقد فريق آخر يختلف عن الفريق الاول وان كان يتساوى معــه في الحقوق والواجبات •

ولكن للعلاقة التعاقدية والتعاقد في الاسلام وجها آخر يبدو اكثــر اشراقا في تفسير هذه العلاقة لانه يضعها في أساس فكره السياسي ويخضع لها رأس الهرم في هيرارشية الحكم ورجاله من حيث علاقتهم بالاســــلام والمسلمين ، ومن حيث استمرار شرعيتهم أو عدمه •

يقول ابن خلدون في (المقدمة) : وكانوا اذا بايعوا الامير وعقدوا عهده جعلوا ايديهم في يده تأكيدا للعقد ، فأشبه ذلك فعل البائع والمشتري فسمي (بيعة) مصدر (باع) •

ولكن لهذا الكلام على ايجازه وقصره دلالة لا يمكن المرور عندها مرور المطالع الذي يعجب للكلام الجميل ثم يتركه الى غيره في شغف المحـــب للاطلاع على كل جـــديد • ان ما توفره هذه العبارات من اجواء قـــانونية تنعكس على ادارة المجتمع الاسلامي وتلامس أعلى مفاهيم الحكم والقيادة فيه فتضفي رداء الديمقراطية على اساس النظام الاسلامي ، يؤلف منطلقا

واضحا للاجابة على كثير من المسائل • ولا بأس ان نخلع على هذه الظاهرة صفة الديمقراطية ولو كان اللفظ غريبا قد يسيء الى أسماع بعض فقهائنا، وليس ذلك بضائر الاسلام في شيء طالما انه اقام المبدأ منذ مئات السنين قبل ظهوره في العصور الحديثة فالعقد اذن في اساس نظرية الحكم في الاسلام •

وقد أدى الأخذ بهذه النظرية الى اعطاءالفريق الآخر حق الثورة على الخليفة عندما يخالف الحاكم مبادىء العقد التي تمت البيعة على أساسها وهي مبادىء العدالة كما وردت وتحددت في كتاب الله وسنة نبيه (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) • آل عمران ١٠٤ وفي هذا الاتجاه يبدو كلام الرسول (صلعم) معبرا :

(من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك اضعف الايمان) •• الامر الذي يعني ان الحد الاقصى للايمان يتمثل في التغيير بالفعل لمن هو قادر عليه ، وقد كان هذا التكليف بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، الذي فصله الحديث الشريف الداعي الى التصدي للمنكر بالفعل أو العقل أو القلب ، وراء أغلب حركات التمرد والرفض في التاريخ الاسلامي [٤٣] •

من هذه العلاقة التعاقدية وما يتولد عنها من حقوق وواجبات تبرز نظرة الاسلام الى أعنف وأهم ما واجه عصورنا الحديثة من مسائل تتعلق بأبعد المعطيات الفكرية لهذه العصور ، فنظرية التفويض التي عبر عنها جان جاك روسو في كتابه « العقد الاجتماعي » ونظرية الحق (بالثورة على الأمير) التي شغلت مفكري الثورة الفرنسية وما بعدها كانتا في نظر الفكر الغربي من أهم المفاهيم التي ولدت الديمقراطية وروسو سمي (أبو الديموقراطية الحديثة) على أثر نظريته تلك • من أجل

تفهم كل هذه الامور لا بد من الاستماع لما يلي :

وبوجه عام ، يقول الكاتب الفرنسي بوافان Boivin (٤٤) : فان جميع المواقف الفكرية التي أدت مجموعتها الى تحقيق الثورة الفرنسية كانت قد اتخذت قبل نهاية حكم لويس الرابع عشر : نظريات العقد الاجتماعي ، وتفويض السلطات وحق الرعايا في الثورة ضد الأمير ، حكاية قديمة منذ العام ١٧٦٠ ، جميع هذه الامور كانت تناقش في السر والعلن وبوضح النهار • ولكن نظرية تفويض السلطة ليست وليدة العصور الحديثة لأنها كانت في أساس البيعة التي ينتج عنها تفويض السلطة للخليفة وينتج عنها حق عزل الحاكم عندما يخالف ما قامت عليه البيعة والثورة على (الأمير) أي الحاكم والخليفة ليست مجرد أمر مباح بل هي واجب يلقى على عاتق المؤمن في التصدي للانحراف عن ميزان العدل والحق • والحديث الشريف صريح في هذا المجال كما سبق القول :

(من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه) • وجاء في حديث آخر (٤٥) : (ان الناس اذا رأوا الظالم فلم يضربوا على يديه أوشك ان يعمهم الله بعقاب) ••

وعلى ذلك يمكن ان يترتب أمران فيما يخص موضوع علاقات أهل الكتاب بالحكم والدولة في ظل المجتمع الاسلامي ، فاذا كانت علاقتهم تلك تعاقدية تنبثق عن عهد الذمة الذي عرفه فجر الاسلام فليس في ذلك أية خصوصية أو تفريق أو احتقار أو دليل غربة اجتماعية طالما ان نظرية التفويض التعاقدية قائمة في اساس الحكم الاسلامي كما بينا • واذا كان تحريم الظلم والجور قد ظهر في أكثر من آية قرآنية وأكثر من حديث وازالة الظلم والمنكر كانت من هذا المنطلق اولى واجبات الانسان فان الهيكلية القانونية لأهل الكتاب سوف تتأثر مدا وجزرا بمدى وسلامة تطبيق

هذه المبادىء ، فنجدهم في أفضل اوضاع عبر كل الفترات التـــي سادت هذه المبادىء شؤون الحكم ، وتصرفات الحاكمين ولكن هـــذه الاوضاع كانت تسوء احيانا فتسوء معها حالهم نتيجة لعوامل متعددة لا يمكن نسبتها الى الاسلام في عمق مبادئه وسعة مقوماته لانها كانت نتيجـــة انحراف السلطة عن تلك المبادىء والمقومات • هذا ما سنسعى الى تفصيله من خلال هذا البحث هادفين الى توخي الحقيقة ، كل الحقيقة عبر تقصـــي الاسباب والنتائج •

فما هو عهد الذمة ؟ ومـــا هي الحقوق التي يمنح والواجبات التي يفرض ؟ وكيف ومتى تختلف هذه الحقوق والواجبات عن حقوق وواجبات سائر الرعايا فيكون هناك تمييز بين فئتين من السكان ؟•

في السنة السابعة للهجرة ٦٧٩م تم احتلال واحة خيبر التـــي تقـــع على بعد ١٥٠ كلم تقريبا عن المدينة المنورة • وبعض سكان هـــذه الواحة (وكلهم من اليهود) كانوا قد أتوها لاجئين بعد طردهم من المدينة • كانت واحة خيبر اول مكان احتله المسلمون وأخضعوه لسلطتهم وقد سقط بعد شهر ونصف من الحصار • وأعطى الرسول لسكانه حق البقاء وفلاحـــة أرضهم شرط تقديم قسم من الانتاج للمسلمين • هذا الاتفاق أصبح مثالا يحتذى ، Locus Classicus (٤٦) للفقه اللاحـــق فيمـــا يختص بأوضاع الرعايا غير المسلمين في البلدان المحتلة في الدولـــة الاسلاميـــة

التعامل مع المسيحيين اثناء حـــياة الرسول الكريم كان اقل اهمية والاصطدامات لم تحدث • والعلاقات مع نصارى الشمال في الحجـــاز ثم من بعد مع نصارى جنوب الجزيرة العربية نظمت باتفاقات كان اشهرهـــا الاتفاق الذي أبرم مع نصارى نجران في الجنوب وبموجبه تتأمن ممارستهم

لشعائرهم الدينية وادارة اعمالهم اتقاء بعض شروط منـــها الامتناع عن ممارسة الربا ، وعلاقاتهم بالمسلمين في ذلك العهد كانت أقرب الى السلام. اما في العصور التالية فان أقدم ما وردنا هو نص عهد كان يكتب للجاثليق، كما يكتب لكبار العمال والمتصرفين والجاثليق النسطوري رئيس المسيحيين الشرقيين هو الرئيس الأكبر للنصرانية بعد ان انتقل مركز الدولة الاسلامية الى الشرق ، وقد ورد في نسخة عهد الجاثليق عام ٥٣٣ هـ ــ ١١٣٩م[٤٧]:

(ولما انهيت حالك الى امير المؤمنين ، وأنك أمثل اهل ملتك طريقــة ، وأقربهم الى الصلاح مذهبا ... وحضر جماعة من النصارى الذين يرجــع اليهم في استعلام سيرة امثالك ... فاتفقوا باجماع من آرائهم وأهوائهم على اختيارك لرياستهم ومراعاة شؤونهم وتدبير وقوفهم والتسوية في عدل الوساطة بينهم قويهم وضعيفهم وسألوا ايضا نصيبك عليهم بالاذن الذي به تثبت قواعده ... وبرز الاذن الامامي الأشرف لا زالت أوامره معضــودة بالتوفيق بترتيبك جاثليقا لنسطوري النصارى بمدينة السلام ومن تضمنته ديار السلام وزعيما لهم ومن عداهم من الروم اليعاقبة والملكية فــي جميع البلاد وكل حاضر في هذه الطوائف وباد ، وانفرادك عن كافة أهل ملتك بتقمص أهبة الجثلقة المتعارفة في أماكن صلواتكم ومجامع عباداتكم غيــر مشارك في هذا لانسان ولا مفسح في التحلــــي به لمطران أو أسقف أو شماس ... والحياطة لك ولأهل ملتك في الأنفس والاموال والحراســة للكافة بصلاح الاحوال واتباع العادة المستمرة في مواراة امواتكم وحماية بيعكم ودياراتكم ... وان يقتصر في استيفاء الجزية على تناولها من العقلاء والواجدين من رجالكم دون النساء ومن لم يبلغ الحلم من اطفالكم ويكون استيفاؤها نوبة واحدة في كل سنة من غير عدول في قبضها عن قبضـــة الشرع المستحسنة وفسح في ان يتوسط طوائف النصارى فــي محاكماتها فيأخذ النصف من القوي للمستضعف) .

أهم مـا نلاحظ في هذا العهد التعهد بحماية اهل الكتاب في الأنفس والاموال وحماية (بيعكم ودياراتكم) •

ثم الاستقلال في المحاكمات (فيأخذ النصف من القوي للمستضعف)

وان اختيار الجاثليق انما يتم بواسطة الشورى من قبل من يلجـأ الى أخذ رأيهم في مثل تلك الحالات ولم يوضح العهد مـا اذا كانـوا من رجال الدين او وجهاء الطائفة • ولكن يبدو من لهجة العهد ان الاختيـار قد تم وفقا لتقاليد الطائفة ، بعد هذه الاستقلالية التي يمنحها والحمايـة التـي يؤمنـها •

هل يحدد هذا العهـد الهيكلية القانونية للمسيحيين في الدولـة الاسلامية فيقتصر ما يتمتعون به من حقوق وما يؤدون من واجبات على مـا ورد فيـه روحا ونصا ؟•

رغم مـا ورد فيه ممـا يسمح بممارسة الشعائر الدينية بحرية كاملة وبتأمين الحماية والحريات في الأنفس والامـوال والمحاكمـات رغم كل ذلك لا يمكن القول انه يؤلف الهيكلية الكاملة لأوضاع الطائفـة المذكورة في العام ٥٣٣ هـ •

فهناك الأحكام القرآنية والأحاديث الشريفة التي تتعلق بأهل الكتاب خاصـة • وهنا لـسؤال يطرح حول مدى انطباق سائر احكام الآيـات والأحاديث الشريفة التي تتعلق بالمعاملات والاخلاق على اهل الكـتاب في تعاملهم مع الناس وتعامل الناس معهم خصوصا لجهة مـا يتعلق بالتضامن الاجتماعي والواجبات الاجتماعية كالصدقة وتأدية الحقوق واستيفائها !•

ان احكام القرآن الكريم والسنة هي اهم المصادر التشريعية فـي الاسلام ولها قوة الدستور والقانون في الانظمة الحديثة ، لذلك كانـت

هذه الاحكام ملزمة للمسلمين في كل ما يعزز من أوضاع أهل الكتاب ويؤمن لهم ضمانات وحقوقا ان لجهة الناحية الاجتماعية او الاقتصادية أو السياسية في مساواة تامة مع الرعايا المسلمين باشارة صريحة من النص المطبق أو حكما دون ان يرد في النص أي تلميح لفظي الى أهل الكتاب .

اما لجهة الواجبات فهم يخضعون لنفس الواجبات التي يخضع لها اخوانهم المسلمون باستثناء كل ما يتعارض مع امور دينهم وشعائرهم ، بل كل ما يمس حرية المعتقد لديهم من قريب او بعيد ، ومعنى هذا احترام كامل لكل ما نص عليه عقد الذمة الذي أشرنا اليه والذي اكتسب قوة القانون منذ نشأته بدون ان يطاله اي تغيير أو تحوير .

ولا نجد في الآيات التي تعرضت لأهل الكتاب ما يضيف واجبا او يمنع حقا ، انما العكس هو الصحيح ، فكل ما جاء تلميحا او تصريحا كان يقدم حقوقا أو يضيف الى شموليتها دون ان يحد منها سواء في ذلك كتاب الله او حديث الرسول ، فكان ان أضيف الى معطيات عهد الذمة من التفسير والتوسع ما أعطاه أبعادا حفظت وحافظت على سلامة تطبيقه وتفاعل أحكامه مع معطيات كل عصر بشكل أبقى للدور الحضاري الكبير الذي تمكنوا من أدائه ضماناته وظروف نجاحه .

اذن الأحكام القرآنية التي تعرضت لأهل الكتاب بصراحة سوف تطبق حكما مثلها في ذلك مثل تلك التي نظمت بصراحة احوال المسلمين وغير المسلمين . ولكن في الآيات التي تعرضت لموضوع أهل الكتاب ، كما في الأحاديث ، لا يوجد سوى ما ينص على حسن المعاملة والتعامل مع مبادىء خيرة تأخذ بعين الاعتبار كرامة الانسان وحريته وسلامته وحرمة أمواله وجسده ، فالحوار يجلله الاحترام المتبادل (وجادلهم بالتي هي

أحسن) • ومن (عمل صالحا) منهم يواجه نفس مصير من عمل صالحا من المسلمين :

(ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) ••

جميع الآيات التي أشارت الى اهل الكتاب صراحة او تلميحا تظهر نوعا من المساواة في الحقوق والواجبات والتعامل بينهم وبين المسلمين أو هي تشير الى ذلك في أهم وأخطر ما يتعلق بالدين وما يتعلق بالتعامل فالمجادل منهم متساو مع نظيره المسلم وصيغة الآية تفرض ذلك ، ولكن الجدال الذي سمح به ليس له حدود وأبسط الاحتمالات ان يتناول شؤون العقيدة والا فبماذا سيكون الجدال بين مسيحي ومسلم في ذلك الزمن السحيق ؟•

ان دينا يسمح بنقاش يتناول شؤون العقيدة ذاتها لا يمكن ان ننسب اليه عدم التسامح مهما حدثنا التاريخ عن مخالفات ارتكبها الحاكمون والمسيطرون في عصور بعدت او عهود قربت من زمن الرسالة والرسول (صلعم) • وبعد موضوع العقيدة لا نرى ان بابا ما مهما عظم وعلا يمكن ان يبقى مغلقا دون هذا (الجدال) الذي أوصى به الكتاب والرسول وكل اولئك المؤمنين من الصحابة وغيرهم الذين ساروا في دعوتهم على هذه الطريق • وما كان ذلك الا ليزيد في عدد معتنقي الاسلام شعوبا وقبائل تأثرت فدخلت قانعة راضية دون أي ضغط أو اكراه ، في الدين الجديد •

وما كان ابو ذر وأبو حنيفة وغيرهما من حملة عبء شرح الرسالة ذوي سلطة وبطش وما كان تلامذتهما وغيرهم من هذا القبيل في شيء ؟

ولا يحدثنا التاريخ عن حاكم تحدى فأكره الناس على الدخول في الدين الجديد • وان كان يحدثنا عن وال يتثاقل من كثرة الداخلين في

الاسلام ونقص في اموال الجزية فكانت عبارة الخليفة وجوابه بما معناه : (ما جاء محمد جابيا انما جاء هاديا) ، صارخة في التاريخ الاسلامي .

والوجه الآخر من الاشارة لأهل الكتاب يطرح المساواة في حقل آخر أشد اهمية وأكثر الفاتا للنظر ، فالآية الكريمة تشير الى ان من آمن منهم بالله (وهم مؤمنون بالله كما يعترف لهم في آيات أخر) و (عمل صالحا) عندئذ (لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) ، تتعدى المساواة الاجتماعية الى الثواب الذي يجزي به الله عباده المحسنين عملا فيشمل هذا الثواب كما يبدو من ظاهر الآية اهل الكتاب وحتى اننا عندما نجد تهديدا لهم يفسر بخروج بعضهم عما جاء به دينهم في التوراة والانجيل : (قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل وما انزل اليكم من ربكم ....)

هذا الاحترام أدى الى اعطائهم الدور الكبير الذي تمكنوا من تأديته والاستفادة منه سواء في مراكز الحكم والسياسة أو في مجالات الفكر والعلم والابتكار .

يبقى السؤال : هل تطبق احكام الآيات والأحاديث الشريفة التي لم تشر اليهم صراحة والتي تتعلق بالسلوك والمعاملات عليهم بنفس الصورة والطريقة التي تطبق على المسلمين ؟.

والجواب لا يكون بالنفي الا في الحالات التي تختلف عنها اوامر دينهم ونواهيه فان الحرية الدينية المعطاة لهم تقتضي منحهم حرية الحركة والتصرف ، فشرب الخمر مباح لهم محرم على المسلمين . وهم لا يدفعون زكاة فتستبدل بضريبة اخرى تبدو فيما عرفنا من فترات أقل كلفة وأقل عبئا من الزكاة وهي الجزية التي كثر الكلام عنها من قبل رجال الفكر

ومراكز الاعلام فـي الغرب • ولكنهم ـ أي أهـل الكتاب ـ يشاركون المسلمين التمتع بكل نتائج ما حملته الرسالة من حث على فعـل الخيـر وحق في الحصول على مساعدة الدولة أسوة بالمسلمين سواء بسواء •

هذه الظاهرة تبدو أشد شمولية وأكثر انسانية في الاسلام منها فـي الأديـان الأخـرى •

في الحديثين التاليين نلمس نوعا من المساواة التي لا تفرق بين المسلم والمسيحي أو اليهودي في ما تحث اليـه من عمل الخير وفيما يتعلق بمن يحصلون على منافع ذلك العمل •

قال الرسول (صلعم) : « خاب عبد وخسر لم يجعل الله فـي قلبه رحمة للبشر » • وقال : « تصدقوا على أهل الأديان كلها [٤٨] » •

ولكن هذا الامر لا يقتصر على فعل الصدقة بل هو يمتد أبعد من ذلك ليشمل عدم التفريق بين المسلم وغيره في تطبيق أوامر الدين ونواهيه •

وعلى سبيل المثال نذكر ان الرسول (صلعم) قد أوصـى بالجـار وشـدد على ذلـك في مناسبات كثيرة وأطـاع المسلمون ولـم يكن في ممارساتهم تفريق بين الجـار المسلم أو غير المسلم وان احـدى الروايات لتبدو معبرة في هذا السبيل بل وقاطعة عندما تصدر عن عبد الله بن عمر • قال مجاهد [٤٩] : (كنت عند عبد الله بن عمر وغلام له يسلخ شاة فقال : يا غلام اذا سلخت فابدأ بجارنا اليهودي حتى قال ذلك مرارا فقلت لـه : كم تقول هذا ؟ فقال : ان رسول الله (صلعم) لم يزل يوصينا بالجار حتى خشينا انه سيورثه) •

ان الرسول أوصى بالجار ، واذا كان شخص مثل عبد الله بن عمـر قد اعتقد ان لا فرق بين ان يكون الجار مسلما او يهوديا فان لذلك دلالة

تتجاوز هذه الواقعة الى شمولية لا تفرق في التطبيق بين أهل الاديان ،ومن غير المنطقي الاعتقاد انها تقتصر على حديث بعينه او واقعة بعينها خصوصا وأنها لا تصدرفي اعتمادها عن شخص عادي أو غير ملم بمقتضيات الدين •

وبعد الحديث عن عهد الذمة والحقوق والواجبات التي كان ينظم وموقف كتاب الله وحديث الرسول من اهل الكتاب ومدى شمولية تطبيق قواعدهما دون تفريق بينهم وبين المسلمين ، لا بـــد ان تتساءل عن موقع أهل الكتاب من المجتمع الاسلامي والدولة الاسلامية في طبقاتهما المختلفة ؟ ورغم ان منهم من وصل الى أعلى مراكز الحكم في مختلف العصور فـــان كلاما يتعلق بهذا الموضوع نجده في نهج البلاغة وفي رسالة للخليفة علـــي ابن ابي طالب (ع) قد سبقت الاشارة اليها ، وهو موجه الى واليه علـــى مصر ، ويبدو معبرا في هذا السبيل • يقول الامام (٥٠) :

(واعلم ان الرعية طبقات لا يصلح بعضها الا ببعض ، ولا غنى ببعضها عن بعض : فمنها جنود الله ومنها كتاب العامة والخاصة ، ومنها قضاة العدل ومنها عمال الانصاف والرفق ، ومنها أهل الجزية والخراج من اهل الذمـــة ومسلمة الناس ، ومنها التجار وأهل الصناعات ومنـــها الطبقـــة الســـفلى من ذوي الحاجة والمسكنة وكل قد سمى الله له سهمه (نصيبه من الحق)•

مـــا يهمنا من استعادة هذا الكلام في مجال دراسة الوضع القانوني ليس وجود أهل الكتاب الاجتماعي كطبقة معينة بقدر ما هو ملاحظة مساواتهم مع نفر من المسلمين ودمجهم ضمن طبقة اجتماعية واحدة من (اهل الذمة ومسلمة الناس) تجمع بينهم نفس الواجبات ضمن نفس الحقوق •

اذن كان هناك طبقة اجتماعية معينة تتألف من مسلمين ونصـــارى ويهود ، ولا بد لهذه الطبقة من قواسم اجتماعية مشتركة تعطيها ابعـــادها ومعناها •

والحاكم ملزم بالاتصال الدائم بالرعية وبعدم الاحتجاب عنها لمدة طويلة من الزمن ، فعدم الاحتجاب ضمنا عن هذه الطبقة من أهل (الذمة ومسلمة الناس) من دافعي الضرائب وهم احدى طبقات الرعية واجب على الحاكم • وصلتهم بالحكم والحاكم اذن متواصلة لا تنقطع•ولا بد ان يكون لهذا الاتصال وجهه الايجابي بالاضافة الى الوجه المتمثل بالضرائب التي تدفعها هذه الطبقة والا فقد معناه والغاية من اقامته • وهم يردون دائما مع غيرهم من المسلمين في وصايا الامام حيث يقول في مكان آخر من نهج البلاغة [٥١] : (ولا تمسن مال أحد من الناس مصل ولا معاهد) •

هذه الاوضاع القانونية العامة لأهل الكتاب في المجتمع الاسلامي تأتي اذن نتيجة عقد ذمة يحدد أطر الحقوق والواجبات وما يظهر في كتاب الله وسنة رسوله من نص يتعلق بهم او يطبق بشأنهم ويكون أشد الزامية من العهد ، وما بينا من كلام الخليفة علي بن ابي طالب(ع)وفيه يحدد الوضع الاجتماعي الناتج عن المنطلقين السابقين بحيث يظهر أهل الكتاب كاحدى اهم طبقات المجتمع (الرعية) التي يتوجب على الحكم ان لا يقطع صلته بها • ولا نستطيع تصور الامام متصنعا في الكلام عنهم وهو رجل العلم والصراحة والجرأة والشجاعة ، ولا نستطيع الا ان نعتبر كلامه في هذا السبيل معبرا عن رأي الاسلام وحقيقة المجتمع الاسلامي وليس اقرب منه الى حقيقة الاسلام وروحه وجوهره وهو قد عايش الرسول وعاش الرسالة منذ نشأتها ، يبقى ان نستقصي تفاصيل تلك الهيكلية في ما يتفرع عن المبادىء التي أشرنا لتتم الصورة وترسم الخطوط •

ان كلام الامام يعكس حقيقتين : أولاهما تعبر عن واقع انبثق عن تعاليم الاسلام وتركز في المجتمع الاسلامي الجديد الذي صار يعتبر اهل الذمة جزءا منه يؤلف مع قسم من المسلمين طبقة (أهل الجزية

والخراج) كما ورد الحديث عنها في رسالة الامام • وثانيهما ان لكلام علي ابن ابي طالب (ع) في مجال الدين والدنيا وفي قلوب المسلمين وعقولهم من الاحترام والأثر ما يجعــل من هذه المقولة حقيقة لا تقبل الجــدل في تعبيرها عن احد وجوه المجتمع الاسلامي •

وبعد ذلك لا بد من بحث مــدى تمتع اهل الكتاب بالحريات العامة خلال مختلف مراحل تطور المجتمع الاسلامي من اجل توضيح الصورة التي كانت عليها اوضاعهم العامة عبر المدى الذي كانوا يتمتعون فيه بالحريات ويمارسون الحقوق في ذلك المجتمــع الذي حضنهم خلال تلك الحقبــة التاريخية الممتدة من الفتح الاسلامي حتى يومنا هذا •



حرية المعتقد
وممارسة الشعائر

هل يمكن تصور حرية المعتقد بعيدا عن حرية الفكر او منفصلة عن المساواة التي تلغي عوامل الاكراه في جميع صوره ومختلف مسبباته ؟

ان هذا التصور يجعل من حرية المعتقد وهما من الاوهام وجسما بدون روح اذن سوف يستلزم بحثنا الخوض في تتبع مراحل حرية الفكر والمساواة فيما يتمتع به اهل الكتاب من حقوق وما يحمي هذه الحقوق من قواعد وتصرفات ، وسوف يستدعي تقصي صور تلك الوقائع التي يتحدث عنها بعض المؤرخين وينسبون اليها مضايقات كانت تعكر صفو حياة أهل الكتاب في آفاقها المادية والمعنوية • وسوف يكون حكمنا عليها منبعثا من ظروف نشأتها وقوة أو ضعف آثارها ومدة استمرارها ، لأن كل هذه الامور تؤلف الاطار الكامل والضروري لحرية المعتقد وحرية ممارسة الشعائر التي يستلزم ، واذا كان حكمنا يجب ان ينطلق من واقع المجتمع والتاريخ ليتصل على ضوء ذلك الواقع بالمبادىء والنظريات التي استند اليها في تطوره ومساره عبر مختلف العصور،فانه كما رأينا سوف لا يقتصر على حرية المعتقد بل يتعداها الى ما تستلزمه من حرية الفكر والبعد عن

الضغط والاكراه في جميع نواحي الحياة ، المادي منه والمعنوي ومن هذا المنطلق يمكن الاستماع للروايتين التاليتين :

اضطر موسى بن ميمون قبيل مغادرته لوطنه الاندلس ان يتظاهر هناك باعتناق الاسلام ، ولكنه ضويق في مصر حيث كان على رأس اليهودية فقد ابتلي في آخر زمانه برجل من الاندلس فقيه يدعى (بأبي العرب بن معيشة) ، وصل الى مصر واجتمع به وحاققة على اسلامه بالاندلس ، وشنع عليه ورام أذاه فمنعه عنه عبد الرحيم بن علي الشهير باسم القاضي الفاضل وقال : « رجل مكره لا يصح اسلامه شرعا » ولذا لم يتيسر اثارة مسألة الردة [٥٢] .

وقد افتى مفتي القسطنطينية بهذا الحكم نفسه حوالي نهاية القرن السابع عشر الميلادي في قضية الأمير الماروني يونس الذي أرغمه والي طرابلس الشام على اعتناق الاسلام ثم عاد جهرةالى عقيدتهالمسيحية فأوضح المفتي الرأي القائل بأن الاعتراف بالاسلام ، اذا كان مبنيا على العنف والاكراه فهو باطل وغير صحيح ، وقد صادق السلطان على هذه الفتوى [٥٣] .

من هاتين الواقعتين المختلفتين تاريخا وأشخاصا وتفاصيل ، من البداية التي كان سببها الاكراه الى النهاية التي كان سببها أيضا الاكراه، في كلتا الحالتين تطرح مسألة الحكم ومسألة تطبيق الشرع ، فاذا كان الاكراه دليلا على انحراف الحكم وعزوفه عن الأخذ بمبادىء الشرع لنزعات قومية او تعصب ديني ينكره الاسلام فان ما حدث في مصر وما حدث في

القسطنطينية يظهر الوجه الحقيقي للشارع الاسلامي ولولا ذلك لكـــان مصـــير موسى بن ميمـــون ومصير الأمير يونس يواجهان احـــكام الردة القاسية والعنيفـــة •

وكان حكم مفتي القسطنطينية بابطال مـــا بني على العنف والاكـــراه تطبيقا حيا لمفهوم القرآن الكريم لحرية المعتقد ، (لا اكراه فـــي الديـــن) وهذا المبدأ بحد ذاته يحمل في طياته فرضيات تفاصيل لا بد من توفرهـــا لأجل حسن تطبيقه ، فالاكراه لا يقتصر على الاكراه المادي فحسب بل وربما امتد ليشمل من انواع الاكراه المعنوي ما يطـــال كل منعطفات الحيـــاة ومجاريها ، فالمضايقات مهما كان حجمها تؤلف نوعا من الاكراه يكبر ويصغر وفقا للظروف الاجتماعية والسياسية والفكرية التي تسود في كـــل عصر فتغير وتبدل في مفهوم الاكراه مدا وجزرا بحسب سعتها ومقتضياتها •

وربما كان ما اطلع عليه القاضي الفاضل فـــي مصر منها ومـــا تمكن موسى بن ميمون من توضيحه واثباته أشد تعقيدا وأكثر قسوة مما قـــد تتصور لان الرواية وصفت الحـــكم دون ان توضح تفـــاصيل الاسباب والنتائج التي اقنعت القاضي وتوجت حكمه • ومصادقة السلطان العثماني على فتوى مفتي القسطنطينية ربما كانت اسبابها أشد وضوحا وأبعد رؤية مما تتصوره من ظروف قاسية وعسف غير مقبول •

مـــا يهمنا من هاتين الروايتين هو ان منع الاكراه في الديـــن استمر عبر جميع العصور الاسلامية وان يكن تأثر بانحرافات لم تكن لتحدث حتى يقيض لها من يزيل آثارها ويبعدها عن واقع المجتمع الاسلامي الذي يرفض الاكراه سبيلا الى فرض فكره وعقيدته •

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه في كثير من الاحيان عن كيفية تحول شعوب كثيرة عن أديانها الى الاسلام فتنشأ اكثريات اسلامية في مناطق كانت تحمل طابع اديان اخرى لعدة قرون سبقت • ويحدد البعض لهذه الظاهرة دلالة عن وجود اكراه متنوع الدرجات ومتصل الاسباب كان يعمل في ظلمات المجتمع وخفاياه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعمل كان خفيفا بعيدا عن الضجيج ولكنه مستمر يعطي مفعوله ويؤتي أكله ولو بعد حين شأنه في ذلك شأن السوسة التي تنخر الجذع الكبير عبر الزمن الطويل دون ان تمل او تتوقف عن العمل • وأنه لولا وجود هذا النوع من الاكراه لما تحولت شعوب بهذه الكثافة من السكان في هذه السعة من البلدان الى الاسلام وكانت اهمها في تلك الرقعة الممتدة حول حوض البحر الابيض المتوسط مهد الحضارات منذ عرف الانسان أولى خطاها وكانت هذه الخطى في المنطقة ذاتها التي كانت مهد الحضارة المسيحية ومنطلق خطاها الجبارة التي هزت العالم القديم فحطمت مظاهر الشرك والضلال ؟•

يرى بعض المؤرخين انه اذا كان ما جرى لموسى بن ميمون اليهودي من احداث فضحت الاكراه الذي تعرض له ، فأنكره القاضي الفاضل في مصر ، وما كان لينكره لولا انه بديهية دينية يوافق عليها سائر علماء مصر ، مهد العلوم الاسلامية يومذاك ، فانه قد تكون حوادث اخرى وقعت لآخرين ليس لهم شهرة موسى بن ميمون ولا مركزه الاجتماعي وليس بمقدورهم الهجرة الى مصر او غيرها خلاصا من الاكراه الصغير او الكبير، وأن بعضا من هؤلاء المؤرخين ليشتط به القول فيذكر من اسباب الاكراه الصغيرة (عوامل التمييز بين المسلم وغيره في الدار الآخرة !!) وكأننا

شجعهم التسامح الاسلامي الكبير الى افساح المجال لمخيلتهم في ولوج مختلف ابواب التصور ، او كأن على المسلمين ان يؤمنوا للجميع رخاء العيش وحسن المصير بعد الموت !!

وفي مقالة لبرنارد لويس ظهرت عام ١٩٨٠م تحت عنوان : الاسلام وغير المسلمين مترجمة الى الفرنسية ينتقد التمييز الديني بين المسلم والملحد كنوع من اللامساواة الأساسية ! (٥٤) .

التشدد في تطبيق مبدأ حرية المعتقد كان يتعرض لأزمات ولكن استمرار هذا المبدأ وعموميته لا يمكن ان يخامر احدا شك في قوة تأثيرهما . وقد بلغت الحرية الدينية أوجها في عمق عهود الطليعة التي حفظت وحافظت على روح الاسلام عقيدة وتشريعاً . وبعدما أشرنا اليه مما ورد على لسان الخليفة علي بن ابي طالب (ع) .ولكي تتوضح أسس الحرية الدينية عند المسلمين نشير الى ما كان من دعوة عمرو بن العاص في كتاب بعث به الى جميع أقاليم مصر ، البطريرك القبطي بنيامين (ان يحضر آمنا مطمئنا ويدبر حالة بيعته وسياسة طائفته) ، ثم ما كان من حضور بنيامين بعد ان اختفى طيلة حكم المقوقس وحفاوة عمرو بن العاص به واطلاق يده في الاشراف على أمور القبط وعودة كثيرين من الذين فتنوا عن مذهبهم او الذين هربوا من ديارهم (٥٥) .

كان ذلك في عهد الخلفاء الراشدين وكان والي مصر يومها يعمل وفق اوامرهم ونواهيهم وهي لم تكن لتخرج عن التقيد بالشرع في جميع مظاهره ورغم ان عمرو بن العاص قد اتخذ فيما بعد من المواقف

ما يتعارض احيانا مع مفاهيم الدين الحنيف ، ولكنه هنا يتصرف كوال يتقيد بتعليمات خليفة المسلمين .

لقد اتاح المسلمون للأقباط والروم على السواء ان يدينوا بالذي شاءوا وان يتعبدوا على ما يحبون ان يتعبدوا وان يفسروا طبيعة السيد المسيح عليه السلام وارادته ومشيئته على النحو الذي يطمئنون اليه وكانت هذه الحرية ميسورة لأصحاب جميع المذاهب فلم يكن من شأن المسلمين ان يظهروا فريقا على فريق أو يناصروا مذهبا على مذهب ، وانما كانوا يودون لو دان جميع هؤلاء بالاسلام ، والنصوص على هذه الحرية الدينية مستفيضة في كتب الاسلاميين وغير الاسلاميين .

وقد جاء في نص الصلح الذي أورده الطبري : ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب فله مثل ما لهم وعليه ما عليهم ، ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه او يخرج من سلطاننا . وكان ذلك يتعلق بما خير به المسلمون الروم الذين قاتلوهم بين أن يدخلوا في ذمتهم وبين ان يؤمنوهم حتى ينصرفوا عن أرض مصر فلا يعودوا اليها وليس هذا الموقف غريبا عن المسلمين فقد كان لهم موقف مشابه في حروب الشام وكان من شروط الصلح الذي عقده عمر لأهالي بيت المقدس تأمين الروم (فمن خرج منهم فانه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن أقام فهو آمن وعليه مثل ما على ايلياء من الجزية) [٥٦] .

وهكذا كان حتى للمحاربين ملء الحرية في ان يعودوا الى بلادهم دون ان يتعرضوا لأي اكراه ولو تعرض هؤلاء لمثل ما كان شائعا ومعتادا لما اتهم المسلمون بالتعصب ،ولكننا نذكر ان حروبا جرت في القرن العشرين لم يكن للمنتصرين فيها مثل هذا التسامح تجاه معتقدات المحاربين ، ولم تكن معاملة الأسرى لتبلغ هذا المبلغ من الحماية الفورية سواء لجهة حرية

الفكر او التنقل والعمل ، والقادة المنهزمون حوكموا (لأعمال اقترفوها) ولكـن الواقع ان العقيدة هي التـي حوكمت وحكمت وتعرض معتنقوها لشتى صنوف العذاب فالموت • ألم تنسب محكمة نورمبرغ جميع ما قـام بـه القادة الالمان كمحاربين لهم دون عقائدهم التي خرجت مهشمة الفكـر والانسان والمبادىء ؟•

ان جميع عقود الصلح التي كتبها المسلمون في مصر كانت تنص على ان المصريين (لا يخرجون من ديارهم ولا أراضيهم) وأن (لهم الأمـانة على انفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص) • (٥٧)

واذا كنا نؤمن بأن المساواة التامة غير موجودة في هذا العالم ، وهذا ما يؤكـده العلـم والمنطـق والواقع ، فان ذلـك لن يمنعنا ان تتقصى في تاريخ المسلمين بوادر وجود أي نوع من الاكراه مهما كبـر أو صغر ، وأن تتحرى اسبابه من خلال نتائجه ومحركيـه مع ايماننا بأن ما امامنا من وقائع مدونة يكاد يكون كافيا لوضوح الرؤيـة في مـا لم يتم تدوينه أو تجـاوزه التاريخ والمؤرخون •

ويواجه الباحث في مطلع التاريخ الاسلامي حديث الرسول الكريم : (من آذى ذميا فأنا خصمه ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة) • (٥٨)

ذلك القول لم يكن دليلا على حالة خضوع وخوف تعتري أهل الذمة فيحتاجون لهذا الدفاع ، بقدر ما هو نوع من التأكيد على ان اعمال السوء التي تطالهم توازي اعمال السوء التي تطال المسلمين سواء بسواء او ربما على شكل ووجه أشد قوة عند الله لانها بمثابة الاساءة الى رسول الله (صلعم) ولأن في الصورة رعبا ربـما كـان مقصودا به التأثير النفسي الشديد •

والرسول الأعظم كان يدرك ان الاقلية بحاجة لحماية اشد من اكثرية تمتلك القوة والعقيدة والاندفاع ، ويحمي افرادها مجرد انتماؤهم لها من أي سوء . فجاء حديثه رادعا اشد الردع ، مدروسا اشد الدرس متناسبا ومتناسقا مع الاخطار المحتملة التي قد تواجه حرية المعتقد والفكر .

وكان من ابرز نتائج هذه الحرية ما يتعلق باباحة الزواج من كتابية ، نصرانية كانت أم يهودية دون ان تضطر لترك دينها ، وقد جعل الاسلام من حقوق الزوجة الكتابية ان تتمتع بالبقاء على عقيدتها ، والقيام بفروض عبادتها والذهاب الى كنيستها او بيعتها (وهي منه بمنزلة البعض من الكل وصاحبته في الحل والترحال وأم بناته وبنيه) .

لم يفرق الدين في حقوق الزوجية ، بين الزوجة المسلمة والزوجة الكتابية . ولم تخرج الزوجة الكتابية ، والكلام للامام محمد عبده ، باختلافها في العقيدة مع زوجها من حكم قوله تعالى :

(ومن آياته ان جعل لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) ..

فلها حظها من المودة ونصيبها من الرحمة وهي كما هي ، وهو يسكن اليها كما تسكن اليه [٥٩] .

ولكن لهذا الزواج آثارا قانونية وروحية وقرابية لا بد من حصولها ولا بد من ان تنطلق اسبابها ونتائجها وآثارها ومؤثراتها فتفعل فعلها في المجتمع الصغير فكريا واجتماعيا :

صلة المصاهرة التي تحدث بين أقارب الزوج وأقارب الزوجة وما تؤدي اليه بين الفريقين من اتصال وموالاة ومؤازرة على ما عهد في طبيعة البشر في هذا المجال الهام ثم آثار لكل ذلك تظهر بين الأولاد واخوالهم

وذوي القربى لوالدتهم ولا يغيب عن الذهن ما يمكن ان يستحكم من الالفة بين المسلم وغير المسلم بأمثال هذا التسامح الذي لم يعهد في العقائد والأمم السابقة ولا في من لحق من اتباع الدينين السابقين على الاسلام (لا اكراه في الدين) بقيت شعار ومرشد كل مجتمع وكل بيت كما يبدو من هذا المثال .

يقول الامام محمد عبده : ان العقيدة طور من اطوار القلوب يجب ان يكون امرها بيد علام الغيوب فهو الذي يحاسب عليها ، اما المخلوق فلا تطول يده اليها ، وغاية ما يكون من العارف بالحق ان ينبه العاقل ويعلم الجاهل .

الآثار التي تترتب على بقاء الزوجة على دينها الكتابي ليست باليسيرة اذا ما اخذنا بعين الاعتبار تأثيرها التربوي والاجتماعي وكل ما أظهره العلم من معطيات دورها في العائلة والمجتمع سواء بسواء ، واذا علمنا ان بعضهن دخلن قصور الخلفاء عن طريق الزواج كما حدث في عهد العزيز بالله حيث (زاد بلاط الخليفة في اكرام النصارى لأنه كان للعزيز أصهار مسيحيون منهم أرستس خال السيدة ابنة العزيز بالله وقد صير بطريركا على بيت المقدس وصير أخوه أرمانيوس مطرانا على القاهرة وكان لهما جميعا محل لطيف عند العزيز وتقدم في مملكته) . (٦٠)

وعلى تساؤل عن سبب عدم اباحة زواج المسيحي من المسلمة ، يبدو من فحوى اجابة الشيخ محمد عبده ان الوضع القانوني والعائلي للزوجة لدى الطوائف المسيحية لا يسمح بما يسمح به الدين الاسلامي لأنه لا يمنحها نفس الحقوق التي منحتها في الاسلام بالنسبة لزوجها والغير ولا يخضعها لنفس الوصايا التي يخضع لها الأولاد والأقارب من طاعة واجبة واحترام كلي في حال مخالفتها لعقيدة الزوج والأولاد .

واذا كانت امرأة العزيز قد تصرفت بحرية فان نسوة آخر بلاط وآخر مجتمع اسلامي اندلسي أكرهن على اعتناق المسيحية بعد ان تم القضاء على الحكم الاسلامي في الاندلس وكان منهن بعد ذلك زوجات لبعض رجال الحكم في اوروبا .

يقول آدم متز في كتابه عن الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري الجزء الاول : لم يكن يقع تزاوج بين المسلين وغير المسلمين وذلك لأن القانون المسيحي لم يكن يجيز للمرأة النصرانية ان تتزوج بغير نصراني ، لئلا تنتقل هي وأولادها الى غير المذهب ولا يجوز للنصراني بحسب القانون المسيحي ان يتزوج بغير نصرانية الا رجاء ادخالها وأولادها في النصرانية (٦١) .

وقد روى ابن قتيبة في كتابه « عيون الأخبار » (طبعة بركلمان ص ١٣٨) عن الخليفة معاوية : ان ضجيج نواقيس دمشق كان يقض الخليفة الكهل من نومه ، فأرسل رسولا الى بيزنطة ليبطلها (٦٢) ، فاذا كان خليفة المسلمين ، ومعاوية بالذات الذي فعل ما فعل فغير وبدل في المجتمع السياسي الاسلامي حيث قلب كثيرا من مفاهيم الحكم الى غيرها وابتعد بالكثير من دعائم الخلافة عن غاياتها ، لم يتمكن من اسكات النواقيس المجاورة للقصر على الاقل ، وهو الذي تمكن من اسكات اصواتا تحمل من صدى القرآن وأسسه الشيء الكثير ، فان لذلك معنى كبيرا ان من الجهة الدينية او الجهة الاجتماعية ، يضع هذا الامر في عداد ما يعتقد معاوية ان موقعه بعيد في ضمير المجتمع الاسلامي والعقيدة الاسلامية ، واننا لنعلم انه حرص حرصا كبيرا ولاسباب سياسية اكثر منها دينية ، على مراعاة قواعد الدين وأوامره ونواهيه خصوصا الراسخة منها في ضمير الناس حرصا منه على ارضاء الرأي العام في دمشق وغيرها . قد لا يكون وازع الخليفة دينيا وقد لا يكون شديد التمسك بأمور الدين ولكن المؤكد لدى

معاوية ، معاوية السياسة والحكم والجاه انه كان شديد الحرص على ارضاء الناس عامتهم وخاصتهم ، ما يهمنا ان نلاحظ ان تصرف معاوية ان لم يكن دليلا على خوفه من عقاب الآخرة ، فانه بدون شك ، كما توحي بذلك سيرته وظروفه وأعماله قد اخذ بعين الاعتبار الشعور الديني المتغلغل في ضمير المجتمع الاسلامي ، وان هذا الامر يدخل بعمق ضمن معطيات هذا الشعور ، ولولا ذلك كله لما احجم معاوية بن ابي سفيان عن أن يضرب العادة التي تزعجه فيمحو آثارها من دمشق دون الحصول على (فتوى) بيزنطة .

يبقى السؤال المطروح سابقا عن هذا التحول الكبير الى الاسلام الذي شمل منطقة الشرق الاوسط بكاملها ثم عاد ليمتد فيما بعد من المحيط الى الخليج وضمن هذا الجو المسيطر من التسامح الذي فرضه الدين الجديد دون هوادة .

يقول برنارد لويس المؤرخ المعاصر المعروف (٦٣) : في القرون الاسلامية الاولى حيث تمت السيطرة الاسلامية ، كان ثمة مجال قليل بل لم يكن مطلقا من مجال لتحويل الناس عن طريق الاكراه وانتشار الاسلام كان يتم بالاقناع . ولا تمكننا المصادر المتوفرة اليوم ، من تقدير نوع ومدى التغييرات الدينية التي حصلت .

بعض الباحثين يعتقدون انه حتى بدء الحروب الصليبية كان غير المسلمين يؤلفون الاكثرية الشعبية ، ولكن المؤكد ان اعدادا كبيرة من المسيحيين واليهود والمجوس اعتنقوا الاسلام وصاروا جزءا من المجتمع الاسلامي . وهنا لا بد للمؤرخ المنصف من ان يستنطق التاريخ دعما لموضوعيته فالكاتب يلمح الى امكانية حصول بعض الاكراه دون ان يحدد مصدرا او مرجعا تاريخيا واحدا يستند اليه لذلك يستخلفه بعدم وجوده، واننا لنرى في كلامه ذاته ما يدحض فكرة وجود أي اكراه في طريق هذا

التحول الذي حصل بطيئا مستمرا عبر قرون من البحث والتعايش والتجارب ولو كان للاكراه ان يحصل لما احتاج الامر لهذا الزمن الطويل واذا كـانت الاكثريات غير المسلمة (وهذا ما يحتاج الى دليل) قد استمرت حتى بداية الحروب الصليبية ولم تلحق بالاعداد الكبيرة التي تحولت في السابق فلأن مجرى التاريخ الاسلامي لم يعرف الاكراه ولـــو اختلف الامر لتشابهت النتائج مع ما جرى في اسبانيا بعد هزيمة الدولة الاسلامية حيث لم يحتج التحول الا الى فترة زمنية قصيرة جدا بالقياس الى عمر الشعوب ، وحيث فرض الاكراه تغييرا شمل مجتمعا بكامله ومحا السيف والخوف والموت كل أثر للفكر والدين الاسلامي في تلك الربوع .

ونحن نواجه من التسامح لدى الحكام والولاة عبر ما يصور مـــن الافعـــال ما يعاكس ما قام بـــه الاسبان ومـــا يؤلف الاطار الحامي لحرية العقيدة في ظل الاسلام . يجرنا الـــى ذكـــر كل ذلك ما قيل عن مضايقات وتحديدات كانـــت تشبـــه الاكـــراه وتـــؤدي اليـــه وهـــي فـــي مجملها اجتماعية تتفاعل ببطء لا تدركه عيون التاريخ ، فاذا كانـــت تتعلق بالفكر الزاخر بالدفاع عن العقيدة المستمر في تفتحه وتجدده عبـــر كـــل العصور ، فالنقاش هنا في غير محله من الاكـــراه او غير الاكراه ، لأن منع تلك الافكار من الانتشار يميل بالاكراه نحو المسلمين انفسهم ! فهل بذلك فقط تتحقق المساواة ؟

واذا كان المقصود مضايقات اجتماعية متكررة فكل الوقائـــع التـــي حفظها التاريخ والتي سردنا بعضها تثبت العكس فلا تمييز ولا تفرقة بيـــن ابناء المجتمع الواحد في الاسلام والقاعدة كانت تتجه الى احترام الفـــرد البشري في كل نواحي وجوده بغض النظر عـــما يميزه من عرق أو دين بالنسبة للحقوق الفردية على الخصوص ، والكتابي بقي دائما يحتفظ بحرية العقيدة في مجتمع كان يتحرك في صميمه بحرية وعمـــق فيصل الـــى أعلى

المراكز ويعاشر أعلى الطبقات الفكرية والسياسية دون ان يكون لعقيدته تأثير على كل ذلك في نفس من يعاشر وقلبهم •

يجمع كثير من مؤرخي الغرب والمسلمين على ان عمرو بن العاص بعد ان فتح مصر واستولى بجيشه على الاسكندرية بعد بضع سنوات من وفاة الرسول الأعظم ، فكان من بقايا ما تركت الازمنة الاولى رجل مسيحي من اليعقوبيين اسمه يوحنا النحوي كان في بدء امره ملاحا يعبر الناس في سفينته وكان يميل الى العلم ثم اشتد به الشوق فترك الملاحة واشتغل بالعلم وهو ابن اربعين سنة فبلغ فيه ما لم يبلغه الناشئون من طفولتهم فيه حتى عد من فلاسفة وقته وأطبائه ومناطقته • وسمع به عمرو بن العاص فاستدناه منه وأكرمه لعلمه ووقعت بينهما محبة ظهر امرها واشتهر حتى قال احد فلاسفة الغرب والكلام لا يزال للامام محمد عبده (٦٤) :

(ان المحبة التي نشأت بين عمرو بن العاص فاتح مصر ويوحنا النحوي ترينا مبلغ ما يسمو اليه العقل العربي من الافكار الحرة والرأي العالي بمجرد ما أعتق من الوثنية الجاهلية ودخل في التوحيد المحمدي أصبح على غاية الاستعداد للجولان في ميادين العلوم الفلسفية والأدبية من كل نوع) •

في هذه الرواية من الوقائع ما يمكن ان يكون عاديا فيما تعبر عنه من صداقة بين الرجلين ولكن تفهم الظروف الاجتماعية والدينية المحيطة بها تجعل منها موضوعا يتجاوز الحدث الى المبادىء التي يمثلها الوالي ويحكم بظلها • فالفاتح المسلم الجديد لأعرق البلدان حضارة وهي مصر ، يرتبط بصداقة مع هذا العالم الكتابي حتى لتصبح مضرب مثل بين المؤرخين كما رأينا • ولو كان في الواقع الاجتماعي والديني موقف مغاير من ابناء الاديان السماوية الاخرى لما تمكن عمرو ولا سمح لنفسه بهذا الاجراء •

ان معطيات الرواية تقدم دلالة اجتماعية بليغة يمكن لكل متتبع لتاريخ المجتمعات القديمة استخلاص نتائجها ومعانيها الكثيرة وهي كلها لا تتصل بالاكراه من بعيد او قريب بل تعزز وتنطلق من التسامح الخير الذي حمل الى البلدان المفتوحة الجديدة • اذن تمتع اهل الكتاب بحرية المعتقد بعيدا عن اي ضغط من اجل دخول الاسلام لا من الناحية المعنوية ولا حتى من الناحية المادية •

ولكن اصواتا ترتفع في الحديث عن مضايقات وتتقصى كلاما من هنا وكلاما من هناك ووقائع قليلة متفرقة في عصور متباعدة ومختلفة لتكوين اطار تاريخي لهذا الحديث ، فما هو مقدار الصحة في كل ذلك ؟ وما هي المضايقات التي كان اهل الكتاب يتعرضون لها ؟•

وحيث ان هذا الأمر يرتبط بحرية المعتقد لأنه في حال وجوده لا بد ان يتعلق بتمييز يجري على اساس ديني ، فسوف نتعرض لبحثه في الفصل المقبل مباشرة بعد البحث الذي تناول حرية المعتقد لأنه متمم له •

المضايقات

ابرز مـا لجـأ اليه بعض المؤرخين في نقدهم للتاريخ الاسلامي يدور حول نوعين من المضايقات المالية والمعنوية وهما الجزية واللباس الخاص ، والجزية التي ظهر استعمالها في مطلع عهد الرسول (صلعم) لم تكن جديدة في الاسلام بل كانت سابقة له عرفتها شعوب كثيرة قبلـه ونظمت جبايتها وحددت كميتها • ولكن هل كانت مقتصرة في تلك الازمنة على اهـل المناطق المحتلة ؟ أم انها تعدت كل ذلك لتشمل المواطنين كلهم او قسما منهم في الدول والممالك التي اعتمدت التسمية منذ القدم ؟ •

يحدثنا التاريخ ان الجزية ليست جديدة في الاسلام وانها قديمة قدم تاريخ الحضارة فقد وضعها اهل اثينا على سكان سواحل آسـيا الصغرى حوالي القرن الخامس قبل الميلاد مقابل حمايتهم من هجمـات الفينيقيين عندما كانت فينيقية من اعمال الفرس • وفرضها الرومان عندما فتحوا غاليا (فرنسا) بمقدار يتراوح ما بين ٩ و ١٥ جنيها أي بما يعادل سبعة اضعاف جزية المسلمين (٦٥) • وفرضها الفرس على رعاياهم كما يقول ابن الاثير عند حديثه عما فعله كسرى انو شروان في الخراج والجند (وألزمـوا النـاس الجزية ما خلا العظماء وأهل البيوتات والجند والمرازبة ومن خدمة الملـك كل انسان على قدره اثني عشر درهما وثمانية دراهم وستة دراهم وأربعة دراهم) •

والظاهر ، والكلام لجرجي زيدان ، ان العرب أخذوها عن الفرس لفظا ومعنى فعربوا لفظها حتى صار (جزية) وعدلوا في كيفية جمعها وقد رفعوها عن المسلمين كما فعل كسرى بالنسبة لبعض الطبقات من المواطنين لأن المسلمين عندهم هم الجند والعظماء وأهل البيوتات الذين استثناهم كسرى من الجزية . وأهل اللغة يعدون لفظ الجزية عربيا مشتقا من جزاه به وعليه كافأه .

رواية ابن الاثير وتأكيد جرجي زيدان وكلام بعض المؤرخين كل ذلك يقدم التفسير الواقعي والصحيح لمسألة الجزية .

فهي لم تكن ترمز الى الاذلال ولم تكن ايضا مجرد عبء مالي يلقى على عدو ، لم يدخل كل ذلك في مفهوم واضعيها فهل كان المبلغ الذي يدفع ثقيلا في كميته بعيدا عن واقع هذه المفاهيم التاريخية القديمة ؟

ان الجزية لم تكن ترمز الى الاذلال ولم تكن مجرد عبء مالي يلقى على عدو بقدر ما كانت نوعا من الضريبة يقابله نوع من البدائل وهذا ما يؤكده بعض كبار المؤرخين المسيحيين فهذا آدم متز يقول في كتابه : (الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري : وكانت هذه الجزية أشبه بضريبة للدفاع الوطني فكان لا يدفعها الا الرجل القادر على حمل السلاح ولا يدفعها ذوو العاهات ولا المترهبون وأهل الصوامع الا اذا كان لهم يسار .

وجرجي زيدان يقول في كتابه (تاريخ التمدن الاسلامي) [٦٧] :

وقد قلنا ان الجزية لا توضع الا على من بلغ الحلم من الأصحاء ومعنى ذلك انها بدل من القتل والقتال وأن دافعها لا يقتل ولا يدعى الى قتال .

ولا نعتقد ان موضوع القتل كما طرحه جرجي زيدان يمكن ان يرد ليفتدى بجزية لأن الثابت كما سبق وظهر من بعض الآيات والأحاديث (ان دم

الذمي محقون كدم المسلم تماما) وكان الخليفة علي بن ابي طالب (ع) يقول : (دماؤهم كدمائنا) [٦٨] • والآية الكريمة : (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله) تشمل الذمي كالمسلم سواء بسواء •

ان العرب أخذوا مبدأ الجزية عن الفرس كما اخذوا غير ذلك من تنظيمات الحكم ، ولكن الفرس لم يفرضوا الجزية على الأعداء بل فرضوها على الرعية كلها ، فمن دفعوا ليسوا سوى الشعب ومن استثنوا هم كذلك، نظرا الى اهميتهم في الحكم والمجتمع • والمسلمون من اجل الغاية نفسها استعملوا الاسلوب نفسه ولكننا نرى ان الطائفة الاسلامية حلت محل أهل الجند والحكم والعظماء وأهل البيوتات وقد عرفت هذه الطبقات كلها فيما بعد دخول عدد من ابناء الطوائف الاخرى وأهل الكتاب خاصة ، فهل كان الوزراء من النصارى واليهود وأصحاب المراكز العالية يدفعون الجزية ام انهم عندما دخلوا في عداد هذه الطبقات استثنوا ؟ ونحن نميل الى الحل الاخير لأن التاريخ لا يحدثنا ابدا عن واقعة من هذا النوع لدى أي من هؤلاء •

وأشد ما يظهر الوجه السلمي الآخر للجزية ، وجه ما ترتبه لدافعها من حقوق، يبدو فيما ما ورد على لسان بعض المؤرخين من وقائع تبدو جد معبرة في هذا السبيل ، ولو انها غير كثيرة ، وليس معنى ذلك سوى ان اهتمام المؤرخين العرب لم يكن ينصب على مثل هذه الوقائع اذا كانت لا تصدر عن رأس الهرم السياسي او معاونيه من كبار الحكام • ورغم ذلك لم تخل كتب التاريخ من سرد لبعض هذه الوقائع :

(كان الخليفة عمر بن الخطاب جالسا بين اصحابه فمر به رجل من اهل الذمة يتسول فنظر الى مجالسيه وقال لهم : انا لم ننصف الرجل ، أيصح ان نأخذ منه الجزية وهو شاب وتتركه يتسول وهو شيخ ؟ كلا ، وأمر له براتب يصرف له من بيت مال المسلمين) • [٦٩]

هذه الرواية وردت في أكثر من كتاب وعلى اكثر من لسان واذا كان للذمي حق في بيت المال فمعنى ذلك يوضح ما يرتبه هـذا الحـق ويطرحه من حقوق اخرى متوازية او متداخلة معه ؟ اذا كان الراتب الـذي حـدده الخليفة دائما وهو كذلك فان هذه الديمومة تنسحب آثارها علـى معنـى الجزيـة ومفهومها لتضيف اليه ما يقر بها من ان تكون احد مظاهر احترام النفس البشرية التي تهدف الى فرض دفع مبالغ في وقت القوة والشباب تكون ضمانا عند الشيخوخة والمرض ، ولو كانت الجزية ضريبة يدفعها المغلوب للغالب لما ترتب عليها هذا الحق ولما استطاع خليفة المسلمين ان يجهـر بـه ويدفع من بيت المال ما يوجبه دون ان يبـدو من سياق الواقعة اثر منة او بوادر صدقة • واذا كانت المبادرة صادرة عن خليفة المسلمين فمعنى ذلك انها ولجت ضمير المجتمع ومسلماته ولولا ذلك للقي عمر بن الخطاب من ينتقده ويعترض على حكمه ، كما سبق وحدث له في امور اخرى ، وهو من عرف بتقبل النقد بل وطالب به مرارا ، ولكن هذا التصرف يمر دون اعتراض ، ويتعلق بغير المسلمين ، ويوزع من اموالهم وصحابة الرسول هم اهل الحل والربط في هذه الفترة بالذات ، ولم يحدثنا التاريخ ابدا انهم جميعا سكتوا عن مخالفة لأصول الشرع خاصة عندما تتعلق بأموال المسلمين في بيت المال •

فهذه الجزية الزهيدة في اكثر الاحيان ــ وهناك كـما سبق ان فانا شبه اجماع من المؤرخين على انها لم تكن قيمتها لتتجاوز دينارا وأنـها وصلت في فترة زمنية الى دينارين في السنة • ويعدل جرجي زيدان أعلى نسبة لها بـما قيمته عشرة فرنكات في العام ــ لم تكن عبر هذا المفهوم لتؤلف انتقاصا من قيمة دافعها ويمكن ان تتصور المهـن التي كان يتعاطاها اهل الكتاب وينتقونها من بين الموفرة لأكبر الأرباح كالصيرفة والتجـارة وغيرها • من هنا نرى ان لا أهمية للجزية كضغط مادي على أهل الكتاب يؤدي الى اعتناق الاسلام كما زعم البعض ، نظرا لضآلة قيمتها المادية •

ان المسلم المعفى من الجزية لم يكن يعفى من الضرائب (الزكاة وغيرها) ولم يكن يعفى من القتال. ويحدثنا المؤرخون عن نصارى لم يكونوا يدفعون الجزية لأنهم يشتركون في القتال ضد العدو الخارجي . ولا بد من الاشارة الى انه كان للنصارى النوبيين مركز خاص ممتاز في المملكة الاسلامية ؛ فكانوا يدفعون الضرائب لملكهم وكان للضرائب عامل من قبله في بلاد الاسلام وقد حدث ان واحدا منهم اعتنق الاسلام وكان ابن ملك النوبة ببغداد زائرا فأمر باعتقاله وغله بالقيود . (٧٠)

ومعنى ذلك ان فريقا من النصارى لا يدفع الجزية ، بل يدفعها الى سلطات بلاده فهل كان ذلك نتيجة لمساعدات عسكرية او لانعدام حالة الحرب بين بلاد النوبة والمسلمين ؟ أم لأسباب اخرى ؟ ان التاريخ لا يحدثنا كثيرا عن الاسباب البعيدة او القريبة لهذا التدبير .

يقول آدم متز : على ان غالبية دافعي الجزية كانوا يدفعون الحد الأدنى حتى ان بنيامين يقول (٧١) : ان اليهود في كل (٧٢) بلاد الاسلام يدفعون دينارا واحدا . وكذلك يقول بتاحيا : ان اليهود في العراق لا يدفعون شيئا للخليفة وانما يدفع الواحد منهم كل عام دينارا واحدا لرأس الجالوت (٧٣) . فريق يدفع الضريبة للملك بلاده وفريق يدفعها لرئيس طائفته وفريق يدفعها دينارا واحدا ، كل ذلك يؤكد الطابع غير الجزائي لهذه الضريبة لذلك بقيت على حالها حتى نهاية القرن الثاني عشر للميلاد كما يبدو من كلام بنيامين وبتاحيا (٧٤) .

ملاحظة اخرى لا بد ان تسترعي الانتباه عبر هذا التهاون في تحصيل الجزية وتحولها لتدفع الى رأس الجالوت وهذا يحددها كما يبدو بنفس قيمتها التي كانت محددة من قبل المسلمين ولا يمكن ان نعتقد ان باستطاعة رئيس الطائفة اليهودية ارهاق المكلفين من طائفته .

امام كل هذه المعطيات تبدو الجزية بهذه الضآلة عبر كل العصور القديمة التي تمر فيها التحولات الكبرى الى الاسلام ، فهل يعقل ، ان نأخذ باستنتاجات بعض المؤرخين ونصدق بأنه من اجل دينار واحد يدفع في كل عام يمكن للانسان ان يغير دينه ويلجأ الى اعتناق دين آخر ؟ وان اعدادا كبيرة من الناس كانت تتحول الى الاسلام لهذا السبب ؟

ولو ان هذه الضريبة الغيت في احدى فترات تاريخ الحكم الاسلامي وقد حدث ذلك جزئيا بالنسبة للنصارى النوبيين فماذا تكون النتيجة ؟

يصبح المواطنون في المجتمع الواحد امام لا مساواة غير معقولة فيما يتعلق بما تجبيه الدولة ويعود الى بيت المال وأمام نوعين من المواطنين ، احدهما يدفع الزكاة كما حددها كتاب الله وهي حتما اعلى قيمة من الدينار الواحد بالنسبة للغالبية العظمى من المسلمين والآخر لا يدفع شيئا !

وأمام نوعين من المواطنين بالنسبة ايضا للخدمة العسكرية الضرورية للدفاع ضد خطر العدو المجاور ، نوع ملزم بتأدية تلك الخدمة والانخراط في جيش الدفاع وآخر معفى من هذا الواجب بسبب انتمائه الدينيوبسبب التسامح الذي يعتمده الاسلام مبدأ يسود جميع نواحي الحياة !

فالجزية اذن لا يمكن ان تكون من الوجهة الاقتصادية على الاقل ، عامل اكراه يدفع الى اعتناق الاسلام لأن صاحبها سيضطر في حال تحوله الى دفع الزكاة المتوجبة على المسلم وهي تفوق أو لا تقل حتما عن قيمة (الدينار) الذي كان مقررا وتختلف باختلاف زيادة او نقص مدخوله السنوي .

وهو سيجد نفسه ملزما بتأدية الخدمة العسكرية في الدفاع التي ربما كانت الجزية بديلا عنها او مساهمة في نفقاتها وقد عرف العصر العباسي

اشخاصا من المسلمين كانوا يدفعون مبالغ من المال لقاء عزوفهم عن تأديـة الخدمة العسكرية (٧٥) .

وقد ظلت الجزية بوجه عام عند المقدار الذي فرضته الشريعة وانما كانت تتغير تغيرا يسيرا بحسب تغير العملة . وكانت الحكومة في مصر في اول القرن الثالث الهجري تكتفي بأخذ نصف دينار ولكن في سنة ٣٩٠ هـ ـ ١٠٠٠م اضطر البطريرك جورجيوس المصري ان يدفع دينارا ونصف دينار بعد ان كان يدفع دينارا واحدا (٧٦) .

لم يكـن فرض الجزية اذن تدبيرا انتقاميا ولا يبدو من ما وصلنا من اقوال رجال الحكم والمؤرخين ما يشير الى ذلك صراحة أو ضمنا .

من هذا المنطلق يمكن ايضا تفسير التدابير الاحترازيـة التي اتخذت بحق بعض اهل الذمة في الثغور وبعض المضايقات التي حدثت على اثـر رجوع هرون الرشيد من حرب الـروم في هرقلة ، والظاهر ، والكلام لجرجي زيدان (٧٧) ان نصارى الثغور ساعدوا أبناء طائفتهم الـروم في تجسس احوال المسلمين واستخدموا الكنائس لهذه الغاية فأمر الرشـيد بالتضييق عليهم انتقاما منهم وخصص امره بأهل الثغور على الحدود وشدد على الخصوص في مخالفتهم هيأة المسلمين فـي لباسهم دفعا لتنكرهم وتجسس احوال المسلمين والا ، يضيف جرجي زيدان (٧٨) : فالرشيد من احسن خلفاء بني العباس عدلا ورفقا بأهل الذمة وكان احد عمال أخيه الهادي قد هدم بعض الكنائس بمصر فلما أفضيت الخلافة اليه أمـر باعادة بنيانـها .

واذا كان أمر الرشيد قد خصص بأهل الثغور على الحدود فمعنـى ذلك ان التدبير غير عادي فرضته ظروف تتوقف عليها شؤون الأمن وسلامة البلاد ، ولكن لماذا اللجوء الى هذه الطريقة دون غيرها من وسائل ؟ للاجابة

علـــى هذا السؤال لا بد من مراعـــاة اختلاف الظـــروف الحضارية عنها فـــي عصرنـــا الحـــالي ، واذا كانـــت امور التجسس تكافـــح اليوم بعلامـــات مميـــزة كان يتعذر وجودها في ذلك الوقت كجواز السفر والمراسلات البرقية وسرعة التنقل ، فان بامكاننا هنا ان تتفـهم الاسـباب الموجبة التي دعت الى اتخاذ تلك التدابير ويبدو من طريقة وضعها انها كانت مؤقـــتة •

أليست في اسبابها ووقائعها مشابهة لما تفرضه ظروف الحرب او الأمن في كثير من الاوقات في عدد من البلدان حاليا ؟ وقد لمسنا ان بعضها يبلغ درجات اشد قسوة وأبعد نتائج من كل ما كان يجري في تلك العهـــود البعيدة • واذا كانت وسائل الاعلام العالمي المعاصر تبرر التدابير اللاانسانية التي تتخذ ضد المواطنين العـرب في الاراضي المحتلة فان مـن سخريات التاريخ ان تلجأ نفس الاقلام الى انتقاد وقائع كانت لها مبرراتـها وظروفها في الزمن القديم • ورغم انه أسيء استعمالها في فترات تاريخية اخرى فان المدة القصيرة التي استغرقتها تلك الفترات واعادة الامور الـــى مجراها الطبيعي بسرعة في اكثر الاحيان وعدم وجود النص عليـها مـن الوجهـة الدينية في مصادر الشرع الاسلامي سواء في ذلـك كتاب الله أو حديث الرسول أو كتب الفقه ، كل ذلك يجعل من حصولها تطرفا فـي التعامـل يبتعد عن التسامح الذي أكده الدين الاسلامي والحقوق التي رسمها لأهل الكتاب في مختلف مصادره وفي العهد الذي اخذ على عاتقه أمر تنفيذه •

ان المطـالبة باستمرار التسامح في الفترات التـي كان أمن الدولة والنظام يتعرض للخطر ، من جـراء بعض مظـاهره ومتطالباته التي تصبح مصدر الخطر المنذر بالهلاك ، ليست سوى نوع من التجني علـى التاريخ الذي لم يعرف حتى اليوم ولا نعتقد انه سوف يعرف ما يحقق هذا المطلب الذي يبدو مخالفا لمنطقه ومجراه •

تحدث بعض من المؤرخين الأجانب عن شروط لبناء الكنائس وعن ان الترخيص لم يكن سهلا ولا يسيرا بـل يحتاج الى موافقة قد لا تتم ويتحدثون عن كنائس تهدم وكنائس تقفـل وكالعادة لا يقدمون الدليل التاريخي الكافي على كل هذه الوقائع والامور • ولكنك عندمـا تقلب صفحات التاريخ يواجهك الحديث عنها عبر اسباب ومبررات ونتائج تضعها في نصابها من الواقع والحقيقة • ومن الانصاف الحديث عن اخطاء ولكنها من صنع الانحراف عن معطيات الاسلام ومبادئه في اتجاه استبدادي بعيد عن كل ذلك التراث السياسي الكبير •

يقول عبد الله بن عباس :

« لا كنيسة تبنى ولا هيكل يقام في مدينة كل اهلهـا مسلمون ، أما حيـث يكون هنـاك ذميون قد سكنوا سابقا فـان علينا الوفاء بعهـدنا لهم » (٧٩) •

وهذا يعني ان المنع لا يتم الا في الأماكن التي لا يقطنها احـد من أهل الكتاب ! وهو ما يبدو خارجا عن نطاق الحاجة والواقع • ولم يكـن حتى هذا المنع ساري المفعول في الواقع • ففي ايام المأمون نسمع عن احد عشر الـف كنيسة مسيحية ومئـات الكنائس اليهودية في الامبراطورية الاسلامية نفسها •

لقد تم ابعاد غير المسلمين عن مناصب الدولة في عهد المتوكل ولكن المتوكل هذا هو الذي سوى ضريح الشهيد الحسين (ع) بالأرض ومنع الحجاج ان يحجوا للعتبات المقدسة ، ونال المسلمين في عهده مـن القيود اكثر من غيرهم •

ان الخليفة المأمون الذي صوروه (عدوا) للمسيحيين ، كان مجلسه يضم ممثلين عن جميع الأقليات الخاضعة لحكمه (يهودا ومسيحيين وصابئة

وحـتى زرادشتيين) وكانت الحقـوق والامتيازات الكهنوتية المسيحية مضمونة ومنظمة [٨٠] وفي بعض الفترات نجد سبب المضايقات داخـل اعتداءات خارجية وغزوات ٠

لقد ورد الخبر الى مصر بأن الروم دخلوا الشام عام ٤٣٩ هـ ــ ٩٦٠م وقتلوا وخربوا فهاج المسلمون على النصارى ووقعت صيحة فـي الجامـع العتيق بعد صلاة الجمعة ، فهاج الرعاع ونهبوا كنيستين [٨١] ٠ ولمـا غزا الامبراطور نقفور جزيرة اقريطيش في العام التالي ووصل خبر ذلـك الى مصر ثار المسلمون وقصدوا كنيسة ميخائيل التـي للملكية بقصر الشمع فشعثوها وخربوها [٨٢] ٠

وفيما بين عامي ١٦٩ و ١٧١ هـ هدم علي بن سليمان والي مصر من قبل الرشيد الكنائس المحدثة بمصر ثم جاء بعده وال آخر فأذن للنصارى في بنيان الكنائس التي هدمها علي بن سليمان فبنيت كلها بمشورة الليث ابن سعد وعبد الله بن لهيعة وقالا : هو من عمارة البلاد واحتجـا بأن عامة الكنائس التـي بنيت بمصر لم تبن الا فـي الاسلام في زمـن الصحابة والتابعين [٨٣] وعام ٣٠٠ هـ ــ ٩١٢م ثار المسلمون فهدموا كنيسة بناهـا النصارى في تنيس فأعان السلطان النصارى حتى بنوا الكنيسة [٨٤] ٠

على انه حتى بالنسبة لما حدث في عهد المتوكل كما سبق ان بينا وهو الذي (شدد النكير على الشيعة وأهلك العلمـاء والكتاب) كمـا يقول جرجي زيدان فانه لم (يرتكب هذا الشطط بغير سبب دعا اليه) وذلـك ان أهالي حمص وثبوا بعاملهم سنة ٢٤١ هـ فأعانهم النصارى عليه فكتب العامل الى المتوكل فأمره باخراج النصارى وكان هذا من اسباب نقمتـه عليـهم [٨٥] ٠

على ان مـا حدث في عهد الحاكم بأمر الله من اضطهاد للنصـارى

وتخريب لكنائسهم لم يكن سوى نزوة من نزوات هذا الحاكم ، ويحدثنا التاريخ عن معاناة لقيها المسلمون في عهده ربما كانت أشد وطأة ، ولكن كل ما جرى في عهده يبدو على شيء من التناقض كبير ، ولا يزال كل ما كتب مجهول الكثير من الاسباب ، ثم انـــه قـد عاد لسبب طفيف فأمر ببناء الكنائس (٨٦) وغير معاملته للنصارى ونرى للسيوطي كلاما عن انه ابتنى المدارس وجعل فيها الفقهاء والمشايخ ثم قتلهم وأخربها (٨٧) .

على أننا نجد في كتب التاريخ تبريرا لبعض اعمال الحاكم بأمر الله هذه . ويقول المقريزي : (وقد سوغ للحاكم ذلك حرب كانت بـين الروم والمسلمين يومئذ ، فأخرب الروم بعض جوامع المسلمين ومنها جامـع كان لهم في القسطنطينية فانتقم الحاكم منهم بالتضييق على أهل مذهبـهم فـي بلاده فلما تولى الخليفة الظاهر لاعزاز الدين بعد الحاكم عقدت الهـدنة بينه وبين ملك الروم سنة ٤١٨ هـ واتفقا على اعادة بناء جامع القسطنطينية وأن يؤذن لمن أظهر الاسلام في ايام الحاكم أن يعود الى النصرانية فعـاد اليها كثيرون) . ونعود لنكرر التذكير بما عاناه المسلمون ايام الحاكم مما يجعل تدابيره غير ذات مدلول ولا معنى تاريخي لها .

ويؤكد جرجي زيدان في كتابه تاريخ التمـدن الاسلامي على أن أهم (مـا قاساه اليهـود والنصارى من الاضطهاد انـما كان فـي دور الانحطاط والتقهقر في الأجيال الاسلامية الوسطى وخصوصا بعد الحروب الصليبية لانها كانت السبب في اثارة التعصب بين الأمتين) . ولكن لماذا ثار هذا التعصب في هذه الظروف بالذات بعد كل تلك العلاقات التي وصل فيها رجال نصارى الى قمة الحكم وقيادة الجيوش الاسلامية ؟ يرد الجواب في مكان آخر على لسان المؤرخ نفسه (لما كان من نصرتهم الافرنج سرا) .

ويقدم مثلا على ذلك ان(نصارى(قارا) بين دمشق وحمص كانوا يسرقون المسلمين في أثناء تلك الحروب ويبيعونهم خفية من الافرنج فلما مر بهم السلطان الملك الظاهر أثناء عودته من بعض غزواته سنة ٦٦٤ هـ أمر بنهب أهلها وقتل كبارهم واتخذ صبيانهم مماليك فتربوا بين الأتراك في الديار المصرية فصار منهم أجناد وأمراء) [٨٨] ، كما فعل العثمانيون بتجنيد الانكشارية بعد ذلك بزمن غير بعيد .

على ان سببا آخر لهذه الاعمال يبدو ايضا من خلال ما كتب جرجي زيدان نفسه عندما تحدث عن معاملة (الدول النصرانية للمسلمين) ففي ذلك الوقت كانت بلدان اسلامية تقع او اصبحت تحت سيطرة دول مسيحية وعن هذه المعاملة يقول : (وكثيرا ما كانوا يهددون أسرى المسلمين بالقتل او يتنصروا واذا دخلوا بلدا اسلاميا بالحرب عنوة ضربوا نواقيسهم في الجوامع ، ولما تغلب نصارى الاندلس على المسلمين أجبروهم على حمل علامة كان يحملها اليهود وأهل الدجن ولما غلبوهم في آخر الدولة خيروهم بين النصرانية والموت فتنصروا عن آخرهم) .

أليست جميع هذه الاعمال بعيدة عن مبادىء المحبة والتسامح التي تسود تعاليم المسيحية بقدر وربما بأكثر مما كانت عليه اعمال المسلمين فيما سبق الحديث عنه من ضغوط بعيدة عن مبادىء التسامح الاسلامي ؟

ولكن من غير الانصاف تشويه ذلك التاريخ الطويل من التسامح والتعايش بأعمال لا تقاس ببرهة نسبة لذلك التاريخ . كما انه لا يجوز ان نأخذ اعمالا قام بها ربما مرتزقة بيزنطيون او رعايا مأجورون للحكم على تاريخ المسيحية والمسيحيين بعدما قاموا به من اعمال ثقافية جليلة ومن خدمات فكرية مادية في مجرى تطور الحضارة الاسلامية . واذا تمسك كاتب التاريخ دون قياس بظلمات تغيب وتختفي قرونا لتعود الى الحياة

لفترة ربما لم تزد في عمر الزمن على اشهر قليلة فان الوقائع المذكـورة والتشديد عليها لن يكون سبيلا لانصاف الناس والشعوب والأديان •

ويشدد جرجي زيدان على القول : (لذلـك كان التعصب على أهل الذمة يتقدم بتقدم الدولة الاسلامية نحو الشيخوخة) • أليست تلـك عصور الظلام التي ابتعد بها الحكم والحكام عن روح الاسلام بقدر ما اقتربوا من أزمنة خمدت فيها جذوة العلم وساد التقليد والمسخ فالجهل والبعد عن الحق وأهله ؟•

يحدثنا التاريخ انه بعد فتح مصر حافظ الخليفة عمر بكل تشدد على سلامة الممتلكات الموقوفة على الكنائس المسيحية وظـل يدفـع المساعدات التي كانت تدفعها الحكومة المنقرضة لاعالة الكهنة (٨٩) •

ولكي يتجنب المسلمون أقل اشتباه في استغلال قوتهم وسيطرتهم لم يكن يسمح للعنصر الحاكم ان يمتلك أرض الذمي حتى عن طريق الشراء • ومن هنا برزت القاعدة العامة (لا الامام ولا السلطان يستطيع ان يجـرد الذمي من ممتلكاتـه) •

كان المسلمون والذميون سواء بسواء تشملهم المساواة المطلقـة في نظر القانون وها هو الخليفة الامام علي بن أبي طالب (ع) يقول : (دماؤهم كدمـائنا) •

لقد كان الحرص على مصالح الرعايا من غير المسلمين هو الذي جعل خلفاء بغداد ، كما جعل منافسيهم في قرطبة ، ينشؤون ديوانا خاصا عهدوا اليـه بمهمة المحافظة على أموال الذميين ورعاية مصالحهم • وكـان اسم رئيس هذا الديوان في بغداد (كاتب الجهباذ) اما في اسبانيا فهو (كاتب الذمـم) •

ولربما استشهد البعض بالتصانيف المتأخرة في الشريعة لدعم بعض ادعاءات الاضطهاد ولكن هذه التصانيف قد كتبت بينما كان النضال العنيف يحتدم بين الدولة الاسلامية والديار المسيحية طلبا للحياة من جهة المسلمين وللسيطرة من جهة الغرب . لا شك بأنه حدث خرق لهذه الروح العالية أحيانا وبذلك تمت زخرفة الدعوى القائلة : بأن المسلمين قد أخضعوا الذميين للاضطهاد ولكن التسامح والكرم اللذين يعامل بهما غير المسلمين تشهد عليهما الحقيقة المجردة في أن الذميين كانوا أكفاء (من ناحية شرعية) لأن يعهد اليهم المسلمون بتنفيذ وصاياهم عند الموت ، وأنهم كثيرا ما احتلوا منصب مدراء الجامعات الاسلامية وكراسي التدريس فيها [٩٠] .

مهما قيل في أمر فترات الأزمات المضخمة يبقى التاريخ الاسلامي صفحات مشرقة من التسامح ويبقى زمن هذه الفترات وقصرها شذوذ القاعدة الذي لا يغير فيها ويبقى ان ديوان جيش المسلمين قد قلد مرتين لرجل مسيحي في أثناء القرن الثالث وقد أدت تصرفات احدهما الى توجيه اللوم للوزير لأنه « جعل أنصار الدين وحماة البيضة يقبلون يده ويمتثلون أمره » [٩١] .

وقد كان المتصرفون اليهود والنصارى يقسمون اليمين شأنهم شأن المسلمين . ويفيد جرجي زيدان [٩٢] بأن كتاب الجيش كانوا في أكثر الاحيان من اليهود .

ويمكن بالاضافة الى ذلك من أجل تصور قصر المدة التي كان يقع فيها ما يسمى بالاعتداء أحيانا والاضطهاد أحيانا اخرى هذا القصر الذي يثبت انبعاثه عن تصرفات بعض الحكام خلافا لما درج عليه غيرهم بحكم الدين والعادة ، ان نتمعن في هذا الكلام لآدم متز في كتابه عن الحضارة الاسلامية : (وقبل أول القرن الرابع بأربع سنين عادت القوانين الخاصة

باللباس الى الظهور ثم لم تسمع عنها شيئا في القرن الرابع كله فقد نامت ولم تظهر الا عندما قوي أمر أهل السنة في القرن الخامس الهجري) .[٩٣]

لقد جاء الاسلام لأهل الكتاب بالمساواة العملية في نظـــر القانون وتحديد الضرائب ، حتى ان هذه المساواة بشكل او بآخر شملت غير أهل الكتـــاب مـــن غير المسلمين رغم انهم لم يكـــونوا يتمتعون بنفس النظرة والحقوق في النصوص القائمة فقد ظل طوال حكم الأباطرة المسلمين للهند ان كان الهندوس يقـودون الجيوش الاسلامية ويشتركون فـــي الحـــكم المركزي كأعضاء فـــي مجالس السلطات دون تمييز من حـــيث المذهب أو اللون أو العرق .

واذا كانت التصرفات الشاذة قد ألقت فـــي بعض الفتـــرات القصيرة نسبيا ثقلا على بعض فئات من أهل الكتاب فانها كانت أشد عبئا علـــى فئات أخرى من المسلمين انفسهم وهذا نيكولسون في كتابه عـــن تاريخ العرب يحدثنا عن (معاملـــة كلـــها ذل وهوان لقيها المـــــوالي مـــــن اسيادهم الأرستقراطيين) وهذا سايكس يحدثنا ايضا في كتابه عن (تاريخ فارس) واصفا تلك المعاملة للموالي المسلمين (بأنها تفوق ما تحمله النورمان من السكسون الفاتحين) .[٩٤] ونحن نعرف كيف تمكن الموالي من اختراق جدار الحكم والسيطرة داخل الخلافة كمؤسسة وكمنصب ، ولو كانت تلك المعاملة واقعا دائما لما تمكنوا من كل ذلك ومن السيطرة في النهـــاية على أسس الحكم وادارة البلاد في كل مكان .

هذه هي أوضاع اهـــــل الكتاب في المجتمع الاسلامي القديم وفي النصوص الدينية الواجبة الاتباع من قرآن وحديث وهي بعيدة عما يصوره بعض المغرضين ، يسودها التسامح وتميزها المساواة القانونية الكاملة ولا تشوبها اعمال شذت وتصرفات طغت لأنها نقطة في بحر ذلك الزمن الطويل

من العلاقات الحسنة . القرآن الكريم والكلام للامام محمود شلتوت امام الازهر الشريف ، أمر بالعدل هكذا امرا عامـا دون تخصيص بنوع دون نوع او طائفة دون طائفة والناس عباده وخلقه يستوون ـ أبيضهم وأسودهم ذكرهم وأنثاهم مسلمـهم وغير مسلمهم (٩٥) ـ امام عدله وحكمه :

(ليس بأمانيكم ولا اماني اهل الكتاب من يعمل سوءا يجزبه ، ولا يجد من دون الله وليا ولا نصيرا ،ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا) (٩٦) .

الأسباب السياسية هي التي أدت بحاكم هنا وآخر هناك لأن يظهـر درجة معينة من عدم التسامح او ان يصر على توحيد المذهب . امـا النظام الاسلامي نفسه فقد توفر فيـه دائمـا مجال التسامح المطلوب . وكقاعدة عامة نجد ان المسيحيين واليهود المقيمين في الديار الاسلامية لـم تسـأ معاملتـهم ، ولم يضايقوا اثناء ممارسة أديانهم ، ولـم يضغـط عليـهم ليغيروا معتقداتهم . فاذا كان قد طلب منهم ان يدفعوا ضريبة خاصة فـقد كان ذلك عوضا عن قيامهم بالخدمة الحربية وانه لحق وانصاف ان يشترك اولئك الـذين يتمتعون بحماية الـدولة في تحمـل الاعباء العامة للدولة نفسها (٩٧) .

ما الاعتراض علـى التحدث عـن التسامح الذي يوجب ان يكون هناك قوي وضعيف فهو مردود لان هذا الامر مألوف في كل حديث عن اقلية وأكثريـة ضمن المجتمع الواحد حتى في عصرنا هذا مهمـا كانت ضئيلـة الميزة التي تحدد أوصاف احدى فئات هذا المجتمع ولا بأس ان ننهي بحثنا في المضايقات التي توسع في تضخيمها بعض المؤرخين الغربيين خاصـة بهذا الكلام للبطريرك المسيحي في (مـرو) الذي يطلق عليه لقب بطريرك فارس وأسمه (سيمون) : (ان العرب يساعدوننا في ديننا ويحترمون الهنا

وقديسينا ويهبون العطـاء لكنائسنا وأديرتنا [٩٨] وكـان هـذا البطريرك معاصرا لحكم الخليفة عثمان بن عفان •

•

لقـد سردنـا من هذه المضايقـات الكثير وبينا الاسـباب والنتائج بموضوعية ربما لم تكن كاملة ولكننا حرصنا على ذلك واعتمدنا من اجله في أكثر مراجعنا ما كان منها لمؤلفين من غير المسلمين وبعضهم كان في كتبه الكثير من التجني على العرب والمسلمين فاعتبرنا ما يعترف به أقرب الـى الحقيقة من غيره •

هذه هي ملامح أو هيكلية اوضاع اهل الكتاب في المجتمع الاسلامي القديم عبر توافقها مع المبادىء والنصوص في تمسكها بالعدالة والمساواة في الفترة الأهم والأطول والابقى من الحـكم الاسلامي وعبر خروجها عن شيء من كل ذلك خلال تصرفات انكرها الفقهاء والمؤرخون في عصرها بالذات في اكثر الاحيان وفي العصور الاخرى فرأينا يحيى بن سعيد يصف بعض المسلمين الذين نهبوا كنيستين بعد صلاة الجمعة في مصر (بالرعاع) عندما يقول : (فهاج الرعاع ونهبـوا كنيستين) • [٩٩] • ورأينا كيف كان يتم بسرعة اعادة الحالة الى ما كانت عليه من تسامح ولين •

واذا كنا في معرض بحثنا شؤون المضايقات الصغيرة منـها والكبيرة قد واجهنا حقيقة تظهر عبر جميع عصور التاريخ الاسلامي وتتمثـل في المحافظة على حرية المعتقد وسلامة أصحابه فان حجم الانتاج الكبيـر الذي تمكن اهل الكتاب بشكل خاص من تقديمه سواء في النواحي الفكـرية أو المادية يمكن ان يقدم الرد الكبير على كل الاتهامـات التي تحـاول عبثا تغيير وجه التاريخ والتراث الاسلاميين ، فهم قد كانوا حاضرين في جميع خلجات الفكر التي حركت المجتمع الاسلامي في مختلف العصور وجميع معطيات الاقتصاد وجميع مراكز الحكم وهذا ما فصلنا بعضه وما سنفصل

بعضه الآخر في الأبحاث المقبلة والتاريخ لم يعرف ابدا ابداعا ينتج عن الاكراه ولا عرف مساهمة اقتصادية نشطة تتفرع عن الضغط ولا عرف فكرا حرا ينمو في ظل العبودية وكل هذه الامور عرفها وصنعها اهل الكتاب في المجتمع الاسلامي منذ نشأته ولم يكن ذلك بعيدا عن رضى ذلك المجتمع وعلى خفية منه بل كان بدافع نشاطاته ومفهومه للحرية التي قمتها حرية المعتقد ، ولسنا لنفهم ان يصل بعضهم الى أعلى درجات الحكم في مجتمع اسلامي يحاصرهم ويضايقهم ويشعرهم ولو بالقليل من الحقد الديني أو النفور العقائدي !!

ولأن حرية المعتقد كانت في أساس التشريع الاسلامي فانأهل الكتاب قد مارسوا طقوسهم وشعائرهم من خلال ما أعطوا من مكان في المجتمع الذي كانوا جزءا منه منتجا ومفيدا وصالحا ومتفاعلا •

ولأن اهل الكتاب تفاعلوا بعمق مع أخصب معطيات الفكر الجديد اجتماعيا وسياسيا فقد اجتازوا ، حتى روضوا وغيروا بتفاعلهم هذا من قوة وضعف وسعة وضيق وضمور وانفتاح بعض العادات ذات الاسس الدينية فصار المسلمون لا يميزون بين أعيادهم وأعياد أهل الكتاب في الاحتفال بها جميعا بنفس الدرجة من الحماس ولسنا بحاجة لاعادة ما ذكرناه سابقا من وصف لهذه الوقائع التي تعبر جميعها عن شمولية انسانية حضارية انبثقت عن تعاليم الدين الصريحة الواضحة بعد ان طورتها الحضارة الجديدة وأعطتها صورا واشكالا تعبر عن الاندماج الكامل في المجتمع الجديد لكل طبقاته وطوائفه ، وليس من منطق الأمور ، ان يتم ذلك بعيدا عن حرية المعتقد وحرية الفكر •

الحقوق والحريات

كانت حرية المعتقد في اساس التعاليم الاسلامية والمبادىء التي أرسى قواعدها الدين الجديد كما بينا ولكن هؤلاء الذين تمتعوا بحـرية المعتقد فظلوا على أديانهم كانوا بحاجة الى حريات وحقوق اخرى تمكنهم مـن الانخراط في المجتمع الجديد بعيدا عن عقد الخوف والقلق والاضطراب ، فما هو المقدار الذي أعطي لهم منها ؟ وهل كانت تتساوى في عمـق صلتها بالنظام السائد مع مـا كان يتمتع به المسلمون من حقوق وما يتحملون من واجبات ؟ •

اذا كانت الوقائع التاريخية التي تحدد الجواب على هذه التساؤلات كثيرة ، فانها لـم ترد ضمن تسلسل تاريخي يعطـي الصورة المفصلة للحياة اليومية لهذه الفئة من الناس الذين ظلوا خارج نطاق الدين الاسلامي وداخل نطاق المجتمع الاسلامي ، ربما كان ذلك ناتجا عن عدم وصول الكثير الكثير من كتب التراث الاسلامي التي أحرقها الغـزاة او قضـى عليـها التعصب والخوف ، وربما وهذا هو الارجح لانها لم تكن لتختلف في صورها وردات فعلها على الاحداث التاريخية ، عن حياة سائر افراد المجتمع الاسلامي الذي عاشت ضمن معطياته وشاركت في أفراحه وأتراحه •

هل كان أهل الكتاب في المجتمع الاسلامي يتساوون في الحقوق مـع غيرهم من ابناء مجتمعهم من المسلمين ، أم انهم عرفوا نـوعا من التمييز الاجتماعي discrimination سببه انتماؤهم الديني ؟•

من اجل تفحص مثل هذه الأمــور ضمن مجتمع ضم في كل مراحــل تاريخه أقليات دينية وأتنية مختلفة ، يبدو الرجوع الى ملفــات القضـــاء مرشدا وموضحا للكثير من الملابسات وشديد الفائدة في هذا السبيل •

واذا لم يكن امامنا الكثير الكافي من الوقائع القضائية فان معطيات الفقه في بحثه لمسائل تتعلق بمثل هذه الأمور يمكن ان تسد النقص وتكفي لتوضيح الطـــريق •

وأقــدم حادثة من هذا النــوع تواجهنا في عهــد الرسول (صلعم) وتتلخص في ان رجلا من المسلمين الذين رق اسلامهم وضعــف ايمــانهم يدعى (طعمة بن أبيرق) سرق درعا من جاره ثم خبأها عند يهودي ، وحامت الشبهة حول طعمة فالتمست الدرع عنده فلم توجد ، وحلف بالله ما أخذها وما له علم بــها ، ثم وجدت الدرع عند اليهودي فسئل فقال : دفعــها الي طعمة واستحفظني عليها وشهد له بذلك أناس من اليهود ، وحاول قوم طعمة الصاق السرقة باليهودي دفعا للعار ، وانطلقوا الى الرسول وأخذوا يثيرون نفسه على اليهودي ويظهرون بأنهم لا يعلمون عن صاحبهم طعمة الا خــيرا وسألوا الرسول (صلعم) ان يخاصم ويدافع عن صاحبهم في سبيل تبرئته وانقاذه من تهمة السرقة وأكثروا في هذا الشأن ، حتى كاد يحكم الطبيعــة البشرية التي ليس لها من سبيل الى معرفة بواطن الأمور ــ يتأثر بخداعهم وتلبيسهم فبادره الوحي من السماء ، بما هو جدير بكل من يتصدى للحكم بين الناس ان يجعله نصب عينيه كلما اراد الحكم والقضاء (١٠٠) :

(انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك اللــه ولا تكن للخائنين خصيما) • (١٠١)

يقول الشيخ محمود شلتوت في تعليقه على هذه الحادثة : انها تبين (مقدار الغضب الالهي على الظــلم وتنكب طريق الحــق في معاملة الناس

والحكم لهم أو عليهم كيفما كان دينهم) الى ان يقول : (ان الاسلام لا يعرف المجاملة ولا المحاباة في حكمه وقضائه فالأبيض والأسود ، والضعيف والقوي ، والمسلم وغير المسلم ، والحاكم والمحكوم امام حكم الله وعدله سواء) .

ولكن اذا كان المسلم وغير المسلم امام حكم الله وعدله سواء فان للأمر وجها آخر يتعلق بتطبيق الشريعة على غير المسلم فهل يستوي في ذلك الاثنان ؟.

هل تطبق الحدود ذاتها على المسلم الذي يعتدي على أحد أهل الكتاب وبالطريقة نفسها كما لو كان المعتدى عليه مسلما ؟.

اذا كانت الواقعة التي جرت والآية التي نزلت تظهران المدى الذي طرحه الاسلام في تطبيق العدالة بالسواء على المسلم وغيره دون تحيز أو اكراه فما هو موقف الاسلام من تنائج العدالة ومرحلة تطبيق أحكامها ؟ هل يستوي امام ذلك كل المسلمين وكل غير المسلمين فيتحملون جميعا نفس النتائج لنفس الاسباب ؟.

وبمعنى آخر هل تطبق نفس الحدود وبنفس الطرق على المسلم عندما يكون غيره من اهل الكتاب موضوع الاعتداء الذي يستدعي انزال العقوبة ؟.

يقول الامام شلتوت في كتابه (الاسلام عقيدة وشريعة) على لسان فقيه من فقهاء الحنفية يدعى الزوزني : (ان الذمي محقون الدم على التأييد والمسلم محقون الدم على التأييد وكلاهما قد صار من اهل دار الاسلام . والذي يحقق ذلك ان المسلم تقطع يده بسرقة مال الذمي ، وهذا يدل على ان مال الذمي قد ساوى مال المسلم ، فدل على مساواة دمه لدمه ، اذ المال انما يحرم بحرمة مالكه . وقد استشهد لكل ما يتعلق بالقتل بالآية

الكريمة [١٠٢] : (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى) •

ويستنتج الامـــام شلتوت من كل ذلك (على ان الحق ان المسلم يقتل بالذمي اذا قتله ظلما بغير حق) والشرط الاخيـــر ينطبق على المسلم ايضا لأنه لا يقتل المسلم بالمسلم الا اذا قتله ظلما وبغير حق •

ان ما يطرح هنا يبدو خطيرا كما يبدو ان تسلسل التاريخ الاسلامي يثبت النتيجة التي وصل اليها الامام شلتوت من تطبيق العقاب بالمســـاواة في الشروط والتنفيذ ، اذ انه لو بقيت جناية المسلم على الكتابي دون عقاب، او حتى اختلف عقابها لاختل ميزان العدالة الذي اقام اركانه القرآن الكريم، ولاختلت معـــه موازين الحياة في المجتمع الاسلامي وكان في ذلـــك نوع شديد من الاكراه يتغاير مع كل مظاهر الراحة والعافية التي سجـــلها تاريخ اهل الكتاب والتي كان في وجودها دليل على صحة الاستنتاج ودقة الشرح•

فمجرى الحياة اذا ما كان ليستمر في دعته وأمنه فيما لو ظهر التباين في تطبيق العقاب للسبب الواحد والظروف الواحدة ، واذا كان لا قيمـــة لمبدأ لم يطبق على الأرض وفي مجريات الحياة فمن المستحسن تقصـــي التاريخ لنتلمس في وقائعه على قلة ما وصل منها ، مثالا يوضح هذا الرأي ويقدم تفسيرا لما كان يجول في أذهان العامة والخاصة لا سيمـــا الأولين منهم الذين تحولت في زمنهم معطيات الدين الاسلامي في اوامره ونواهيه بسرعة ويسر الى اعمال وأقوال وعادات اعطت لمجاري المجتمـــع الجديد صورته وأشكاله•فكيف كان تطبيق هذه المبادىء في حياة الدولة والمجتمع؟

جاء في كتاب الخراج ليحيى بن آدم القرشي [١٠٣] : (حكي ان رجلا من المسلمين قتل رجلا من اهل الكتاب فـــرفع الى النبي (صلعم) فقـــال : أنا أحق من وفى بذمة ، ثم أمر به فقتل •

وروي عن عبد الله بن مسعود قال : (من كان له عهد أو ذمة فديته دية المسلم) (١٠٤)

وهناك حادثة اخرى جرت على ما يبدو في الكوفة حين أقبل زياد واليا على الكوفة وكان صديقا لحجر بن عدي (ر) ولكن الأمر لم يلبث ان فسد بين حجر وزياد (١٠٥) ، وظهر هذا الفساد حين قتل عربي مسلم رجلا من اهل الذمة ، فكره زياد ان يقيد من العربي المسلم للذمي ، وقضى بالدية، وأبى أهل الذمي قبول الدية وقالوا : كنا نخبر ان الاسلام يسوي بين الناس ولا يفضل عربيا على غير عربي ، وغضب حجر لقضاء زياد وأبى ان يسكت على امضائه • وقام الناس معه في ذلك حتى اذا أشفق زياد من الفتنة وأمضى قضاءه ، فأمر بالقصاص على كره منه ، وكتب في حجر وأصحابه الى معاوية يشكو صنيعهم ، فكتب اليه معاوية ان ينتظر به وبأصحابه أول حجة تقوم عليه •

ما يهمنا من هذه الحادثة انها جاءت نتيجة ضغط الجمهور الاسلامي• واذا كان ذلك ملفتا للنظر فلأنه يعبر عن شعور تغلغل حتى لامس اعماق الضمير الاجتماعي وبعد ذلك فليس التحدث عنها متسبب عن مجرد حدوثها وانما لأنها تبدو فاصلة ليس فقط بالنسبة لما نريد ان نستشهد بها من اجله لاثبات المساواة في الحقوق التي تنطلق من قمة هذه الحقوق عندما تتعرض لقيمة الحياة ومدى أحقية التدابير المتخذة لصيانتها والمحافظة عليها بل لما يعبر عنه هذا الاجماع الذي انطلق في الكوفة فأخاف الوالي وحمله على تغيير رأيه وانفاذ قضاء الله • يكتسب هذا الانصياع قوته وشدة تعبيره عندما يكون من انصاع والي معاوية وزياد بالذات ، زياد صاحب الخطبة البتراء التي يذكر كل مؤرخي المسلمين ما تضمنت من تحديات للفكر ولمقاييس العدالة وللمسلمين وغير المسلمين • زياد هذا خاف هول المخالفة فعاد عنها وأنفذ قضاء الله • فالمبدأ اذن اقوى من كل ما كان يحكم حياة

المسلمين ومجتمعهم من مبادىء وتطلعات تحداها زياد ، وسجـل تاريخ المسلمين صور هذا التحدي كما ورد في خطبته الشهيرة وسجل فيمـا بعد لعهده كل خطى الجرأة على الدين والعدالة .

وشيء آخر يبدو ايضا شديد التعبير وهو ان حامل لواء معارضة حكم زياد بالدية ، الذي أقام مجتمع اهل الكوفة وحـركه ضد هذا الحكم ، هو حجر بن عدي ،الذي استشهد فيما بعد دفاعا عن القيم الاسلامية التي كانت تحكم كل تطلعاته وكانت شهادته محـركا هامـا في التاريخ الاسلامي ومعنى كل ذلك ان التنفيذ الذي تم لم يكن متوافقا مع تعـاليم الاسلام فحسب وانما كان في اساس تلك التعاليم لأنه كان فـي ضميـر النـاس وبخاصة في ضمير حجر بن عدي !!

ولا بأس ان نسمع مـا يحدثنا التاريخ من ندم معاوية على قتله حجر ابن عدي معاوية الذي كان لأفعاله الكثيرة آثار هزت وغيرت مجـاري التاريخ الاسلامي ولكنه عند الموت يكثر من ذكر حجر اكثر من غيره !.

ويحدثنا المؤرخون بأن معاوية لم يتلق الموت مطمئنا اليـه حين ألم به وانما كان يتوجع ويظهر الجزع ويكثر من ذكر حجر ، ومن ذكر اسرافه في اموال المسلمين [١٠٦] . أليس في سيرة حجر الذي ثار من اجل حكم زياد ، ما يثبت الواقعة ويعبر عن صحة تطبيق المبدأ الذي أقره الرسول (صلعم) حين وفى بذمته فحكم بقتل المسلم الذي قتل كتابيا،وان ذلك كان في زمن حجر قد اصبح من المسلمـات الاسلامية القاطعة ؟.

ولكي نتمكن من اعطاء المبدأ قيمته التاريخية رغم انه يمثل العـدالة في أشد صورها وضوحا لا بد ان تتذكر ان التاريخ يحدثنا انه فـي بلاد الغال بفرنسا مثلا كانت ديـة الفرنجي الحر تعادل ديـة دية الروماني مرتين . [١٠٧]

اذن يمكن القول : ان احكام القضاء فيما يتعلق بالاعتداء على حياة أهل الكتاب واموالهم كانت تطبق نفس الشرائع والحدود التي تطبق على كل ما يتعلق بحياة المسلمين وأموالهم في المجتمع الاسلامي الكبير •

ولكن هل اكتفى الشرع الاسلامي بحماية حق الكتابي بالحياة وحفظ أمواله من الاعتداء ؟

وهل منحه بالاضافة الى ذلك سائر الحقوق والحريات التي منحت للمسلم ، فأصبح مواطنا يتمتع بالمساواة الكاملة مع اخوانه في الانسانية أم ان حقوقه وحرياته ظلت خاضعة للكثير من الضوابط والتحديدات تفرقها عن تلك التي أعطيت للمواطن الآخر فتجعل من اهل الكتاب مواطنين من الدرجة الثانية اذا تكلمنا بلغة اليوم ، وبعد ان عرف عصرنا هذه الحالة التي انتجها قاموس الامبريالية الجديدة ؟•

أكان لحرية ممارسة شعائرهم الدينية حدود ، أم كان لحرية فكرهم حدود فيمنعون عن كتابة أمور دينهم مثلا ؟ أم كان لحرية تنقلهم حدود فيجمعون في مراكز خاصة بهم (غيتو) كما كان يحصل لليهود في اوروبا ؟ أم كان لحرية العمل عندهم حدود فتحرم عليهم مهن يمنعون من تعاطيها ، خصوصا ما يتعلق منها بتسيير أمور المسلمين من اقتصادية أو اجتماعية أو ادارية ؟•

ان كل ذلك ليطرح من جديد الوضع القانوني والاجتماعي لأهل الكتاب في المجتمع الاسلامي ويطرح قضية التمييز بينهم وبين المسلمين في ذلك المجتمع ، هذا التمييز الذي يتحدث عنه بعض المستشرقين والكتاب الغربيين في خلط غريب بين الاسلام في مبادئه وكتبه وبين ظواهر وفترات متقطعة نجمت عن طغيان لم يلبث ان زال بزوال شخص كان هذا الطغيان نتيجة عبثه بشؤون الحكم والدين ، ولو انهم تحدثوا عما عانته بعض

الطوائف الاسلامية وربما في الفترات ذاتها وما عاناه المسلمون جميعا من ظلم وقهر في فترات اخرى ربما كانت أصغر مدى ولكنها على كل حال حملت صورة الحدث التاريخي ، ولو أنهم قارنوا كما سبق القول نسبة هذه الفترات المضطربة الى عصور العافية التي كانت تسود حياة اهل الكتاب في المجتمع الاسلامي وعلاقاتهم باخوانهم من المسلمين ، لو أنهم فعلوا كل ذلك لتغير تفسيرهم للوقائع وحكمهم على مسيرة التاريخ الاسلامي ككل وزالت صورة ذلك الحقد الذي يظهر بين سطور ما كتب بعضهم وهو أشد ما يبتعد بالمؤرخ عن ولوج دروب الحقيقة ، لأنه يضرب موضوعية الكاتب في أهم مواقعها حساسية !.

ومن هذا المنطلق تناقش الأحداث في التاريخ الاسلامي القديم في سعتها وضيقها وقوتها ولينها ، في مظاهر تقديس الحرية في كل مجال ومظاهر المضايقات والضوابط من كل نوع دون ان ننسى كما نسي بعض المؤرخين ان ندخل في حسابنا المدة التي شدت الاحداث المختلفة الى عمر التاريخ مفرقين بين ما عاش منها متوافقا مع طغيان او انحراف لا يلبث ان يزول وبين ما رافقت مظاهره اجيالا وقرونا من الزمن البعيد والقريب فنصبح بذلك اكثر قربا للحكم على تاريخ بكامله من خلال أبعد مبادئه رسوخا وأطول فتراته استمرارا الا من خلال فتنة تمت واستبداد تسلل في سير معاكس للأحداث والمبادىء التي حكمت أطر التاريخ الاسلامي في عصور الازدهار وزال اكثرها فسبب ما سمي بعصور الظلام والانحطاط فأكره المسلمون قبل غيرهم على ارتياد طرق الغواية والجهل والخضوع لنتائج الاستبداد والبغي والفجور ،فهل يحمل الاسلام والمسلمون مسؤولية هذا الطغيان وتلك النتائج ؟.

هذه هي المسألة ومن هذا المنطلق سوف يحكم التاريخ سلبا او ايجابا على الاسلام والمسلمين في تعاملهم مع الغير ، ونحن لا نريد ان

نستلهم التاريخ المقارن الحافل بكل صنوف التفرقة والتمييز بين المواطنين اصحاب العقائد المختلفة في الوقت الذي يكاد يبلغ فيه التسامح درجة الفوضى في البلاد الاسلامية !

ثم لا بد من الاستطراد في مجال العلاقات الى الحديث عن المهن التي كان يتعاطاها اهل الكتاب ومدى الحرية التي كانوا يتمتعون بها في هذا المجال لان حرية العمل تتعلق بشكل متصل بمبدأ المساواة ، مساواتهم مع غيرهم من المواطنين وهي لا تستقيم مع اية تفرقة او تمييز او اكراه ،فهل كانت هذه الحرية مؤمنة لهم ؟.

يقول برنارد لويس في مقال له عن علاقات النصارى واليهود بالمسلمين في التاريخ ، وفي حديث عجيب : (أخس المهن بالنسبة للمسلم كانت تلك التي تفرض عليه علاقات مع ملحدين ، مما ادى الى حصر الدبلوماسية والتجارة والبنوك والسمسرة والتجسس في ايدي غير المسلمين . وحتى تجارة وصنع الذهب والفضة المرموقة في كل انحاء العالم ، كان المسلمون يعتبرونها تؤلف خطرا على نفس الذين يقومون بها).

ولا ندري من هم الملحدون الذين يقصدهم الكاتب ؟ اذا كان يتحدث عن بعض التاريخ العثماني على انه الاسلام،فان الدول التي تحيط بالعثمانيين ويتعاملون معها دبلوماسيا لم يكن سكانها ملحدين وكذلك لم يكن الروم ملحدين في نظر الاسلام القديم . ان ذلك يستدعي التوقف عند غرابته وكذلك كون صنع الذهب والفضة يؤلف في نظر المسلم خطرا على نفسه ولا ندري من اية جهة يكون هذا الخطر؟قد يكون اقبال المسلمين على العمل في البنوك في العهد العثماني نادرا لما لتحريم الربا من اثر ربما كان الدافع لذلك .

ولكن ما يهمنا هنا هو ان السبب الذي دفع الكاتب الى هذا

الاعتقاد هو كون اكثرية العاملين في هذه القطاعات كانوا ، ربما من غير المسلمين ومن اهل الكتاب بالذات وان دخولهم هذا المجال لم يكن بسبب احتقار المسلمين له بقدر ما كان سببه الحرية في العمل المعطاة لهم والمساواة في شروط سوق العمل تلك مع غيرهم هذا رغم ان الكاتب يريد لهذا النشاط الاقتصادي لاهل الذمة في المجتمع الاسلامي ، سببا آخر غير ما يتمتعون به من حقوق ويحصلون عليه من حريات في مجال العمل والاقتصاد !

لم يكن في التشريع الاسلامي ما يغلق دون اهل الذمة اي باب من ابواب الاعمال ، وكانت قدمهم راسخة في الصنائع التي تدر الارباح الوافرة فكانوا صيارفة وتجارا وأصحاب ضياع وأطباء [١٠٨] بل ان اهل الذمة كما يقول المقدسي ، نظموا انفسهم بحيث كان معظم الصيارفة والجهابذة في الشام يهودا على حين كان اكثر الاطباء والكتبة نصارى [١٠٩] وكان اصغر دافعي الضرائب اليهود الخياطون والصباغون والاساكفة والخرازون ومن اليهم [١١٠] .

وذا كان التشريع الاسلامي كما يقول ابو يوسف القاضي لم يغلق دون اهل الذمة اي باب من ابواب الاعمال اليدوية ، فانه فتح امامهم ابواب العمل الفكري على مصاريعها فولجوا مجالات العلم والأدب والفنون وتولوا اعلى المناصب في الدولة حتى انهم احتكروا احيانا بعض الوظائف كما جرى في مصر بالنسبة لكتاب الدواوين مما سمح لهم ، ليس فقط بالتمتع بحريات الفكر والعمل بل بالتأثير من مراكز الحكم على الكثير من شؤون المجتمع والدين ورأيناهم احيانا يضيفون الى الاحاديث الشريفة ما يعزز مركز بعضهم (الأقباط) ويزيد في حصانتهم .

من الامور التي نعجب لها ، والكلام لآدم متز [١١١] كثرة عدد العمال والمتصرفين غير المسلمين في الدولة الاسلامية ، فكأن النصارى هم الذين

يحكمون المسلمين في بلاد الاسلام والشكوى من تحكيم اهل الذمة في ابشار المسلمين وأموالهم شكوى قديمة (١١٢) .

ولما اخذ الموالي الفرس في تنظيم الحكومة وترتيب دواوينها أحسوا بافتقارهم لمن يعينهم على ذلك من اهل الذمة في العراق والشام وكانوا اهل معرفة في الحساب والكتابة والخراج فضلا عن العلوم فأطمعوهم بالرواتب والجوائز وسهلوا لهم اسباب المعيشة وقربوهم وأكرموهم فاطمأنوا للدولة وتقاطروا الى بغداد وخدموا العباسيين بعقولهم وأقلامهم بما آنسوه من تسامحهم واطلاق حرية الدين لهم فاستخدمهم العباسيون في دواوينهم وولوهم خزائنهم وضياعهم (١١٣) .

والعباسيون في ذلك لم يخالفوا قواعد الدين ولا خرجوا عما هو متعاهد عليه في ذلك ولم يتعرضوا من هذه الجهة لأي نقد من اية طائفة على كثرة ما تعرضت له بقية الطوائف الاسلامية من نقد واتهام بالخروج على الدين وهذه بحد ذاتها ظاهرة تاريخية تعبر عن الارتياح الشعبي لهذه التقاليد التي درج عليها بنو العباس وما خرج عليها بنو أمية يوما كما ذكرنا ولكنها في عهد العباسيين زادت اتساعا نظرا لزيادة الدور المعطى لأهل الكتاب قوة اجتماعية وحضارية وكان في الكتاب جماعة كبيرة من النصارى الذين كثيرا ما كانوا يتولون ديوان الجيش وربما عظمت منزلة صاحب هذا الديوان وهو نصراني حتى يتسابق اكابر رجال الدولة من المسلمين الى تقبيل يده ، وممن تقلد ديوان الجيش من النصارى في الدولة العباسية ملك بن الوليد قلده اياه المعتضد بالله واسرائيل النصراني قلده اياه الناصر لدين الله وقد أدرك بعضهم رتبة الوزارة فتقلد خلافتها ابو العلاء صاعد ابن ثابت في ايام المتقي بالله (١١٤) .

الى هذا الحد امتد نفوذ اهل الكتاب ، وقد بقي آخذا في الازدياد منذ مطلع العصر العباسي ونلاحظ في مطلع القرن الرابع للهجرة ، العاشر

للميلاد محاولات التقرب من كبار الموظفين النصارى (الكتاب) من اجل الوصول الى مراكز الحكم وكان الكتاب المسيحيون منتشرين في كل مكان حتى ان محمد بن عبد الله بن طاهر في القرن الثالث اتخذ له قهرمانا نصرانيا (١١٥) ولما اراد المقتدر ان يستوزر الحسين بن القاسم عام ٣١٩ هـ راسله في ان يجتهد في اصلاح اعدائه فابتدأ ببني رائق، فكان يمضي الى كاتبهم المسيحي ويضمن له الضمانات ثم فعل ذلك باستيفن بن يعقوب كاتب مؤنس ، وقال له : ان تقلدت الوزارة فأنت قلدتنيها ، وكذلك فعل بغير هؤلاء من كتاب النصارى (١١٦) . وكان الحسين بن القاسم يسعى دهره في طلب الوزارة وكان يتقرب الى النصارى من الكتاب بأن يقول لهم : « ان أهلي منكم وأجدادي من كباركم وان صليبا سقط من يد عبيد الله بن سليمان جدي في ايام المعتضد ، فلما رآه الناس قال : هذا شيء تتبرك به عجائزنا ، فتجعله في ثيابنا من حيث لا نعلم » تقربا اليهم بهذا وما يشبهه (١١٧) .

وكان تقدير هذا الوزير صحيحا ففي عهد المقتدر نفسه وهو الذي أراد ابعاد النصارى عن المناصب العامة تقلد هذا الرجل الذي كان يتقرب الى النصارى ويتملقهم ، تقلد منصب الوزارة .

وفي النصف الثاني من القرن الرابع الهجري اتخذ كل من عضد الدولة المتوفي عام ٣٧٢ هـ ـ ٩٨٢م في بغداد والخليفة العزيز بالقاهرة وزيرا نصرانيا وقد استأذن نصر بن هارون وزير عضد الدولة سيده في عمارة البيع والديرة وفي اطلاق المال لفقراء النصارى فأذن له (١١٨) .

وعام ٣٨٩ هـ ـ ٩٩٩م توفي القاضي محمد بن النعمان فوجد عليه مال من اموال اليتامى وغيرهم فأرسل كاتب نصراني يسمى فهدا فاحتاط على القاضي وشرع في تغريم الشهود الذين كان القاضي قد أودع عندهم الأموال وألزم ابن القاضي ببيع ما خلفه أبوه للوفاء بالودائع (١١٩) .

وهكذا يبدو ان حرية العمل الفكري والمادي لأهل الكتاب لم تكن لتخضع لأية قيود أو حدود فقد ابيحت لهم جميع المهن وبلغوا في مراكـز الدولـة أعلى درجاتها وهي الوزارة وكادوا يحتكرون مراكز الكتاب وهي مـن الاهمية بمكان وقد رأينا كيف كان يتقرب بواسطتها بعض الطامعيـن في الوصول الى الوزارة ، من الخلفاء ، وكيف تم لهم التدخل في أقصـى مـا يحرك الحياة القانونية والاجتماعية للمسلمين بحيث يتمكنون ، بفضـل نفوذهم وعملهم من تغيير الاحاديث ، ولسنا ندري كم يمكن ان يكون مدى تدخلهم في هذا السبيل . وهنا نجد انه لا بد من التحدث عن مدى تمتعهم ببعض الحريات الهامة والمكملة .

حرية الاجتماع

هذه الحرية بلغت أوجـها في الاجتماعات التي كانت تقام في الأعياد وبلغت اكثر من ذلك عندما دخل تأثيرها ضمير المجتمع الاسلامي فصارت بالنسبة للمسلمين شيئا من مجريات حياتهم ، يدل على ذلك مـا درج عليه هؤلاء من الاحتفال بها دون تمييز بينها وبين اعيادهم الاصيلة وقد يكون السبب في ذلك تلك الحصانة التي كانت لشعائر اهل الكتاب ومؤسساتهم والتي اعترف بها الشرع الاسلامي عندما أقر عهد الذمة وحماه •

كانت الطقوس الدينية تجري داخل المعابد في الاديرة والكنـائس ، وقد رأينا ما كان لتلك الاديرة من الاستقلال في العمل والحرمـة في التعامل ، وما كان يتمتع به روادها المسلمون من حرية فـي تعـاطي الشراب واللهو دون اي تدخل من جانب الدولة ، ورأينا ما كان يتمتع به رجال الدين من حرية في التعاطي مع ابناء ملتهم وتطبيق شرائعهم الدينية واقامة طقوسهم • كل ذلك كان يجري دون أي كبت ، او اعتراض وكل ما يستدعي من اجتماعات كان يتم ايضا بحرية كاملة ، واذا كانـت احتفالات الأعياد تتعلق بهذه الاجتماعات والطقوس فانها قد اكتسبت مظهرا حملها من العمومية ما قربها كثيرا في بعض العصور لأن تكون شبيهة اشد الشبه بالاعياد الوطنية في ايامنا لانها كادت ان تشمل جميع ابناء الديانات •

يشارك فيها المسلمون بحرية الواثق من نفسه ومن حضارته بعـيدا

عن العقد والخوف.هذا الشكل من المشاركة لا يمكن ان يتم الا عبر الفة اجتماعية طويلة تزداد امتدادا على مرور الزمن حتى لتلـج اقصى مجاري الحياة في المجتمع الجديد ومن خلال اكثر من نمط من أنمـاط التعايش . وكان المسلمون منذ بداية الفتح قد تركوا النصارى يتصرفون في أمورهم الدينية من غير تدخل في ذلك ، ثم أخذوا يشتركون في الجانب الاجتماعي المسلي من الاعياد المسيحية ، فمثلا (كانت اعياد اهل بغداد تكـاد تكون نصرانية من كل وجه ، وكانت اعياد القديسين في مختلف الاديرة اكثـر نصيبا من احتفال الناس ولكن هذه الاديرة كانت لا تخلو حتى في غير الأعياد من الزوار ، ولم تكن الحال في مصر لتختلف عما تقدم وكان فـي اليوم الثالث من تشرين الاول عيد القديس أشموني وكان مـن الأعـياد العظيمة ببغداد ، يجتمع اهلها اليـه كاجتماعهم الى بعض اعيادهم ولا يبقى أحد من اهل الطرب واللهو الا وخرج اليـه ، كل منهم حسـب قدرته ، ويتنافسون فيـما يظهرون به هنـاك من زينتهم ، ويباهون بما يعدونـه لقصفـهم ، ويعمرون ديره وأكنافـه وحاناته ، ويضرب لذوي البسطة منهم الخيـام والفساطيط ، وتعـزف عليهم القيان فيظل كـل انسان منهم مشغولا بأمره ومكبا على لهوه فهو أطيب مشهد وأحسنه [١٢٠] وكان الغريب الذي يهبط بغداد ويسأل عن اعجب وأبهى ما يستحق ان يرى فيها يسر ويتسلى بأن ينتظر شهرا لرؤية عيد اشموني.وكان من الرسوم القديمة بمصر ان يركب متولي الشرطة السفلانية ليلة الغطاس في موكب كبير وتوقد بين يديه الشموع الموكبية والمشاعل فيطوف الشوارع وينادي في الناس أن لا يختلط المسلمون بالنصارى في تلك الليلة وأن لا ينكدوا عليهم عيدهم وذلك ان النصارى كانوا في سحر تلك الليلة يخرجون الى شاطىء النيل ويغطسون فيه ، وكان رسم الملكية خاصة ان يخرجوا من كنيسة ميكائيل التي بقصر الشمع الى شاطىء النيل في جمع وفير بالقراءة الملحنة والصلبان المشهورة .

ويقول المسعودي في ليلة الغطاس : « ولليلة الغطاس بمصر شأن عظيم عند اهلها لا ينام الناس فيها ، وهي ليلة عشر تمضي من كانون الثاني ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلاثمائة ليلـــة الغطاس في مصر والاخشيد محمد بن طغج في داره المعروفة بالمختارة والنيل مطيف بها وقد أمر فأسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل غير ما أسرج اهل مصر مــن المشاعل والشمع وقد حضر النيل في تلك الليلة مئو الألوف من الناس من المسلمين والنصارى ، منهم في الزوارق ومنهم في الدور الدانية للنيل ومنــهم علــى الشواطيء لا يتناكرون الحضور ويظهرون كل ما يمكنهم اظهاره من المآكل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهي والعـزف والقصف » .[121]

وكان عيد الاحد من الصوم المسيحي عيدا من اعياد اللهو عند المسلمين وكان يحتفل به في دير الخوات بعكبرا المشهورة بنبيذها ويبلغ اللهو أقصاه في ليلة الماشوش (وهي ليلة تختلط النساء فيها بالرجال فلا يرد احد يده عن شيء ، ولا يرد أحد احــدا عن شيء ، وهو معـــادن الشراب ومنازل القصف ومواطن اللهو) [122] .

وكان في يوم الأحد الرابع من الصوم عيد دير درمالس ، وكان يجتمع اليــه نصارى بغداد ولا يبقى احد ممن يحب اللهو الا تبعهم ، وكان الناس يقيمون فيــه الأيام [123] .

حرية الاحتفالات والاجتماعات بقيت رغم كل ما كانت تسببه فــي بعض الأحيان من مخالفات للشرع الاسلامي يرتكبها نفر من المسلمين الذين يشاركون في تلــك الاجتماعات ســـواء في مناسبات الاعياد او غيرها . وحرمة الاديـرة والمؤسسات الخاصة بأهــل الكتاب كــانت بمثابة حصانة أكسبت هذه المؤسسات مناعة تاريخية ساهـــم في صنعها حرص الخلفاء

والولاة على احترام العهود والمواثيق والنصوص التي تنظم علاقات أهـل الكتاب بسائر فئات المجتمع • واذا كانت ممارسة الطقوس الدينية وما ينبثق عنها من احتفالات واجتماعات في عصر كان للدين فيه اكبر الاثر في تنظيم الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لأفراد ملته ، اذا كانت تلـك الممارسة على تلك الدرجة من الحرية والحماية فان بالامكان تصور اثرها في حياة المجتمع الاسلامي بكامله ، وتربيته وتطوره في اتجاه التسامح الذي يشتد ويمتد أثره ويزداد جيلا بعد جيل حتى حلول عصر الظلام الذي حرك كل شيء باتجاه السلبية والانحطاط •

حرية الفكر

اذا كان الدين الاسلامي قد احترم حرية المعتقد وحماها بما منح أصحاب الاديان السماوية الاخرى من احترام وعناية ، فهل كان له موقف من حرية الفكر على العموم ، وهل كانت في اساس مبادئه وضمن معطياته ؟

هنا اسمح لنفسي ان ابدأ من النتائج لأصل فيما بعد الى الاسباب بعكس ما قد يفعل الباحثون ، فلحرية الفكر نتائج لا يمكن ان تتحقق بدونها ولها دلائل ومظاهر تنبثق عبر هذه النتائج فتكون آثارها التي تدل عليها وأهمها ازدهار العلوم في مختلف فروعها وانتشار ثمارها واحترام العلماء ، ولا يمكن تصور الازدهار الذي شمل مختلف العلوم، وتوالت فيه ترجمة أهم ما عرف العالم القديم من فلسفة وعلوم رياضية وكيميائية وتاريخية وجغرافية وغيرها ، وتتابعت فيما بعد التآليف في جميع هذه الفروع ، وبلغت مناقشات الفقهاء والعلماء أقصى فروع العقيدة والشرع ، لا يمكن تصور كل ذلك بعيدا عن حرية فكرية شاملة يتمتع بها العلماء والفقهاء من مختلف الطوائف ، ويظهر من بينها علم الكلام الذي أوجدته حاجة المسلمين في الدفاع عن مبادىء دينهم فكان الظاهرة المعبرة عن سعة أفق اجواء حرية الفكر وعفوية شمولها بعد ان تم التعاطي مع مختلف الحضارات ومختلف تيارات الفكر العالمي القديم . واذا كانت كل هذه المظاهر تؤلف دليلا على استمرار الحرية الفكرية كما ذكرنا ، فلأن العقل

البشري لا يستطيع ان يعطي وأن يبدع في ظل القهر والاستبداد والظلم.

واذا كانت عصور الاسلام الاولى تبدو أشد تعبيرا عن معطياته ومبادئه وأكثر انسجاما معها رغم ما سادها بعد عصر الخلفاء الراشدين فان عصور الانحطاط التي بدأت في نهاية العصر العباسي قد شهدت انحسار المبادىء الاسلامية عن الواقع الاجتماعي الذي اصبح يتخبط في فوضى ثقافية وخلقية كبيرة عندما انحصرت هذه المبادىء في اصول العبادة بعيدا عن منطلقاتها الاولى ، واسباب ذلك كثيرة ، لعل من المفيد من أجل تصور أبعادها الاطلاع على هذا الكلام للاستاذ فهمي هويدي في كتابه (القرآن والسلطان)[١٢٤] أ (منذ خرج علي بن أبي طالب دفاعا عن القرآن وخرج معاوية بن أبي سفيان طمعا في السلطان ، ثم كان انتصار معاوية انتصارا للسلطان ، منذ ذلك الحين حدث الانقلاب الاول في التاريخ الاسلامي ، وألقيت البذرة الاولى التي أثمرت فيما بعد ظاهرة الغاء الدور الحقيقي للقرآن ، وفقد فاعليته كمحرك لعالم الاسلام وتقلصت تماما وظيفته الاجتماعية ، حتى انتهى به الامر الى ان اصبح يؤدي وظيفة جمالية فقط) .

هذا التحول حدث تدريجيا وعبر عدة عصور ادت الى ما سمي عصور الانحطاط فيما بعد ، لم تكن هناك مشكلة اذن عندما كان السلطان موظفا لصالح القرآن بوعي وبصيرة ولكن التحول حدث عندما انقلبت الآية واصبح القرآن موظفا لصالح السلطان ! وهذا مالك بن نبي ، العالم الاسلامي المعروف يعتبر معركة (صفين) في العام الثامن والثلاثين بعد الهجرة بداية هذه المرحلة التي أدت الى انفصال القرآن عن السلطان أو (انفصال الضمير عن العلم) على حد قوله . وفي نهاية المرحلة غابت الشورى تماما عن الحكم وانفرط عقد الاسلام الفريد[١٢٥] ؟

من هنا يتوجب علينا متابعة النتائج التي عنينا ، والمظاهر التي أشرنا اليها ، بحثا عن حرية الفكر وتبينا لاسبابها .

وطالما ان بحثنا يقتصر على حرية الفكر لدى أهل الكتاب في المجتمع الاسلامي فلا بد أن يتقصى أحوال رجال الفكر منهم في المجتمع الاسلامي القديم •

قال المؤرخ الاميركي درابر [١٣٦] : (ان المسلمين الاولين في زمن الخلفاء لم يقتصروا في معاملة أهل العلم من النصارى النسطوريين ومن اليهود على مجرد الاحترام ، بل فوضوا اليهم كثيرا من الاعمال الجسام ورقوهم الى المناصب في الدولة حتى ان هارون الرشيد وضع جميع المدارس تحت مراقبة حنا مسنيه) وهو يوحنا ابن ماسويه الشهير • وقال في موضع آخر : (كانت ادارة المدارس مفوضة مع نبل الرأي وسعة الفكر من الخلفاء الى النسطوريين تارة والى اليهود تارة اخرى • ولم يكن ينظر الى البلد الذي عاش فيه العالم ولا الى الدين الذي ولد فيه بل لم ينظر الا الى مكانته من العلم والمعرفة •

وقد قال الخليفة المأمون : الحكماء هم صفوة الله من خلقه ونخبته من عباده) •

من ابرز من اشتهر بالحظوة عند الخلفاء ، والكلام للامام محمدعبده، جيورجيس بن بختيشوع الجند يسابوري طبيب المنصور ، كان فيلسوفا كبيرا علت منزلته عند المنصور لأنه كانت له زوجة عجوز لا تشتهى فاشفق عليه المنصور وأرسل اليه ثلاث جوار حسان فردهن وقال : (ان ديني لا يسمح لي بأن أتزوج غير زوجتي ما دامت حية فأعلى مكانته حتى على وزرائه ، ولما مرض أمر المنصور بحمله الى دار العامة وخرج اليه ماشيا يسأل عن حاله فاستأذنه الحكيم في رجوعه الى بلده ليدفن مع آبائه فعرض عليه الاسلام ليدخل الجنة • فقال : رضيت أن أكون مع آبائي في جنة أو نار ، فضحك المنصور وأمر بتجهيزه ووصله بعشرة آلاف دينار (وهو

المنصور الدوانيقي المشهور بالامساك وكزازة اليد) وأوصى من معه بحمله اذا ما مات في الطريق الى مدافن آبائه كما طلب • ثم سأله عمن يخلفه فأشار الى عيسى بن شهلاثا أحد تلامذته فأخذه المنصور مكان جيورجيس فطفق يؤذي القسوس والبطاركة ويهددهم بمكانه عند الخليفة لينال منهم رغائبه ، فشعر الخليفة بذلك فطرده [١٢٧] •

لقد كان التسامح في عصر النهضة العباسية شاملا على الخصوص أهل الكتاب وأهل الوجاهة والعلم ، ولم يكن العالم المسلم يستنكف ان يأخذ العلم عن مسيحي حتى أن الفارابي الفيلسوف قد أخذ بعض علمه من أحد نصارى حران [١٢٨] وكان النصارى من جهة اخرى لا يستنكفون من قراءة التوراة والانجيل على فقيه مسلم [١٢٩] •

يقول الامام محمد عبده تحت عنوان حظوة علماء النصارى عند الخلفاء : وكان ممن ارتفع شأنه عند الخلفاء والخاصة والعامة في زمنه ايام خلافة الراضي متى بن يونس المنطقي النصراني النسطوري كان متفننا في جميع العلوم العقلية ، أخذ عنه ابو نصر الفارابي وانتهت اليه الرئاسة في بغداد وكان من أهل ديرقنى ونشأ في مدرسة مار ماري وقرأ على روفاييل وبنيامين الراهبين اليعقوبيين • وكان من المقربين عند الخلفاء قسطا البعلبكي من الفلاسفة ، وهو نصراني طلبه الخلفاء الى بغداد لاجل الترجمة وكان الخلفاء يبذلون كل غال ورخيص في سبيل نقل الكتب ويرغبون النقلة وغيرهم بالبذل والاكرام والمحاسنة بقطع النظر عن مللهم او نحلهم او انسابهم، وقد كان فيهم النصراني واليهودي والصابي والسامري والمجوسي، فكان الخلفاء يعاملونهم كافة بالرفق والاكرام مما يصح والكلام لجرجي زيدان ان يكون مثالا للاعتدال والحرية وقدوة لولاة الامور في كل العصور [١٣١] وكان المعتصم قد استقطب سلمويه بن بنان النصراني وبلغ من

اكرامه اياه انه كان اذا ورد الى الخليفة كتاب يقتضي توقيعا وكان سلمويه حاضرا امره ان يوقع عنه بخطه وكل ما كان يرد على الامراء والقواد من خروج امر او توقيع من الخليفة فبخط سلمويه . وكذلك كان شأن داود بن ديلم مع المعتضد (١٣٢) .

وكان المترجمون في العادة نصارى ويهودا أكثرهم من السوريين وبدأت حركة الترجمة في ظل الامويين عندما ترجمت بعض المؤلفات اليونانية والقبطية في الكيمياء وفي عهد عمر الثاني قام ما سر جويه ، وهو يهودي من اهل البصرة بترجمة كتب طبية باللغة السريانية الى العربية واعظم فترة ازدهرت خلالها الترجمة هي القرن التاسع الميلادي وخاصة في عهد المأمون (٨١٣ ـ ٨٣٣ م) الذي اسس مدرسة للتراجمة في بغداد تضم مكتبة وتعنى بشؤونها هيئة نظامية وكان حنين بن اسحق النصراني واحدا من أشهر المترجمين (٨٠٩ ـ ٨٧٧ م) قام بترجمة كتب جالينوس الستة عشر ومؤلفات اخرى كثيرة ، وكان الخلفاء يبعثون العلماء الى مختلف النواحي وحتى الى بيزنطة للبحث عن المخطوطات (١٣٣) .

يقول جرجي زيدان في تاريخ التمدن الاسلامي (١٣٤) : اما الطب فدخل المغرب ثم الاندلس على يد اسحق بن عمران اصله من بغداد ورحل الى المغرب ونقل الطب معه في اوائل القرن الثالث ، على ان اطباء الاندلس ومصر ما زالوا حينا من الدهر يرحلون في اتقان الطب وغيره من العلوم الدخيلة الى بغداد . حتى يهود الاندلس فقد كانوا يستخرجون فقههم من يهود بغداد .

ثم يستطرد ليقول : على أن اكثر العلماء غير المسلمين الذين نبغوا فيها بعد تلك النهضة كانوا يتقاطرون اليها من انحاء جزيرة العراق وغيرها لخدمة الخلفاء .. اما مصر فأكثر اطبائها المشاهير من النصارى واليهود

والسامريين ... ناهيك بعدد عديد من النصارى الذين خدموا الخلفاء والامراء في الطب والفلسفة وغيرها ممن نبغ في الشام .

يلفت نظرنا في هذا الكلام امران يعبران أشد التعبير عما كان يتمتع به أهل الكتاب من حرية فكر تبدو مزدهرة حتى نهاية العصر العباسي الامر الاول يتعلق ببغداد عاصمة العلم والمال في ذلك الزمن وفي أن (أطباء الاندلس ومصر يرحلون في سبيل اتقان الطب وغيره من العلوم الدخيلة الى بغداد) [١٣٥] ثم ما يؤكد من ان (.. اما مصر فأكثر اطبائها المشاهير من النصارى واليهود وان مركز التخصص هو في بغداد العاصمة الاسلامية واكثر المتخصصين من النصارى واليهود) فهل كان بالامكان ان تتكون الظروف الموضوعية والمادية لهذا الامر بعيدا عن حرية الفكر التي استفاد منها هؤلاء اشد الاستفادة في عصر لم يكن ليشهد انفصال المجتمع عن امور الدين في جميع مستوياته وامام جميع نواحي الفكر والحياة فيه ؟ ان البلد الذي أمن لهؤلاء العلماء سبل التخصص لا بد وأنه استطاع ان يتقبل أفكارهم ويناقشها وهي ليست في جميع الاحوال مطابقة لما كان ينشأ في بغداد ، ويتفاعل من حضارة وعلم وادب ودين ، فحرية الفكر كما يبدو كانت السبب .

والأمر الآخر يتعلق باحدى العبارات الواردة في الحديث الذي أشرنا اليه من أنه (حتى يهود الاندلس فقد كانوا يستخرجون فقههم من يهود بغداد) .

وفي هذه العبارة ومنها يظهر ما كان للعلوم الاسلامية وخاصة علم الكلام من تأثير على الفقه اليهودي في الأندلس عندما نقابلها مع غيرها من كلام لمؤرخين يهود .

هذا الفقه ازدهر من جديد بفعل حرية الفكر التي كان يتمتع بها

يهود الاندلس في ظل الحكم الاسلامي • يقول سيمون ديبنوف في كتابه تاريخ اليهود في معرض حديثه عن يهود الاندلس : (لاول مرة يتمكن قسم من الشعب اليهودي من التمتع بحرية الفكر • وفي القرنين الحادي عشر والثاني عشر بلغ تطور الفكر اليهودي في القرون الوسطى قمة النجاح) •

ويقول نسيم رجوان رئيس تحرير جريدة اليوم الاسرائيلية : في هذا المناخ الصالح ، الذي ليس له سابقة في التاريخ ، استطاع يهود اسبانيا ان يتفهموا ويديروا العديد من المشاريع واستطاعوا بشكل خاص ان يحددوا ويفسروا الدين اليهودي بوضوح وقوة لم يعرفا عبر تاريخ الشعب اليهودي •• طريقة الشرح وأشكاله كانت تعتمد الى حد كبير على الاستعارة من التيولوجيا والفلسفة الدينية الاسلاميتين)(١٣٦) •

من هذا الكلام للكاتب اليهودي المعروف تبدو ملامح تلك الحرية الفكرية التي ربما لم يكن لها مثيل في تاريخ العالم القديم ، وتبدو نتائجها الحضارية في هذا التفاعل الذي ظهر أثره في الفكر اليهودي المعاصر له في كل ما كتب المفكرون اليهود في ذلك الحين • وان يزدهر التأليف في حقل شرح مبادىء اليهودية تحت ظل الحكم الاسلامي ، هذا الامر يؤلف بحد ذاته تحديا غير مسبوق في مجال حرية الفكر لدى اهل الكتاب ويغني عن كثير شرح وكثير توضيح •

العلماء اليهود اذن لم يكونوا مقيدين فيما ينصرفون اليه من مواضيع ولا يفرض عليهم ا نتتصل هذه المواضيع بالاسلام من قريب او بعيد ولا ينكر عليهم ان تتصل بأفكار وتعاليم لا يكون انتشارها لصالح هذا الدين بل ربما كان يسير في الاتجاه المعاكس• أليس ذلك حتما شأن كتب الفقه والشرح لاصول الدين اليهودي باللغة العربية ، وبعد ذلك هل يمكن

ان تتصور أثر هذه الكتب عندما تصدر وباللغة العربية في ما يدور حولها من تعليقات وأخبار في مجتمع تمتزج حياته اليومية بالدين في جميع مسالكها ، ويكثر فيه عدد أفراد الطبقة المثقفة باستمرار وبنسب عالية جدا في ذلك العصر ؟

المهم ان هذا المجتمع كان يستوعب ويستقبل هذه الكتب وهذه المواضيع ، ولولا أنها كانت تصادف قبولا لكان مصيرها الاحراق ومصير كتابها النفي أو التشريد او الاعتداء على الاقل ، كما حدث لبعض فلاسفة المغرب المسلمين ، والتاريخ الاسلامي في الاندلس لا يشير الى ذلك من قريب أو بعيد وما كتبه عنه المؤرخون الاجانب لا يشير الى ذلك ، وما كتبه اليهود القدماء والمعاصرون يشير الى حرية تتعدى كل حدود عندما يتعلق الامر بالفكر والحضارة في ذلك الزمن، ويشير الى اثر هذه الحرية في تدعيم وارساء قواعد الفقه اليهودي ، ويشير فوق ذلك كله الى ان المنطقة الاسلامية كانت بالنسبة لهم الثغرة الوحيدة المفتوحة والأمل البارق الوحيد في ذلك المحيط من الظلم والقمع والاضطهاد الذي كانته اوروبا كل اوروبا لهم ولادبهم ولتعاليم دينهم ، تمارس عليهم فيها كل اصناف القتل والعذاب والاستئصال . ومن هذا المنطلق يقول المؤرخ اليهودي المعاصر نسيم جوان : تمخض اللقاء بين العرب واليهود في القرون الوسطى عن نتاج حضاري هام ومثمر . كان اليهود قد عانوا خلال قرون من الشقاء والبؤس حيث كان الملوك الاسبان القساة الغلاظ بعيدين عن الشفقة والرحمة . وعندما دخل المسلمون اسبانيا ، لم يكتفوا بتحرير اليهود من الاضطهاد ، ولكنهم ، كما يقول الدكتور ازيدو أبستاين ، شجعوا بينهم نشر حضارة كانت توازي بخصبها وعمقها أشهر الحضارات في مختلف العصور (١٣٧) .

واذا كان لا بد للباحث المنصف ان يتحدث عن الاخطاء حديثه عن الحسنات فان اسبابها ونتائجها هي التي تشغل فكر المؤرخ وباله لان نسبتها الى غير ما يحركها من دوافع ويسببها من نزعات هو بحد ذاته تزوير اخطر من تزوير الوقائع ومجريات الامور ، فهل كان في تاريخ الحرية والعدالة والمساواة في المجتمع الاسلامي القديم ثغرات يمكن نسبتها الى الاسلام كدين والى حقائقه ومبادئه كمؤثرات في تكوين هذه الثغرات، ام انها تنتسب الى عواطف ونزوات بشرية يمكن ان تظهر في كل مجتمع وتصطدم بأي نظام أو دين ؟ .

حرية التنقل

لم يعرف أهل الكتاب أي ضيق في تنقلهم من بلد الى بلد ، وفي تصرفهم بامور سكنهم ولم يصدر عن الحكام المسلمين أية اجراءات محددة في هذا السبيل ، فاحياء الغيتو التي عرفتها المدن الاوروبية في القرون الوسطى وحجز الحرية الكامل او الجزئي كلها امور لم يعان منها أهل الكتاب في البلدان الاسلامية جمعاء .

يقول برنارد لويس (١٣٨) المؤرخ الغربي المعاصر :

وبخلاف يهود وهراطقة اوروبا فان اليهود والنصارى نادرا ما عانوا من النفي أو الاستشهاد بسبب عقائدهم في الاسلام . لم يكونوا معزولين ضمن حدود الغيتو سواء الجغرافي او المهني . لم تكن أية مهنة محرمة عليهم ، ولم يمنعوا من ارتياد أية مساحة جغرافية باستثناء بعض الاماكن المقدسة في العربية السعودية ، والعنف كان نادرا وغير مألوف .

وس. ج. جوتيابن يورد في كلامه عن محتويات جنيزة القاهرة : ان القدر الهائل من حرية الحركة الذي تمتع به الشعب الذي عكست لنا صورته جنيزة القاهرة (١٣٩) كان من المستحيل ان يتحقق ما لم يكن لهذا الشعب (اليهودي) وضع قانوني وما لم يسمح بذلك مناخ السياسة العامة في الولايات المعنية . وان صحت آلاف قطع الاوراق المحفوظة في الجنيزة وكذلك خطابات الاعمال والخطابات العائلية الكاملة فانها تأتي كأول

شهادة عن حرية الحركة وأكثرها بلاغة ، ونجد في هذه الوثائق اشخاصا يشيرون الى سفرهم الى بالرمو ، او جنوه ، او مرسيليا ، او الــى أي مكان في اسبانيا وشمال افريقيا ومصر او الساحل السوري او حتى الى أماكن يونانية بيزنطية مثل سالونيك او يكتبون خطابات بالعربية مــن سلوقية في آسيا الصغرى الى القاهرة مشيرين الى رحلتهم عبر يافـــا ورودس والقسطنطينية دون الاشارة اطلاقا الى اية صعوبات تعترضهم بسبب أية قيود سياسية ويستطيع التجار أن يتحركوا بكل حرية كل صيف بين مصر الفاطمية الشيعية وبين دولة بخازيري السنية في تونس حتى في الوقت الذي كان فيه الخلاف قائمـــا بيـــن الدولتين ، او يسافرون علـــى الطـــريق المباشر بين الاسكندريـــة وصـــقلية او المرية في اسبانيا • ومن المحقق ان كل شخص كان لا بد ان يحمل (براءة) ولم تكـــن هذه البراءة جواز سفر ، ولكنها كانت شهادة تثبت بأنه دفع ما عليه من ضرائب وبدون هذه البراءة لا يستطيع المرء ان يسافر على الاطلاق حتى داخـــــل مصر • ونقرأ كثيرا في اوراق الجنيزة ان اشخاصا حملـــــوا هذه الشهـــادات او نسوها في بيوتهم ، فقد كتب تاجر بعد وصوله الى القاهرة من الاسكندرية « أرجوك ان تبحث في جيب ردائي العنابي فانك سوف تجد براءتي هناك وأرجو ان ترسلها في الحال لانني تعهدت باحضارها فورا » او نسمع عن اشخاص يستقلون صندلا في نهر النيل اثناء سفرهم من قرية الى اخـــرى دون حمل وصول الجعلية •

ونقرأ انه حين تخلف الشاعر الاسباني اليهودي جوده ليبقـــى لمـــدة في القاهرة وهو في طريقه للحج الى الاراضي المقدسة قام صديقه ووكيله في الاسكندرية بعمل ترتيبات مع السلطات من اجل الحصول على شهـــادة براءة له • على ان تدابير الاحتياط التي أخذت بها السلطات الحكوميـــة لا يمكن ان تعبر عن نقض لحرية الحركة ولكننا نلاحظ فقط فـــي الأوقات

المتأخرة ، تحت حكم صلاح الدين ، نجد في خطاب مرسل من الاسكندرية الى عدن ، رجلا يعبر عن خشيته ان لا يسمح له ناظر الميناء بالسفر لشكه فيه بسبب وصوله على مركب فرنجي • ومما هو معروف ان الرحالة المسلم الاندلسي الشهير ابن جبير سافر حوالي العام ١١٨٣ م من عكا الى صقلية ومن صقلية الى الاندلس على سفن مسيحية ، ووجد في الجنيزة أنه من العادي تماما ان يسافر يهود الاقطار الاسلامية على مراكب يمتلكها مواطنون من بلاد غير اسلامية مثل النورمانديين والبيزنطيين والجنويين او البيزيين • وكتب رجل في الاندلس الى زوجته في القاهرة يقول : « اني اعتزم المجيء على الجيتاني وهي سفينة يملكها تاجر من جيتا في ايطاليا » تماما كما نقول اليوم : سوف أسافر على سفينة فرنسية •

عمليا كانت حرية الحركة قد تعرضت للاضطراب بسبب القرصنة والقتال ، وهناك اشارات كثيرة الى الامرين في اوراق الجنيزة • وان اكثر الامور اثارة للدهشة هي ملاحظات الاهالي العرضية عن السفر الى اقطار بعيدة ومن الامثلة القليلة على ذلك مذكرة عجولة ارسلها تاجر من الاسكندرية الى القاهرة يصرح فيها بقوله : « لقد انتهيت توا من اخذ حمامي » الى ان يقول : « لقد وصلت توا من المرية في اسبانيا ، لقد ارسل لي شريكك من فاس بالمغرب ترباسا ذهبا لأشتري به ذهبا لك • واني اعتقد بأن هذه الفكرة ليست طيبة واني مرسل لك الذهب كما هو ومن ناحية اخرى فان صديقا لشريكك هناك سلمني كذا وكذا كمية من العنبر أرسلها مع حامله وأطلب منك ان ترسل لي خمسة قوارير مسك تعادل ثمن العنبر • أرجو ان تبيع العنبر مع وصول هذا الخطاب واشتر المسك لأني أريد ارساله في الحال » •

ولا بد من الالتفات للخطاب المعبر الذي كتبه سليمان بن جودة الجاؤن ورئيس أكاديمية اليهود في القدس حتى وفاته سنة ١٠٥١م :

« حامل هذا الخطاب يهودي من خراسان أوصاني به كثيرا اصدقائي في اشبيلية وهو الآن مسافر الى القاهرة أرجو ان توليه اهتمامك » ونحن لا نعرف كيف جاء هذا اليهودي من شمال ايران الى اسبانيا ويبدو انه عاد الى القدس عن الطريق الشمالي ، طريق صقلية وطبرية او عكا ، وكان الجاءون بحكم كونه الزعيم الروحي لليهود الغربيين ، ووفقا لنظام الحج الى القدس ، يقيم اتصالات شخصية مع اهالي عموم عالم البحر المتوسط ومع ذلك فان الطريق القصير الذي سافر فيه الخراساني المذكور هنا بكثرة يبين المدى الذي اصبح عليه العالم في ذلك الوقت (١٤٠) .

مهما قال المؤرخون في تفسير حرية الحركة هذه وتبيان اسباب يستمدونها من التفسيرات المعاصرة المختلفة للتاريخ بما تستند اليه من عناصر تتباين في قربها وبعدها من الحقيقة ، يبقى انه لم يكن من اليسير لكل هذه العناصر ان تتفاعل وتؤدي الى نتائجها بدون تلك المبادىء التي بسطها الاسلام في نظم الحكم المتتالية وكانت المادة التي تألفت منها او بظلها ونمت كل تلك النتائج سواء سميت حتميات او عوامل تطور او تفاعل فبدونها وبدون الحريات التي حمت لم يكن لمسار التاريخ ان يبقى ضمن خطوطه الحضارية العريضة ولكان التحوير والتحويل أصاب كل تلك المنجزات التي ساهم في صنعها أهل الكتاب مع اخوانهم المسلمين بفضل ذلك الوضع القانوني والاجتماعي الذي منحهم حرية القول والعمل والتنقل في مساواة تامة مع سائر المواطنين مما جعل وحدة المنطقة الحضارية والاجتماعية جزءا من تاريخ التطور في العالم ومرحلة كبرى من مراحله .

يقول المستشرق جوثياين : « لم تتمزق وحدة البحر المتوسط الا حين اجتاح الغزاة الافكار الاسلامية ، وهم الذين جاء معظمهم من وسط آسيا والقوقاز والذين لم تكن لهم أية تقاليد حضارية » .

واذا كان اكثر كتبة خطابات الجنيزة من اليهود فان قيمة هذه المعلومات التي استقيت في معظمها من جنيزة القاهرة في الحكم على أوضاع اهل الكتاب في تلك العصور ، تبدو ذات اهمية كبرى من الوجهة التاريخية بالنسبة لما تمتعوا به من حريات ومستويات .

يذكر المستشرق الشهير يهودا : (توفي عام ١٩٥١م في نيوهافن) في مجموعة مقالات : ان جده اثناء هجرته من بغداد الى القدس سنة ١٨٥٢ اشترط على القافلة التي ارتحل معها ان تتوقف عن المسير كل يوم سبت الامر الذي كلفه مبلغا اضافيا من المال ، وفي هذه الواقعة تعبير عن الامتداد الزمني الطويل لمدى تمتع اهل الكتاب بأوضاعهم تلك خصوصا لجهة حرية التنقل والعقيدة والفكر والعمل .

وهنا لا بد من الاشارة الى ان حالة الاسترقاق كانت أهم ما يعيق ويقيد ويلغي في أكثر الأحيان حرية التنقل لدى الافراد فاذا علمنا ان استرقاق المسلمين وأهل الذمة من رعايا الدولة الاسلامية لم يكن جائزا ولا مسموحا به تبين لنا المدى الكبير الذي كان يحكم المساواة بينهم وبين المسلمين والحريات التي كانت تمنح لهم في جميع المجالات بعد ان تؤمن لها الحماية القانونية الكافية .

يشير المقدسي الى ان أثمان الخدم البيض ارتفعت ارتفاعا خاصا حين خربت الثغور الغربية ، وانقطع عبيد الاندلس في القرن الرابع وكاد ينضب المصدر الوحيد الباقي للرقيق وهو بيزنطية وأرمينية . ومما زاد في ذلك ان اهل المملكة الاسلامية من المسلمين وأهل الذمة لم يكن يجوز ان يسترقوا بوجه من الوجوه القانونية ولم يكن الاجرام سببا يكفي لحرمانهم من حريتهم كما هي الحال عند غير المسلمين (١٤١) .

استرقاق اهل الكتاب اذن كان محرما في الدولة الاسلامية اسوة

بتحريم استرقاق المسلمين وهذا المنطلق القانوني اذا أضيف الى ما يتمتع به الفرد من اهل الكتاب يؤكد مناعة الاوضاع القانونية لاهل الكتاب ضد كل ما يسبب تردي هذه الاوضاع وانهيار مسلسل الحريات التي يتمتعون بها وأهمها حرية التنقل لان اخطر ما يهدد هذه الحرية في ذلك الزمن هو تحول الفرد الى رقيق بسبب توفر شروط متعددة يكون كل منها كافيا لاحداث التحول وأهم هذه الشروط بعض انواع الاجرام .

والحالة الوحيدة التي خالفت منطق الشرع هذا تمت في مصر في القرن الثالث الهجري حيث حدثت فتنة في مصر فقبض على بعض النصارى وبيعوا في دمشق كما يباع الرقيق ، ويجمع المؤرخون ان ذلك قد أثار (أكبر السخط لأنه يخالف الشريعة) (١٤٢) .

وعلى حين ان القوانين في الدولة الرومانية البيزنطية كانت تحرم على غير النصراني ان يتخذ رقيقا من النصارى وان الكنيسة المسيحية كانت في بلاد الاسلام تعاقب بالحرمان من يبيع الرقيق النصراني لغير النصارى ، فان الشريعة الاسلامية لم تحرم على اليهود والنصارى اتخاذ رقيق من المسلمين (١٤٣) من غير رعايا الدولة بالطبع فالكتابي متساو مع المسلم في جميع الحقوق والواجبات المدنية وبالاضافة الى حريته في التنقل يمنحه المجتمع حق حجز حرية تنقل الرقيق المسلم الذي يحق له ان يتملكه!

فاذا رأينا انه رغم الاتجاه الاسلامي نحو الحض على تحرير الرقيق باقامة المبادىء التي تجعل من عتق الرفيق أعظم عمل يؤدي لأعظم الاجر عند الله ، وبالرغم من كثرة موانع الاسترقاق حتى شمل ذلك كما بينا جميع المواطنين في الدولة الاسلامية سواء في ذلك اهل الذمة او المسلمون والحض على الكثير من الاجراءات والاعمال التي تؤدي الى الغائه ، واذا كانت الشريعة الاسلامية رغم هذا كله قد سمحت لليهود والنصارى باتخاذ

رقيق من المسلمين فان ذلك يبدو معبرا في مجال المساواة المدنية التي كان يتمتع بها أهل الكتاب في الديار الاسلامية .

هذا الوضع كان طبيعيا في مجتمع طغى تسامحه فحطم كل انواع التعصب وطرح جميع اتجاهات الفكر للنقاش الهادىء الرصين خصوصا مع أهل الكتاب . واذا كان الظلم المعنوي بجميع اشكاله لم يمارس عليهم كما بينا فان الظلم المادي ، وحجز حرية التنقل احد اهم وجوهه لم يمارس عليهم ايضا ، ولم يعرف طريقه اليهم في جميع العصور وخاصة في العصور الاولى للاسلام . لان التباغض والتعصب كانا بعيدين عن ذلك المجتمع بسبب المناعة التي اكتسبها والحرية التي مارسها ، واذا كان رجلا كالشريف الرضى يرثي أبا اسحق الصابي بقصيدته التي مطلعها :

أرأيت من حملوا على الاعواد   أرأيت كيف خبا ضياء النادي

واذا كان الحكم صاحب الاندلس في اوائل القرن الثالث للهجرة صلب احد عماله لأنه ظلم ابناء اهل الذمة (١٤٤) ، فان ما يمكن ان تعبر عنه هذه الوقائع ليس أقرب منه الى منع الظلم عنهم والمحافظة على حرياتهم المادية والمعنوية خصوصا لجهة حرية التنقل والسكن والعمل ، وكانت هذه الحريات قد تعرضت في بعض العهود لمضايقات واعتداءات تتوافق في مدها وجزرها مع نزوات بعض الحكام والمتنفذين الذين مكنهم البعد عن الشورى ، فعن الاسلام ايضا لان الشورى احداهم اركانه ، من الوصول الى سدة الحكم مع ما يحملون في نفوسهم من قوة وضعف ، وايمان او فسق ، وشهوة ونفاق ، ولم يسلم من ظلمهم المسلمون حتى يسلم غيرهم فقد عانوا جميعا في فترات تطول او تقصر وعانت بعض طوائفهم أشكالا مختلفة من الظلم والقهر ، بعضها ترافق مع ما عانى أهل الكتاب كلهم احيانا وبعضهم احيانا اخرى وبعضها الآخر لم يترافق مع كل ذلك

لأنه اختص بالمسلمين ولم يبق مذهب او طائفة من سنة وشيعة وخوارج ومعتزلة وغيرها الا ونال نصيبه من حكم فاسق او استبداد طاغية وفي كل ذلك ومن كل ذلك لم ينتق المستشرقون والمؤرخون الاجانب الا ما اصاب غير المسلمين من صنوف هذا الظلم .

في التاريخ الاسلامي فترات ضرب فيها الشيعة او السنة وهي ان لم تتم في عصر واحد ففي عصور مختلفة ووفقا لاهواء من كان يستولي على الحكم ونزعاته وقسوة طباعه وشدة طمعه وتعصبه وكل ذلك لم يكن من الاسلام في شيء ولا كان من النظام الاسلامي في شيء ولكنه كان قدرا يصلب المبادىء ويبتعد عن الكتاب والسنة ويترافق او يدفع بالدولة دفعا نحو عصور الانحطاط والظلام والتفتت .

هذه هي حكاية اهل الكتاب مع المجتمع الاسلامي الذي احتضنهم منذ نشأته ومنحهم من عطفه ورعايته واحترام عهوده ما لم يمنحه أي دين لأية عقائد مخالفة له او هي بالأحرى لا تعترف به ولا تقر مبادئه وكتبه .

في العهد العثماني

عـام ١٤٥٣ كانت الثغرة التي فتحها المسلمون في جـدار الحضارة الغربية مـوازية للثغرة التي تمكنت تلـك الحضارة من سدها بعد فترة يسيرة من الزمن في الاندلس فـي الوقت الذي كان الاسلام ينحسر عن الربوع الاندلسية وتؤذن شمسه بالمغيب بعد ان اقام في تلك الربـوع حضارة انبتت جذور النهضة الغربية التي انطلقت فيما بعد لتعم العـالم بكامله . وكان مقدرا لهذه الحضارة ان تواجه في تراجعها عـن الاندلس هجـوما يعتمد على كـل ما يخالف المبادىء التي تعاملت بواسطتـها مع الشعوب الاخرى ، من قضاء على حرية المعتقد ، الى تعسف وبغي يخنق حريات الآخرين بالطرد حينا وبالموت دائمـا .

ومن سخرية التاريخ كما يقول الفرنسيون ، ان يعمل مسيحيو اسبانيا وبقاؤهم كان ثمرة التسامح الاسلامي ، السيف في رقاب من تبقى مـن المسلمين الذين رفضوا الارتداد عن عقيدتهم ليمحوا كل اثر لتلك الحضارة التي حملت معها بذور التسامح والايمان بالحرية في جميع ميادينها خلال عدة قـرون من الزمن ؟.

كان نصارى اسبانيا في كل ذلك ينطلقون من غير قـواعد المسيحية كمذهب ومبادىء بطبيعة الحال ولكنهم كانوا يعبرون في استجابتـهم للتحدي عن طبيعة شرسة لا تستقيم مع ما واجهوا عبر كل تلـك القـرون

التي سيطر فيها المسلمون من تعامل خلقي وعطاء روحي • انـه العنـف الذي ينطق عن الهـوى في نفوس لم تصقلها تجـارب الحضارة ولا غذتها معطيات التاريخ •

وفي نفس الفترة من الزمن او قبلها بقليل وحين كانـت بـوادرها قد أطلت على البقية الباقية من عرب الاندلس كان السلطان العثماني محمد الفاتـح يحاصر القسطنطينية في اوائل ابريل ١٤٥٣ من جهة البر بجيش يبلغ مائتين وخمسين الف جندي ومن جهة البحر بعمارة مؤلفـة من مائة وثمانين سفينة وأقام حول المدينة اربـع عشرة بطارية (طوبجية) مدفعية وضع فيها مدافع جسيمة صنعها صانع مجري شهير اسمه (أوربان) كانت تقذف كرات من الحجر زنة كل واحدة منها اثنا عشر قنطارا الـى مسافـة ميـل • اثنـاء الحصار اكتشف قـبر ابي ايـوب الانصاري الـذي استشهد حين حصار القسطنطينية سنة ٥٢ هـ وبعد الفتح بني لـه مسجد جامع وجرت العادة بعد ذلك ان كل سلطان يتولى يتقـلد سيف عثمـان الغازي الأول بهذا المسجد • وهذا الاحتفال بمثابة التتويج •

ولما شاهد قسطنطين آخر ملوك الروم هذه الاستعدادات استنجـد بأوروبا فلبى طلبـه أهالي جنوى وأرسلوا له عمارة بحرية تحـت أمـرة جوستنياني فأراد الدخول بمراكبه الى ميناء القسطنطينية فعارضته السفن العثمانية وانتشرت بينهما حرب هائلة في يوم ١١ ربيع الثاني سنة ٨٥٧ هـ (٢ نيسان سنة ١٤٥٣م) انتهت بفـوز جوستنياني ودخوله الميناء بعد ان رفع المحصورون السلاسل الحديدية التي وضعت لمنـع المراكب العثمانية من الوصول اليها ثم أعيدت كما كانت ، وبعدها أخذ السلطان يفكـر بطريقة لدخول مراكبه الى الميناء لاتمام الحصار برا وبحرا ، فخطر ببالـه فكر غريب في بابه وهو أن ينقل المراكب على البر ليجتازوا السـلاسـل الموضوعة لمنعـه وتم هذا الامر المستغرب بأن مهد طريقا علـى البـر

اختلف في طوله والمرجح انه فرسخان أي ستة أميال ورصت فوقه ألواح من الخشب صبت عليها كمية من الزيت والدهن لسهولة زلق المراكب عليها وبهذه الكيفية أمكن نقل السبعين سفينة في ليلة واحدة حتى اذا اصبح النهار ورآها المحاصرون أيقنوا ان لا مناص لهم من انتصار العثمانيين عليهم ، لكنهم ازدادوا اقداما وصمموا على الدفاع حتى الموت •

وفي يوم ٢٤ مايو سنة ١٤٥٣م ١٥ جماد أول سنة ٨٥٧ هجرية أرسل السلطان محمد الى قسطنطين يخبره انه لو سلم البلد اليه طوعا يتعهد بعدم مس حرية الاهالي او املاكهم وان يعطيه جزيرة مورة ، فلم يقبل قسطنطين بل آثر الموت على تسليم المدينة • وعند ذلك نبه السلطان بالاستعداد للهجوم في يوم ٢٠ جمادى الاولى سنة ٨٥٧ هـ (٢٩ مايو ١٤٥٣م) ووعد الجيوش بمكافأتهم عند تمام النصر وباقطاعهم أراضي كثيرة •

وفي الليلة السابقة لليوم المحدد اشعل الجنود العثمانيون الأنوار امام خيامهم للاحتفال بالنصر المحقق لديهم وظلوا طول ليلهم يهللون ويكبرون حتى اذا لاح الفجر صدرت اليهم الأوامر بالهجوم فهجم مائة وخمسون الف جندي وتسلقوا الاسوار حتى دخلوا المدينة من كل فج وأعملوا السيف فيمن عارضهم ودخلوا كنيسة القديسة صوفيا حيث كان يصلي فيها البطريرك وحوله عدد عظيم من الأهالي • ويعتقد الروم حتى الآن ان حائط الكنيسة انشق ودخل فيه البطريرك والصور المقدسة وفي اعتقادهم ان الحائط ينشق ثانية يوم يخرج الاتراك من القسطنطينية ويخرج البطريرك منها ويتم صلاته التي قطعها عند دخول العثمانيين عليه عند الفتح وسميت المدينة اسلامبول أي تخت الاسلام أو مدينة الاسلام (١٤٥) • أما قسطنطين فقد حارب حتى مات في الدفاع عن وطنه •

وبعد ذلك انفتحت ابواب اوروبا الشرقية على مصراعيها أمـــام العثمانيين • وبدأت فصول جديدة من عهد اسلامي جـديد في أوروبا • فمـا هو الـدور الذي حملته من جـديد بـذور الحضارة الاسلامية في أوروبا ؟ وهل كان في معطياته مشابها لمـا حصل في الاندلس ؟ أم انـه اختلف باختلاف حملة الحضارة الجدد ومستقبليها الجدد أيضا ؟•

قبل البدء في تفحص المعطيات الحضارية الاسلامية في هذه العصور والدور التاريخي الذي لعبته من جديد على أيدي العثمانيين لا بـد من الاستماع لهذا الكلام لعبد الرحمن عزام باشا (١٤٦) أمين سر جامعة الدول العربية : « لما وصل العثمانيون الى شرق اوروبا وكلها سجون أبدية يتوالد فيها الفلاحون للعبودية ، فكسروا أغلال السجون وأقامـوا مقامها صرح الحرية الفردية ، فهم الذين قضوا على نظام الاقطاع والارستقراطية ليحـل محله نظام المواطن الحر والرعية متساوية الحقوق ، فوصـل فـي دولتهم الرقيق التركي والصقلي وغيره الى أكبر مقـام في الدولـة كما وصل النابـه من عامة الناس ، حتى مجهول الأصل الى مقام الصدارة العظمـى والقيادة العليا ، وتعلمت اوروبا الشرقية على يد محرريها سيادة القـانون على الاحساب والانساب والطوائف والنحل • فترتب على ذلك تطـور هائل في اتجاه الحرية والديمقراطية الغربية الحديثة •

كانت القرون الاولى لسيطرة آل عثمان عصورا ذهبية شمـل فيـها الناس الأمن والرخاء والسلام الروحي ، ولم يكن فوز آل عثمان مستمدا، كما يظن بعض الناس من السيف والشجاعة ، بل كان مما هو اعظم مـن السيف ومن الشجاعة ، وهـو احترام الحـق والوفاء بالعهد والخضوع لسلطان القانون والشرع •

ولو كان الأمر كما تصوره الذين ينخدعون بآثار دور الانحطـاط من استخـدام الطوائف والغيرة بيـن العناصر والبطش لتغطيـة الضعف

لاستحال ان يدوم ملــك آل عثمان ستمائة سنة منها مئتا سنة لا يسندهم فيها الا سيف مبتور .

لقد رويت ا يفي رحلاتي بالبلقان وملدافيا أمثلة باقية في لغـــة العامة من عدل آل عثمان بين بيوت الملك الذي طال أمده وتنوعت رعاياه وقد ثقلت كفته بالخير والرحمة والمروءة والشرف » .

في هذا الكلام تبرز عدة حقائق لا يمكن انكارها فاحترام الحـــق والوفاء بالعهد وسيادة القانون والشرع كل ذلك كان يؤلف القاعدة الثمينة للحكم العثماني في مطلع انطلاقه ، ومنذ فتوحات اورخان الاول لمدن الروم بدأت اطلالة هذه المبادىء في توافق تام مع معطيات الشريعـة الاسلامية وألفت الاطار الجيد للحكم الجديد ، فقد قام اورخان بفتح ما بقــي من بلاد آسيا الصغرى وكان آخرها مدينة أزنيك التي حاصرها مــدة سنتين (ومما جذب اليــه قلوب الأهالي ان عاملهم باللين والرفق ولم يعارضهم في اقامة شعائر دينهم وأذن لمن اراد المهاجرة بأخذ كافة منقولاته وبيـع عقاراتــه مع تمام الحرية في اجراءاته وأسس في هذه المدينة عدة مدارس للفقراء والمعوزين) (١٤٧) .

هكذا بدأ العثمانيون تعاملهم مع أهل الكتاب عبر مقتضيات حـرية الفكر والعقيدة والمساواة واذا كانت هذه الوجوه من التعامل والعلاقـات قد خضعت لتغيرات واختلافات تميزها ربما عن تلك التي نشأت في جنوب اوروبا في الاندلس وسائر المناطق فسبب ذلك يعود على الارجح لاختلاف الظروف التاريخية والفكرية والاجتماعية والاقليمية . لقـد واجهـت موجة التسامح الاسلامي فــي اوروبا الشرقية مطلع عصـور النهضة فــي اوروبا الوسطى التي تفاعلت مع حضارة استمر عطاؤها لقرون عديدة في اسبانيا ومع ظروف اقتصادية واجتماعية دفعت بها في دروب نهضة فكرية ومـادية كبـرى .

وكان ذلك سببا في خلق موجة من اعتداد الأوروبيين بقوتهم وكل ما يشدهم الى حضارتهم من دين وفكر وتراث ، فتعاملوا مع المسلمين الاتراك كمظهر من مظاهر التحدي • ادى الى كل ذلك قوة اوروبية كانت تتعاظم باستمرار نتيجة الاكتشافات العلمية في فروع التقنية والفلسفة والقانون وغيرها ، وكان تعاظم القوى الاوروبيه ينعكس على علاقات الدولة العثمانية بهم وبرعاياها من غير المسلمين •

وقد بدا هؤلاء مادة دسمة لجميع انواع المساومة والابتزاز تعبر عنها كل تلك المعاهدات التي اضطرت الدولة العثمانية لعقدها مع دول اوروبا حافلة بالبنود التي تحدد حقوق رعايا تلك الدول ورعايا الدولة العثمانية من غير المسلمين •

واضطر العثمانيون على مر العصور والمعاهدات للتخلي عن كثير من سبل السيادة والتقوقع ضمن اوضاع قانونية تفرض اوضاعا اجتماعية واقتصادية معينة تؤلف عائقا في سبيل تقدمهم المادي والفكري • فنشأ عن ذلك عجز تراكم على مر السنين ، وادى في كثير من الاحيان الى عجز آخر أشد خطرا على سلامة الدولة كان يظهر في ثورات تشمل بعض البلدان والمقاطعات ولا تستطيع الدولة العثمانية الوقوف بوجهها بسبب ضعفها وسوء ادارتها •

وفي ظل هذه الظروف كانت أوضاع اهل الكتاب عبر كل تلك العصور تتساوى مع اوضاع جميع المسلمين ثم تزيد عنها بعد ذلك باستمرار من جراء تعاظم التدخل الاجنبي في شؤون الدولة العثمانية • يوم دخول جيوش السلطان العثماني محمد الفاتح الى القسطنطينية ضمن لسكانها المسيحيين حرية المعتقد وحفظ املاكهم وجمع أئمة دينهم ليختاروا بطريقا فاختاروا جورج سكولاريوس وتم الاحتفال بتثبيته بنفس الفخامة والنظام الذي كان يقام للبطاركة في ايام ملوك الروم المسيحيين وأعطاه

حرسا من عساكر الانكشارية ومنحه حق الحكم في القضايا المدنية والجنائية بكافة انواعها المختصة بالأروام [١٤٨] ومنذ ذلك التاريخ بدأت ملامح الوضع القانوني لأهل الكتاب تتوضح في توافقها مع مبادىء الاسلام التي حددت هذا الوضع في العصور السابقة .

ولكن هذه الملامح تأثرت في مدها وجزرها بالظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية العالمية التي كانت تتغير باستمرار فيؤدي ذلك الى تأثر تلك الهيكلية القانونية بالتغييرات والظروف الجديدة . فعالم المواجهة الحضارية في اوروبا كان يختلف أشد الاختلاف عما كان عليه في العصور السابقة ، واستراتيجية الاسلام الحضارية اختلفت باختلاف القيادة والشعوب والقوى المسيطرة من حيث الغاية والاسلوب ، وطريقة التعاطي مع الفكر القديم والجديد ومع الحضارات الأخرى فقدت الكثير من حرارة المد القديم بالتوجه نحو التطور العسكري فحسب عبر محاولة اقتباس اساليب الدول الاوروبية المتقدمة في هذا المجال دون غيره .

ولما كان التطور الحضاري في وجهيه المادي والمعنوي لا يتم في مجتمع ما بالتعاطي مع ناحية واحدة من نواحي النشاط الفكري أو الاجتماعي او السياسي او العسكري بعيدا عن سائر نشاطات المجتمع كوحدة لا تقبل الانفصال ، وبقدر ما كان التقدم العسكري بحاجة الى ارساء قواعد فكرية واجتماعية وسياسية معادلة ، كانت الاقتباسات العسكرية والتقنية المحدودة تبدو جسما بلا روح ، سرعان ما ينهار تحت وطأة حروب وتدخلات الدول الاوروبية ذات الانظمة والمستويات العسكرية المنبثقة بصورة طبيعية عن درجة تطور مجتمعاتها المتكاملة في جميع الاتجاهات .

كانت الاقتباسات العسكرية العثمانية تواجه الهزيمة بقدر ما كانت تقترب من النقل والمسخ بعيدا عن طبيعة المجتمع وبعيدا عن طبيعة

التعاطي الواعي المتبادل والتمثل الحر الجريء الذي ينتج الابداع والتجديد بتجاوز العطاء الذي اقتبس عبر هضمه وتحسينه • ان التخلف حالة تشمل جميع نواحي النشاط في المجتمع ولا تزول الا بجهد شامل في جميع هذه النواحي من فكرية وسياسية واجتماعية وأي جهد منفصل يتعاطى مع جهة معينة منها يكون مصيره الفشل •

فهل تتوافق قراءة التاريخ العثماني مع هذا الاتجاه ؟ وهل كان العثمانيون في ما منحوا من حقوق وامتيازات لرعاياهم غير المسلمين وللدول الاوروبية عبر مختلف العصور مدركين لهذه الحقائق أم ان اصلاحاتهم كانت محكومة بمصالح واتجاهات بعيدة أو غير متناسقة مع مصالحهم ومصالح شعوبهم ؟•

من المفيد قبل البدء ببحث تطور اوضاع اهل الكتاب عبر مختلف عصور الحكم العثماني ، وتأثرها بمختلف المعاهدات التي عقدت مع الدول المختلفة ، والتي توجت باعلان القانون الاساسي ، أي الدستور العثماني ، ان نتذكر هذا الكلام الذي قاله الامام محمد عبده ، لمراسل جريدة (الديلي نيوز) في ٨ تموز ١٩٠٨م : « لكم ان تثقوا بأن الدستور ان كان حرا فالاسلام أعظم منه حرية وأوسع ديمقراطية » (١٤٩) واذا كان هذا هو موضع الحرية من الاسلام فان قصة المعاهدات والامتيازات موضوع آخر أبعد اهدافا في تصديه لسيادة الدولة عبر تذرعه بمنح مثل هذه الحرية •

في ١ محرم ٩٢٨ هـ ، ــ ١ كانون الاول ١٥٢١م أمضيت بين الدولة العثمانية وجمهورية البنادقة معاهدة تجارية تؤيد المعاهدات السابقة ولكنها تتمتع بأهمية عظمى لأنها كانت اساس الامتيازات القنصلية في بلاد الدولة العثمانية فقد ورد فيها : (أن وكيل الجمهورية في الاستانة (قنصلها) يجب تغييره كل ثلاث سنوات وان قضايا التركات تنظر بطرفه

وأن يكون له الحق في ارسال ترجمان لحضور المرافعة في القضـــايا التي تقام ضد رعايا حكومتـــه امام المحاكم العثمانية) •

ومنـــذ ذلـــك التاريخ توالت المعاهدات وتوالت الامتيازات ونظرا للظـــروف الصعبة الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تـــواجه الحـــكام العثمانيين في اصطداماتهم العسكرية مع الدول الاخرى اخذوا يستعملون في سبيل استمرار مقاومتهم واستمرار نفوذهم من الوسائل كل مـــا يمكن في نظرهم ان يحقق الغايات العامة احيانا ، والشخصية غالبا ، لذلـــك كان بعض هذه الوسائل يتناقض احيانا مع مبادىء العدالة والمساواة ويتناقض من ثم مع سيرة الانظمة الاسلامية السابقة •

وكان شيء من الجمود الثقافي يغذي هذه التناقضات عندما يؤدي الى ضمور الرؤية وقصر النظر في مسائل التفسير والبعـــد عـــن منهجية المنطق السليم وصحة الاستنتاج العلمي فيستمر الاجتهاد مغلقا محظرا على رجال الفقه والعلمـــاء وتستمر الفتاوى في اعتمادها على ما كتب الاولون وما رووا ، في محاولة لربط حركة المجتمع الى عجلة الفقـــه القديم بـــدل اعمال الفكر في استنباط الحلـــول للمسائل التي تطـــرحها ظروف العصر الجديدة • ومن هذا المنطلق نشأت كثرة من التناقضات المبتعدة عن روح الاسلام في ابتعادها عن الابداع والأصالة وعن ملاحقة تطـــــور المجتمع في حين ينطلق الآخرون في رحاب الزمن في حرية وخفة شديدتين •

كان المجتمع الغربي المـــواجه يسير في دروب التطور فـــي سرعـــة وصلابة تتعدى كل الحدود ، بينما أدت سرعة الاحداث الداخلية وتطورها وازدياد القوى العسكرية المواجهة للعثمانيين شدة وتطورا وقوة ، الـــى انشغال الدولة العثمانية بضرورات الدفاع عـــن النفس التي صارت تبدو صارخة كلما تعدى التطور الحضاري الغربي هدفا من الاهداف الى غيره• وطبيعـــي ان تنصرف الجهود الى تنمية القـــوة العسكرية والتكنولوجيا

الملازمة لها ولكن ذلك كان يتم في القطاع العسكري بمعزل عن سائر قطاعات المجتمع ، فيأتي ناقصا مبتورا تعوزه حرارة الاستعداد والنضج الاجتماعي ، فتعود الجهود بعد كل فشل الى الالتجاء للاساليب السياسية الملتوية حينا ، المفروضة احيانا اخرى والى الظروف السياسية للدول الأخرى في سبيل الابقاء على كيان الدولة واستقلالها •

وفي كل مرة كانت المعاهدات التي توقع تفتح في جسم الدولة العثمانية ثغرات تؤدي الى تدخل يصغر ويكبر باختلاف قوة وضعف الفريق الآخر •

من خلال هذه الوقائع يمكن ان تتبين ملامح الوضع القانوني والعملي لأهل الكتاب ومدى تأثره بظروف الحكم ونظمه •

المعاهدات التي توالت عبر تاريخ العثمانيين هي الأساس الذي بنيت عليه تطورات هذه الاوضاع وتغيراتها • وكان التذرع بحماية غير المسلمين في الدولة العثمانية الامر الذي تلجأ اليه غالبية الدول التي وقعت معاهدات معها ، يخفي وراءه الرغبة في اشباع غايات ومصالح اقتصادية وعسكرية لهذه الدول •

وفي الوقت ذاته أدى توقف الاجتهاد في نهاية العصر العباسي الى سيطرة التقليد والتمسك بكل قديم دون نقد او تغيير في مجتمع مكرور وغير متطور ودون أي تأثر بالتيارات الحضارية الجديدة التي كانت تهب هذه المرة من الغرب ، ودون تفاعل معها وأقصد بها التيارات الفكرية التي انطلقت مع بداية القرن السادس عشر واكتشاف أميركا •

فأين كان المسلمون من كل هذه التيارات ؟ وهل كان للحكم العثماني المسيطر خطوات في هذا الاتجاه ؟ ام انه اقام حاجزا دونه ام حاربه متأثرا بمتاهات الخرافة والشعوذة التي دخلها المسلمون في نهاية العصر العباسي

ومع وصول التتار وغيرهم مما ادى الى انطفاء شعلة العلم والابتكار التي لم يتح لها الغزو الصليبي مجال العودة الى التفاعل من جديد مع المعطيات الجديدة ؟.

لقد استتبع سقوط الدولة الاسلامية هبوط فكري عام ابرز مظاهره اغلاق باب الاجتهاد وقبول كل ما جاء عن المفكرين الاوائل كأمر لا يقبل الجدل ولا تصح مخالفته مهما بلغت مفارقته لحياة الناس وعقولهم وكان انفصال الفكر عن ملاحقة تطور المجتمع ووقف رصد حركته الدائبة من ابرز مظاهر العصر الذي استتبع سقوط الدولة الاسلامية وفي هذه الظروف الفكرية والاجتماعية تسلمت الدولة العثمانية زمام السلطة في المجتمع الاسلامي ، في وقت فقد فيه الفكر الاسلامي بمرور الزمن قدرته على تفسير كثير من الظواهر الاجتماعية التي تلم بحياة الناس ، لانفصاله عن هذه الحياة (لعدة قرون خلت) وعجز بالتالي عن التصدي للقضايا والمشاكل الملحة التي تجابه الناس في صراعهم اليومي من اجل البقاء ، لانصراف مفكريه الى اجترار قضايا العصور الماضية التي تصدى لها الأولون مما شل قدرتهم على مواجهة القضايا الجديدة وايجاد حلول لها لم يكتشفها الأوائل لانهم لم يعيشوها .

كان الخلاص يقتضي اجتهادا جديدا في ضوء تجربة التراث المكتسبة وروحه الحية مما لا قبل به للمقلدين والمجترين من (مزخرفي الورق) الذين عرفهم بكثرة عصر الانحطاط . وكان الناس لا يجدون الحلول الجاهزة لقضاياهم الملحة في كتب الاقدمين ولا في عقول المجترين من سدنة الفكر وكانت النتيجة أن انصرفوا عن ذلك كله فتقلص أثر الحركة الفكرية المتوازنة في حياة الناس المعاشة وعندئذ ظهرت التناقضات ، وانعكس كل ذلك على مختلف قطاعات المجتمع ومختلف مؤسسات الدولة ، وصمدت المؤسسة العسكرية الى حين . ولكن ليس بالامكان

انفصالها عن حركة المجتمع ومؤسساته فكان لا بد لعوامل التأخر تلك ان تلقي بثقلها على كاهل المؤسسة العسكرية بما هي احدى دعائم المجتمع التي تتداخل مقومات وجودها مع سائر اجزائه وقطاعاته الاقتصادية منها والثقافية والاجتماعية .

وعندما شعر أولو الأمر في الدولة العثمانية ببوادر الازمة ، على أثر الصدمات العسكرية ، كان الوقت قد فات لأن السبب لم يكن كامنا كله كما اعتقدوا في المؤسسة العسكرية كواجهة مادية للنظام بقدر ما كان يكمن في جميع مقومات هذا النظام الفكرية والاجتماعية والسياسية ، وهذه تحتاج معالجتها الى استراتيجية تعليمية واجتماعية وثقافية تتناول المجتمع بكامله كما سبق القول وهو اطار جذور السلطة ، وتحتاج الى وقت يسمح بتحقيق التقدم في كل هذه المجالات . ولكن الزمن كان قد فات وأفلت زمامه من ايديهم وكانت الدول الاخرى قد شعرت بكل ذلك وبدأت أزمات التدخل في شؤون الدولة الداخلية تزداد اتصالا وتزداد سوءا وكانت الذريعة الكبرى هي اصلاح شؤون وحال النصارى في الدولة العثمانية .

وعندما تفقد السيادة بعض مقوماتها ويصبح الاستقلال مهشما ، تخضع الاصلاحات الداخلية لعوامل تنطلق من مصالح المتدخلين وغاياتهم وطموحاتهم وكل هذه سوف تتعارض مع مصالح الدولة التي يجري التدخل على حسابها وحساب مصالح مجتمعاتها ، فيتعذر عليها تنفيذ الاستراتيجية المطلوبة للتقدم الاجتماعي الذي يؤدي الى التقدم العسكري . تلك كانت حال الدولة العثمانية والمجتمع الاسلامي الخاضع لنفوذها في ذلك العصر .

وظهرت آثارها المؤلمة في معالجة كثير من المسائل الجديدة بحلول تبتعد عن روح الاسلام في انفتاحه على الحضارات ومساواته بين جميع

البشر في الحقوق والواجبات واعتماده للعدل في كل نواحي الحياة

وخلافا لهذه المبادىء تم التعاطي مع معالم التطور الذي رافقعصور النهضة المختلفة في الخارج • فقد صدر عام ١٨٠٥ م (خط شريف) بجمع كل الشبان لتجنيدهم على النظام الجديد ولم يفت السلطان ان يحصل على موافقة المفتي على ذلك التطوير • لكن الانكشارية رفضوا تنفيذ تلك الأوامر وجاهروا باظهار تمردهم خاصة بعد وفاة المفتي الذي أصدر الفتوى فاستمالوا كثيرا من العلماء وعلى رأسهم المفتي الجديد ، وهؤلاء كانوا يتوجسون خيفة (من اتباع انظمة النصارى) فاتصلوا ببعض المجندين وأفهموهم ان ارتداء الملابس الاوروبية يخالف أحكام الدين وشرعوا في الزحف نحو العاصمة سنة ١٨٠٧ م ، ثم افتى المفتي بعزل السلطان فأذعن وتنحى عن الحكم وولى بدله السلطان مصطفى الرابع (١٥٠) •

وعندما أراد السلطان محمود الثاني اجراء اصلاحاته الشهيرة اضطر تحت ضغط ثورة الانكشارية الى الاذعان لمطالبهم وارجاء تنفيذ التنظيم الجديد • ثم عاد فعقد العزم على اتمام المشروع الذي بدأه السلطان سليم الثالث فجمع القادة والاعيان في بيت المفتي عام ١٨٢٦ م وتلا مكتوبجي الصدر الاعظم مشروعا من ٤٦ مادة ، واصدر المفتي فتواه بصحة العمل بهذا المشروع شرعا ، ولكن ما ان بدأ التنفيذ تحت اشراف بعض الضباط الاوروبيين حتى شاعت بين الانكشارية حركة تدعو الى الثورة على ذلك التنظيم ونجحوا باستمالة كثير من المحافظين باسم الذود عن تقاليد البلاد وتجنب (التشبه بأعداء الدين) !!

ومهما بالغنا في تفسير هذه الحركات وفي توضيح الغايات الكامنة وراءها التي تهدف الى حفظ مصالح المستفيدين من التأخر والفوضى ،

فان مجرد نجاحها يعني وجود قاعدة اجتماعية ليست بالبسيطة تتبنى وجهة النظر هذه وتتعاطى مع مظاهر الخرافة والاشاعة والتقليد الغبي وحالة التأخر التي وصل اليها المجتمع الاسلامي في تلك العصور • خلال هذا الجهل المخيم ولولا ان الحقائق الاسلامية بقيت حية في بعض النفوس لسار المجتمع الاسلامي في طريق مناقض تماما لمبادئه ومثله ربما كان يؤدي به الى الانقراض •

وفي مثال على ذلك نورد ما ذكر ميخائيل شاروبيم في الجزء الرابع من كتابه (الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث) [١٥١] من ان والي مصر عباس باشا الاول ـ حفيد محمد علي ـ طلب من الشيخ ابراهيم البيجوري شيخ الأزهر ، اصدار فتوى بنفي الأقباط الى السودان ، فرفض الشيخ ذلك وذكره برعاية الاسلام لأهل الذمة قائلا له : الحمد لله لم يطرأ على ذمة الاسلام طارىء ولم يستول عليها خلل حتى تغدر بمن هم في ذمته الى اليوم الآخر •

من خلال هذه الوقائع نلمس ما كان لفتاوى رجال الدين من اهمية، ونلمس ان بعضا منها يعبر عن جهل بعض مصدري الفتاوى وعن ابتعادهم احيانا عن مقتضيات الشريعة والعدل • ومن اجل تفهم كل ذلك يمكن الاستماع الى ما يلي :

عندما توفي السلطان مراد الاول وخيف ان يدعي أخوه يعقوب حقه بالملك بعد ان اتفق اركان الدولة على تولية ابنه بايزيد الاول ، ارتكانا الى ما حدث بعد وفاة السلطان عثمان من اتفاق على تولية ابنه بدلا من أخيه ، الذي استصدر فتوى شرعية بقتله منعا من حصول الفتنة ، واستندت الفتوى الى ان (الفتنة أشد من القتل) !!

وقد رأينا انه عندما ولي السلطان عثمان الثاني ١٦١٨م كان من اول

اعماله تقليل اختصاصات المفتي ونزع مـا كان لـه من سلطات في العزل والتعيين حتى يأمن شر دسائسه (١٥٢) •

من هنا فانه عندما عجز الفكر عن احتواء التجارب الجديدة للمجتمع والتعبير عنها تعبيرا يسلكها في الاطار العاطفي والعقلي والنفسـي للأمة بفعل التأخر الذي سببه الجهل واقفال باب الاجتهاد ، اصبح البون شاسعا بين فكر الامة وعملها ، بين الفكر الموروث وحياة الناس المعاشة • ومـن هنا نشأت التناقضات التي تؤكدهـا الوقائع التي تحدثنا عنها، في مخالفتها لروح الاسلام الصحيح ، وكان لا بد لهذه التناقضات التي تسير في عكس الاتجاه الاسلامي من ان تنعكس على علاقات ابناء المجتمع الواحد بعضهم ببعض فتتأثر اوضاع اهل الكتاب بكل ذلك مدا وجزرا ولكن الظروف الجديدة اعطت تلك الاوضاع ابعادا مختلفة بسبب تدخل الدول المسيحية الذي اخذ طريقه الى التكاثر مستفيدا من كل عوامل الضعف والتقهقـر التي كانت تزداد شدة على مر العصور • وهنا تبرز عدة ظواهر :

١ ــ نجاح الدول في منع تطور الدولة والمجتمع العثمانيين نحـو التخلص من التخلف ، بصورة غير مباشرة •

٢ ــ حرص هذه الدول على الحصول على امتيازات لرعاياها ولـها عبر المعاهدات •

٣ ــ حصول اهل الكتاب على امتيازات تتجاوز حقوق المواطنيـن المسلمين •

٤ ــ حصول الأجانب على امتيازات تتعدى حدود القانون الدولي المعترف بـه في ذلك الزمن •

وكان من جراء ذلك ان تزرع طريق التقدم بالاشواك منذ ان بـدأ العثمانيون يحاولون التخلص من اسباب التخلف الفكري والتقني ، لأن

هذا التخلص لا يتم بدون الاستقلال التام الناجز ، وبدأت بذور استعمار من نوع جديد ترتسم في أفق الدولة العثمانية في وجـوه اقتصادية وسياسية وفكرية تحركها هذه المعاهدات التي يتتالى توقيعها وبعض المواطنين من الرعايا الذين ترسم هذه المعاهدات علاقاتهم مع الحكم وأوضاعهم ضمن المجتمع الاسلامي .

ولا بد من ان يحرك ذلك في نفوسهم عوامل الشعور بالتميز عن سائر المواطنين وبالتالي الشعور بالتعاطف مع الفريق الآخر الذي كان يضع بنوده ضمن اطار من الدعاية الواسعة ، وان يؤدي ذلك الى تفكيك عرى تماسك المجتمع العثماني بتغذية الشعور بالظلم حينا وبالتفوق احيانا خصوصا لدى المسيحيين من المواطنين ، يقابل كل ذلك محاولة الدولة لزيادة نفوذها بين المواطنين المسلمين على حساب ما تضطر للتخلي عنه بعض الاحيان من اجل ردع حركات التحرر ، وقد تعدت الامتيازات في بعض الفترات مفاهيم المساواة بين المواطنين ليصبح التناقض في المعاملة مصدر الاصوات التي ارتفعت تنادي بالحرية وبسقوط الاستبداد.وهكذا ففي الوقت الذي كان المواطن المسلم خارج محافظة جبل لبنان يعبر عن شعوره بهذه العبارة : (نيال كل من له مرقد عنزة في جبل لبنان) ، كانت مقالات اللبنانيين في مصر وغيرها تزخر بعبارات التغني بالحرية وذم الاستبداد الذي يعم أوساط المجتمع العثماني .

خلق التدخل الاجنبي داخل المجتمع العثماني اوضاعا تعذر خلالها على النظام الحاكم ان يحصل على اخلاص المواطنين لأنه تعذر عليه ان يعدل في مساواته بين الجميع واستمر هذا الوضع في التفاقم منذ بدأت معاهدات الامتيازات الاجنبية على حساب سيادة الدولة حتى وصل الى مرحلة الازمة الخانقة اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا وكانت نهاية الحكم

العثماني ، على يد هذه الامتيازات وعبر تأثيراتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسة خصوصا ما أدت اليه من استفادة اليهود من الامتيازات المذكورة حتى أصبح لدورهم من الحرية ما مكنه من التدخل في أخطر ما يمس النظام والدولة من شؤون السلطة والحكم . ومن اجل توضيح هذه الابعاد يمكن الانتباه الى ما جاء في مجلة « الأمة » الكويتية (١٥٣) :

كنا ذكرنا كيف وصل الاتحاديون الى السلطة في الدولة العثمانية والدور الذي لعبه يهود الدونمة في ذلك وكيف اصبحوا المتحكمين بالبلاد والعباد عام ١٩٠٨م والاتحاديون هم اعضاء الاتحاد والترقي ، المنظمة السرية التي شكلها في مدينة سالونيك بعض اعضاء جمعية تركيا الفتاة وهي جمعية سرية انشئت عام ١٨٦٥م وتمثل حكومة لا دينية (علمانية) وتستهدف تحقيق اربعة مبادىء : الحرية الفردية ، النظام الدستوري ، القضاء على الاقطاع ، التحرر من السيطرة الاجنبية . وكان لهذه الجمعية اليد الطولى في عزل السلطان عبد العزيز ثم في عزل السلطان مراد الخامس . اما جمعية الاتحاد والترقي فقد ضمت اخلاطا شتى من عناصر ذات جنسيات مختلفة وديانات متعددة ، كثرتهم من الأتراك ، يليهم اليهود.

وهكذا كانت الدول تشدد على تحصيل الحقوق والامتيازات لأهل الكتاب كمجموعات وأفراد وفي مقابل ذلك وتعويضا عن خسارة تلحق بهيبة الحكم من جراء هذه الاوضاع تشدد الدولة العثمانية في فرض هيبتها وانحرافاتها وقوانينها القاسية على المسلمين للحصول على المال اللازم بمختلف طرق العنف والاكراه .

يقول محمد فريد بك في كتابه عن تاريخ الدولة العثمانية : ويمكننا القول بأن الاتفاق قد تم منذ ذلك التاريخ بين جميع الدول ، ان لم يكن صراحة فضمنا على الوقوف امام تقدم الدولة العلية اولا ثم تقسيم بلادها

بينهم شيئا فشيئا وهو ما يسمونه في عرف السياسة بالمسألة الشرقية المبنية على الخوف من انتشار الدين الاسلامي ٠

وللوقوف على مدى تطور اوضاع غير المسلمين عبر مختلف العصور ضمن نطاق الحكم العثماني لا بد من تفحص ما أتت بـه تلك المعاهدات التي قاست هذه الاوضاع بمقاييس مصالح الدول المتمثلة فـي اضعاف سلطة الدولة العثمانية وتحطيم اسس المناعة في جسـم الحضـارة الاسلامية ٠

سبق القول ان معاهدة ١٥٢١ م بين الدولة العثمانية وجمهوريـة البنادقة كانـت في أساس الامتيازات القنصلية ، فكيف تطورت هذه الامتيازات وغيرها ضمن المعاهدات الأخرى ؟٠

مرورا بالمعاهدات التي تمت عام ١٥٥٣ م وقبله وعام ١٦٧٣ م حيث فوض الى فرنسا حق حماية بيت المقـدس سوف تتوقف عند معاهدة قينارجة عام ١٧٧٤م بين الدولة العثمانية وروسيا : حيث ورد فـي المـادة السابعة منها (١٥٤) على ان : تتعهد دولتنا العلية على ان تصون حق الديانة المسيحية وكنائس المسيحيين صيانة قوية وتمنح سفراء الروسيا الرخصة بابراز التفهيمات المتنوعة عند كل احتياج سواء أكان متعلقا في الكنيسة المذكورة في المادة الرابعة عشرة الكائنة في محروسة القسطنطينية أو فـي صيانة خادميها ، واذا عرض السفير المومأ اليـه شيئا مـا بواسطة معتمد له يتعلق بدولة مصافية ومجاورة لدولتي العلية فتتعهد دولتنا العلية بقبول المعروض والمعتمد ٠

اذا كان هذا البند هو النموذج لصيانة حق الديانة المسيحية وكنائسها فانه يفرض على الدولة العثمانية قبول كل ما يعرضه السفير مسبقا فـي بعض النواحي : (فتتعهد دولتنا العـلية بقبول المعروض والمعتمد) !!

وتفرض المعاهدة في مادتها الثانية عشرة على الدولة العثمانية ضرورة مساعدة روسيا عندما تريد ان تعقد معاهدة تجارية مع الافريقيين وان تتعهد : (ببذل اعتبارها وجهدها لحصول دولة روسيا على مرغوبها) دون ان تحدد ذلك (المرغوب) !!. كما انها في المادة نفسها (تكفل حكومات الايالات المذكورة بأنها تحافظ على العهود المرسومة). أي أنها تكفل بأن تحافظ الدول الافريقية على عهودها بعد عقد المعاهدات مع روسيا !!.

أليس في هذا نوع من التعهد عن الغير ودون معرفة موضوع التعهد وشكله ، يتعارض مع القانون والعرف الدوليين ؟ .

يظهر في ما عرضنا من نصوص المواد حرص روسيا على تأمين مصالحها التجارية والسياسية قبل كل شيء ، وعلى فرض شروط تتعلق بالمس بسيادة الدولة العثمانية عبر تحديد صلاحياتها في بعض الامور الداخلية . أما في المادة الخامسة والعشرين فيرد النص على تسريح جميع أسرى الحرب واعادتهم الى بلادهم ما عدا المسيحيين الذين دخلوا في الدين المحمدي بارادتهم والمسلمين الذين تنصروا بارادتهم في روسيا.

وهنا لا بد من ملاحظة ان العثمانيين وقعوا على ما يتعارض مع مبادىء الشريعة الاسلامية التي تعاقب المرتدين بأشد العقاب .

وتتتابع المعاهدات ، من معاهدة زشتوي سنة ١٧٩١ [١٥٥] التي نصت في بندها الثاني عشر على ضرورة تأمين) حرية التعبد والمتعبدين وجميع الامتيازات الممنوحة سابقا للدين الكاثوليكي) ثم مشروع معاهدة مع فرنسا عام ١٨٠١ وقعها السفير العثماني في باريس مع بونابرت أساسها اخلاء مصر وتأييد امتيازات فرنسا السابقة في الشرق [١٥٦] مع جميع الحقوق التجارية وحق الملاحة .

ومنذ معاهدة (تلسيت) عام ١٨٠٧م وما جاء في المعاهدة السرية التي اتفق عليها نابوليون واسكندر الاول قيصر روسيا من انه في حال لم يقبل الباب العالي توسط فرنسا او لم يتم المقصود بكيفية مرضية بعد قبول التوسط بخمسة وثلاثين يوما ، تتحد فرنسا مع روسيا على سلخ جميع الولايات العثمانية باوروبا ما عدا الاستانة وما حولها وتقسيمها فيما بينهما مع ارضاء النمسا ٠

يقول احد مؤرخي تلك الفترة : من الغريب ان جميع دول اوروبا لا تأنف من استعمال انواع الغش والخديعة حتى صارت لفظة سياسة عندهم مرادفة للكذب والمين والتظاهر بغير الحقائق ولو عاملتهم احدى الدول الشرقية لا بمثل هذه السياسة التي يتبرأ منها الشرقيون بل بالصداقة مع المحافظة على الحقوق فما دام حقنا منافيا كما هو الغالب لمطامعهم في بلادنا ، رمونا بما اتصفوا به ونحن براء منه ٠

من هذه الوقائع وهذا الكلام يتضح انه لم يكد يدخل القرن التاسع عشر الا والدولة العثمانية قد اصبحت تعيش في دوامة المعاهدات التي تعبر عن ضعفها وانصياعها لأشد البنود خرقا لسيادتها وحرمة شعبها وأراضيها ٠ وقد بدأت المناقشات بين الدول الاوروبية حول اقتسام أراضيها كما يبدو من معاهدة (تلسيت) السرية بين فرنسا وروسيا ، وكانت المعاهدات التي عقدت في القرن التاسع عشر شديدة الوطأة على مجاري السياسة العثمانية بعد أن أدى رضوخها لجميع طلبات الدول ومنها ما كان يتعلق بالحياة العامة داخل الدولة العثمانية نفسها ويزعزع عند تطبيقه اسس الوحدة الثقافية والاجتماعية والسياسية ، عبر ما كانت فئة من المواطنين تشعر به من حماية اجنبية ، وما كان في ذلك من تشتيت للروح الوطنية عند هذه الفئة وغيرها ٠ وكان طبيعيا ان تتجه بأنظارها خارج الوطن العثماني مدفوعة بما لوح به لها من مصالح

اقتصادية وثقافية واجتماعية كانت تسهل امامها سبـل الرقي الاقتصادي والاجتماعي والثقافي ، بينما كانت سياسة العثمانيين الداخلية كما ذكرنا تخبط مذعورة بفعل ما كان ينتزع منها من عناصر السيادة فـي الداخل والخارج فتعوض عنها اقتصاديا عن طريق ارهاق الفئات الاخـرى غيـر المشمولة بالحماية الخارجية وهي أكثرية المواطنين ، بالضرائب والواجبات التي تصل الى درجة السخرة • كانت الفئة المشمولة بالحماية الخارجية عبارة عن المسيحيين العثمانيين دائمـا واليهود احيانا وقد أدى ذلك الى رفـع مستواها الاقتصادي والاجتماعي بشكل بارز عبر مـا لاقت مـن مساعدة في الداخل والخارج بعد أن قوي النفوذ الداعم لها وامتد الـى الداخل بشكل عميق كبير •

اذن كان وضع أهل الكتاب ينطلق من المساواة التي تشمل المسلمين في الدولة العثمانية الى الحصول على امتيازات عملية واحيانا قـانونية كما حصل في جبل لبنـان •

وفتح الأجانب مدارسهم وشركاتهم وسفاراتهم بوجه غير المسلمين من رعايا الدولة العثمانية وأدى كل ذلك الى تسلطهم على محاور الاقتصاد والتجارة والثقافة احيانا مع ما لذلك من أثر اجتماعي على سائر المواطنين المسلمين الذين بهرتهم حضارة الغرب عبر صرخات ثقافية تطالب بالتحرر من كابوس التخلف الذي تفرضه سياسة الدولة العثمانية ، وظهرت طبقة من المثقفين المسلمين تتحد ثقافيا وسياسيا مع الاتجاه المطالب بالاصـلاح وكانت المعاهدات تتوالى وتراجعات الدولة العثمانية لا تترك لها مجـالا لالتقاط الأنفاس من اجل اجراء حتى الاصلاحات التي تصدر بـها فرمانات قانونية فتبقى حبرا على ورق ، لشدة الامتيازات التي يتمتع بها رعـايا الـدول الأخـرى على أراضي الـدولة العثمانية ، وتمكنهم في المجـال الاقتصادي على الأقل ، من الوقوف بوجه أي اصلاح يتعارض مـع هذه

الامتيازات ، ولا بد لأي اصلاح يهدف الى اشباع الحاجات الاقتصادية للمواطنين العثمانيين من ان يلج هذا الطريق .

ففي اتفاق (كرمان) الفقرة الثالثة من البند السابع نجد النص على (ضمان حرية الملاحة والتجارة في جميع ممالك الباب العالي لجميع الرعايا الروسيين سواء كان برا او بحرا وفي كل مكان يريدون الملاحة والتجارة فيه) .

وقد جاء في البند السابع من معاهدة أدرنة ١٧٢٥ ما ينص على حصانة قضائية للرعايا الروس داخل الدولة العثمانية واخضاعهم لسلطة بلادهم القضائية (ويبقى الرعايا الروس تحت السلطة القضائية والبوليس الخاصين بوزير وقناصل الروسية) .

ومما يلفت النظر هذه العبارة التي وردت في البند نفسه : (وقد اتفق اتفاقا صريحا على أن انواع القمح الآتية من روسيا تتمتع بنفس هذه الامتيازات وان تقلها من أراضي الدولة لأي جهة لا يحصل فيه أقل صعوبة او ممانعة مطلقا ولا بأي حجة) . فالحصانة التي وصلت الى تمتع القمح الروسي (بهذه الامتيازات) يمكن ان تعطل أي مجهود في سبيل دفع الاقتصاد العثماني الداخلي في طريق تمكنه من تأمين مصالح المواطنين العثمانيين لأنها لا بد ان تتعارض مع كل تلك الامتيازات الاقتصادية الضخمة التي تقع على حساب هؤلاء المواطنين .

فأين موقع أهل الكتاب من مسيحيين ويهود من هذا الغبن الاقتصادي اللاحق بالمجتمع العثماني ؟.

لقد احتوت المعاهدات ذاتها من ضمن ما سجلت ، بنودا تؤدي الى رفع الحيف عنهم وجعلهم هم ايضا يتمتعون بامتيازات الرعايا الأجانب من جهة ، ومن جهة أخرى كانت الشركات التجارية الاجنبية عبر امتصاصها

لفائض الاقتصاد العثماني وتطويقها لمجاريه تفضل التعامل معهم لسببين قد يكون لاحدهما صلة بالدين ولكن الاهم كان انفتاحهم على حضارة الغرب فيسهل التفاهم معهم دون اية عقد ثقافية او دينية او اجتماعية من التي اوجدها بعض رجال الدين المسلمين في تحريمهم وتحليلهم العديد من مقتضيات التعاطي مع المسائل الجديدة التي طرحتها ظروف الحضارة وشؤون العصور المتتالية ، لأنهم كانوا بسبب ضيق أفق معرفتهم للاسلام ، يستخلصون ويستنتجون هذه الاحكام من اقوال فقهاء العصور الاولى دون تمعن في اختلاف الظروف الذي يستدعي تبديل وجهات النظر كما بينا .

اذن استفاد اهل الكتاب ، عن غير قصد ربما من هذه الامتيازات التي منحت بكثرة لرعايا الدول الاجنبية في جميع مجالات التجارة الخارجية والداخلية وبما للتجارة والاقتصاد من انعكاسات على مختلف وجوه النشاط الاخرى من ثقافية واجتماعية وسياسية ، كان لهذه الامتيازات آثارها الثقافية والاجتماعية والسياسية على أهل الكتاب اولا ثم على سائر المواطنين المسلمين .

سرعة الأحداث وسرعة التطور الحضاري وخاصة المادي منه وما أديا اليه من تطور علاقات اهل الكتاب بالمجتمع الداخلي في تناقضها أحيانا وتلازمها احيانا اخرى مع مصالح هذا المجتمع ، جعلت اوضاعهم تختلف وتصبح أشد مناعة من ذي قبل وتتمتع بمستوى اقتصادي وثقافي واجتماعي يميزها عن غيرها منذ مطلع القرن الثامن عشر .

ومنذ مطلع القرن التاسع عشر اخذت أوضاع النصارى تتغير في طريق الحصول على امتيازات اوسع من الحقوق السابقة ، تصل أحيانا الى درجة السيطرة في بعض نواحي الحياة وأخذ احترامهم يزداد بعد ان اخترقوا جدار المساواة الى ما يجعلهم متميزين على غيرهم ، واستفاد اليهود من الظروف الجديدة واستطاعوا بفضل انفتاحهم على الغرب واتصالهم به

ان من خلال اتقان لغاته أو لجهة التعاطي مع مختلف نشاطات سكانه ، ان يحصلوا على الكثير من الامتيازات المباشرة وغير المباشرة •

خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر كان نجاح اليهود اكثر من المسيحيين في كل المجالات في ظل الحماية التركية وقد كانوا يتمتعون بصلاحيات تجارية وصناعية كبيرة دون ان يكونوا متهمين بالتعاطف مع الغرب كالمسيحيين •

وبمعنى آخر كانوا متممين للمسلمين والنصارى ايضا في تلك المجالات ومنذ القرن الثامن عشر صاروا يخسرون من مواقعهم أمام المسيحيين الأكثر ثقافة والأكثر عددا الذين يتمتعون بأفضلية في اوروبا المسيحية • وكانت الافضلية في الانتقاء لأوروبا وليس للعثمانيين في ذلك الزمن ، لأنها الاقوى والاكثر تقدما • والاقليات في المجتمع العثماني كانت تدين بوضعيتها المميزة الى اوروبا والحماية الاوروبية • كثير من أعضاء تلك الاقليات حصلوا على وضع قانوني يتميز بالحماية أو حصلوا على جنسية بعض البلدان الغربية • وهكذا فخلال القرن التاسع عشر أقامت بعض الدول الاوروبية حماية دولية فعلية على طوائف كاملة من رعايا السلطان غير المسلمين •

الحماية الاجنبية ، الامتيازات في الداخل ، تقرير المصير ، كلها أمور أدت الى تأثيرات بلغت الذروة مع انهيار النظام القديم ولكنها لم تنته فصولا •

التغيير يبدو اكثر مأساوية في المناطق التي وقعت تحت السلطة الاوروبية مباشرة فيما بعد (١٥٧) • الشعوب الاوروبية الغربية في اتجاهها نحو جنوب السلطنة والروس في تقدمهم من الشمال ، طوقوا العالم الاسلامي بحزام حديدي رهيب • في المناطق المحتلة عمل الأسياد الجدد

كما فعل المغول من قبل عدة قرون حيث اخذوا يستعملون صلاحيات ومعلومات الشعوب غير الاسلامية في هذه المناطق ، فنجد أرمن في خدمة الروس في شرق تركيا مما طرح مشاكل من كل نوع ان بالنسبة للأتراك أو بالنسبة للارمن كما يقول برنارد لويس وفي الجنوب تعتمد بعثة بونابرت على الأقباط بكثافة كبيرة من اجل بسط النفوذ على مصر . فنرى مؤرخا كالجبرتي يشرح ما كان يشعر به المراقب المسلم في ذلك العصر تجاه ما يرى . والجبرتي الذي ينتمي الى طبقة العلماء في أصوله ونشأته لم يكن متعصبا ولا غذى حقدا اعمى ضد ما هو غير اسلامي ، ونراه يعترف للاحتلال الفرنسي ببعض القيمة ويتوسع في مدح تعلق الفرنسيين بالعدالة وهي احدى الصفات الأشد تميزا في سلم القيم الاسلامية .

ونراه في عدة مناسبات يلاحظ بمرارة ان الفرنسيين يستخدمون الأقباط وغيرهم من الذميين في سبيل مآربهم (١٥٨) .

اذن كانت مداخلات الدول الاجنبية سببا لتمزيق وحدة المجتمع العثماني عن طريق الضغط والحصول على امتيازات لفريق من المواطنين دون غيرهم مما جعل هؤلاء يشعرون بالميل حتى للانتماء الى دول غربية ويفقد بعضهم الروابط المعنوية التي تشده الى المجتمع الذي ينتمي اليه ، خصوصا عندما اصبحت الامتيازات تتوالى وتتنوع بكثرة نتيجة لضعف الدولة العثمانية المتواصل .

وكان منح هذه الامتيازات والكلام هنا لبرنارد لويس أو الحقوق بادىء الأمر يتصل بالاسلام اتصالا وثيقا وينتمي الى مبادىء التسامح التي أقرها ولكنه عندما اصبح نتيجة ضعف وانهيار جعل الدولة تخرج في عطائها وتنازلها عن حقوق السيادة على اراضيها ، كان ذلك مشجعا للكثير من العناصر على الذهاب في اتصالاتها مع الغرب الى ابعد من

حقوق تمنح وحريات تمارس ولم يكن ذلك ليقتصر على أهل الكتاب فحسب بل شمل الكثير من المسلمين [١٥٩] .

يقول برنارد لويس في كتابه (العرب في التاريخ) : كان التوسع الاوروبي في أوائل القرن السادس عشر من نوع جديد . وبدأ حين قام الفرنسيون بمفاوضة الباب العالي لعقد تحالف ضد أي عدو مشترك ولم تلبث مهارة الفرنسيين في الديبلوماسية ان نجحت في تحويل التحالف الى اتفاق اقتصادي يمنح التجار الفرنسيون بموجبه حقوقا وامتيازات معينة في كافة انحاء الامبراطورية العثمانية . وحفظت هذه الحقوق فيما يعرف بامتيازات سنة ١٥٣٥م التي كانت تكفل للتجار الفرنسيين سلامة أشخاصهم وأملاكهم وتؤمن لهم حرية العبادة . كانت هذه الحقوق في بادىء الأمر امتيازات للرعايا الفرنسيين خارج بلادهم .

ولم تكن هذه امتيازات انتزعت من دولة شرقية ضعيفة بل كانت والكلام هنا لبرنارد لويس ايضا [١٦٠] اشبه بتنازل كريم من لدن السلطان منح بموجبه الفرنسيين حقوق اهل الذمة في المجتمع الاسلامي ، باعتبار مثل هذا العمل توسعا في تطبيق قوانين اهل الذمة بحيث تشمل النصارى الاجانب أيضا .

واشتد تغلغل الفرنسيين بسرعة فقد استغل تجارهم فرصة اكتسابهم هذه الامتيازات في اقامة مراكز تجارية وانشاء بعثات قنصلية في سوريا ومصر وتوالت الامتيازات بعد ذلك فمنحت للانكليز (١٥٨٠م) وللهولنديين (١٦١٢م) ولغيرهم من الشعوب .

ورافق ذلك بطبيعة الحال تسهيل عمل البعثات الدينية وتسربت الثقافة الغربية في بادىء الامر (عن طريق الدين على يد الاقليات المسيحية فقد كان الفاتيكان على اتصال بموارنة لبنان منذ القرن السادس عشر

وكان اليسوعيون والرهبان الكبوشيون الايطاليون والفرنسيون يزاولون نشاطهم في سوريا •

لكن النتائج التي اسفرت عنها هذه التدخلات انحصرت في الطبقة الوسطى الجديدة من اهل البلاد وكانت تتألف من تجار ومفكرين•وأصبح اهل الكتاب يتمتعون بدرجة ثقافية واقتصادية عالية نجمت عن تأثير البعثات الدينية التي مارست التعليم • وكان طبيعيا ان يقبل عليها اصحاب الديانات غير الاسلامية نظرا لطبيعة دورها وللتسهيلات التي كانت تقدم وللطقوس التي كانت ترافق حركة نشر الثقافة الغربية •

فأصبح اهل الكتاب وخاصة النصارى منهم في وضع مميز اقتصاديا وثقافيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وساهموا الى حد كبير في نشر الثقافة والعلم والوعي بين العرب جميعا •

وتوصلوا خلال ذلك القرن الى الحصول على امتيازات ، نجمت بصورة مباشرة او غير مباشرة عن الامتيازات التي حصل عليها رعايا الدول الاجنبية بموجب المعاهدات المتتابعة التي كانت تختلف بنودها باختلاف المصالح الجديدة التي تدرجها فيها الدول الاوروبية ، وقد أصبحوا في وضع متمايز بالنسبة للمسلمين من رعايا الدولة العثمانية الذين لا يتمتعون بنفس الحقوق ولا يمارسون نفس الحريات وتمارس عليهم كما سبق القول مختلف صنوف الظلم والسخرة خصوصا عندما يكونون من طوائف اسلامية مختلفة في مذهبها عن مذهب الدولة الرسمي •• وطبيعي ان يؤدي التخلف من جهة والضغط الاجنبي من جهة اخرى الى مثل هذه النتائج الاجتماعية •

ومن الظواهر الاجتماعية المعبرة عن الوضع الجيد الذي كان يتمتع به اهل الكتاب والاحترام الذي يميزهم عن غيرهم أن لفظ خواجة الذي

جمعه على خواجات والكلام للدكتور المؤرخ حسان حقي والذي معناه اللغوي المعلم والاستاذ ، كان يستعمل في زمن الدولة العثمانية بمعنى السيد لغير المسلم وما زال عوام المصريين يستعملونه للغاية ذاتها الى اليوم (١٦١) •

وعلى ذلك ومن المفارقات التاريخية ان الاصلاحات الدستورية العثمانية كانت تقابل بفتور لدى معظم الطوائف فمن فرمان الكلخانة (١٦٢) : الذي ألح في حيثياته على نسبة ضعف الدولة العثمانية الى (عدم الانقياد والامتثال للشرع الشريف ولا للقوانين المنيفة) بعد ان كانت الدولة العثمانية جارية (من مبدأ ظهورها على رعاية الاحكام القرآنية الجليلة والقوانين الشرعية المنيفة) وينسب الى هذه الرعاية قوة الدولة قديما وصلابتها (لذا كانت قوة ومكانة سلطتنا العلية ورفاهية وعمارية اهاليها وصلت حد الغاية) الى ان يتحدث الفرمان عن (وتمتاز سائر تبعية دولتنا العلية من المسلمين وسائر الملل الاخرى بمساعداتنا هذه الملوكية بدون استثناء) •

الى فرمان ١٨ فبراير ١٨٥٦ م (١٦٣) الذي قضى بأن يصير : (منع كافة الجوائز والعوائد الجاري اعطاؤها للرهبان مهما كانت صورتها وتخصص ايرادات معينة بدلها •••) كما جاء فيه : (ان تمحى وتزال الى الابد من المحررات الرسمية الديوانية كافة التعبيرات والالفاظ المتضمنة تحقير جنس لجنس آخر في اللسان او الجنسية او المذهب من افراد تبعة سلطتنا السنية) • ويحدد دخول وظائف الدولة للجميع بدون تمييز خصوصا لجهة الدين : (•• فيصير قبول تبعة دولتنا العلية من أي ملة كانت في خدماتها ومأورياتها بحيث يكون استخدامهم في المأموريات بالتطبيق للنظامات المرعية الاجراء في حق العموم بحسب استعدادهم وأهليتهم • واذا قاموا بايفاء الشروط المقررة بالنظامات الملوكية المختصة

بالمكاتب التابعة لسلطتنا السنية بالنسبة للسن والامتحانات يصير قبولهم في مدارسنا الملكية والعسكرية بلا فرق ولا تمييز بينهم وبين المسلمين.. وتحال كافة الدعاوى التجارية أو الجنائية التي تقع بين المسلمين والمسيحيين وسائر الملل الغير مسلمة او بين التبعة المسيحية وسائر التبعة الغير مسلمة مع بعضهم على الدواوين المختلطة والمجالس التي تعقد من قبل هذه الدواوين واستماع الدعاوى يكون علنا بمواجهة المدعي والمدعى عليه وتصدق شهادة الشهود الذين يقدمانهم بمجرد تحليفهم اليمين حسب قواعدهم ومذاهبهم ... والمساواة في الحقوق تستدعي المساواة في الوظائف فالمسيحيون وسائر التبعة الغير مسلمة يسحبون نمرة قرعة مثل المسلمين ويجبرون على الانقياد للقرار الصادر اخيرا وتجري عليهم احكام المعافاة من الخدمة العسكرية بتقديم البدل الشخصي أو النقدي .... وتنتخب اعضاء المجالس الموجودة بالولايات والمديريات من التبعة المسلمة والمسيحية وغيرهما بصورة صحيحة ... والخراج على كافة تبعة سلطتنا السنية لا ينظر فيه الى اجناسهم ومذاهبهم بل جاري تحصيله بصفة واحدة) . (١٦٤)

صدر هذا الفرمان ايضا في عهد السلطان عبد المجيد خان ١٨٥٦م وتضمن تحولا في القوانين التي ترعى الحياة العامة من الوجهة الدستورية فهو قد ساوى بين أفراد الطوائف والملل في الحقوق والواجبات وكرس حرية المعتقد وساوى بين المواطنين في دخول وظائف الدولة دون أي تمييز في الدين أو الجنس كما كرس المساواة امام القانون لجهة تحصيل الخراج وسائر التكاليف وجعل دخول مجالس المديريات في الاقاليم حقا للجميع دون تمييز في الدين او الجنس او غيره .

ولكن هذه الاصلاحات الكبرى التي اعتمدت المساواة في الحقوق والواجبات اساسا قوبلت بردا تفعل مختلفة وغير متوازية مع العطاء

الدستوري الذي قدمته ۰ هذا المرسوم (اصلاحات ١٨٥٦م) الذي أعلن التحرير لم يستقبل برضى من المسلمين الذين عارضوه وبدا كأنه يعرضهم لخسارة امتيازاتهم ولكنه بالذات عني للنصارى ، لقادتهم على الاقل ايضا خسارة امتيازاتهم القديمة والمعترف بها (١٦٥) ۰

بعض ردات فعل المعاصرين ظهرت في مذكرات المؤرخ ورجل الاعمال جودت باشا الذي قال عن نشر هذا الفرمان : بناء عليه يصبح المسلمون متساوين مع غيرهم امام القانون مما احدث اثرا سلبيا لدى المسلمين ۰۰ النقاط الاربع المعتمدة لاتفاقيات السلام كانت تنص على بعض الامتيازات تعطى للنصارى شرط ان لا تخالف او تؤدي الى عصيان سلطة الحكومة العلية ۰ وبهذا المرسوم فقدت هذه الامتيازات كل معنى ۰

ومع انه كان لغير المسلمين حقوق المسلمين نفسها في جميع المستويات الحكومية فان كثيرا من المسلمين اخذوا يتأففون ۰ والبطاركة والرؤساء الروحيون لم يكونوا مسرورين برؤية تسمياتهم منظمة بفرمان۰

وهكذا فبمنح المساواة التامة للجميع ألغيت بعض الضرائب وقبل غير المسلمين وخاصة اهل الكتاب لتأدية الخدمة العسكرية الاجبارية ۰ لقد مضى وقت طويل دون ان يدعوا لهذه الخدمة ولكن كان عليهم ان يدفعوا ضريبة بديلة تخلف الجزية ۰ هذا النوع من التمييز اختفى والتجنيد أضيف الى امتيازات المواطنية الممنوحة للرعايا غير المسلمين ۰

ولكن هل كانت كل هذه الاصلاحات كافية لرد التدخل الدولي المستمر بحجة المطالبة بحقوق النصارى في الدولة العثمانية ورفع (الحيف) عنهم ؟۰

يكفي ان نتصفح لائحة لوندرة التي صدرت في ٣١ مارس سنة ١٨٧٧م لنتأكد العكس عندما تطلب اللائحة من السلطان ان (يبذل همته

في اتخاذ الوسائل التي يحصل بها تحسين احوال النصارى التـــي اتفقت الدول على وجوبها) وتنتهي اللائحة المذكورة بالعبارة التالية : (فاذا خابت آمالها ... ففي مثل هذه الحال تستبقي لنفسها ان تنظر بالاتفاق في اتخاذ الوسائل التي تراها الأصلح لتأمين خير النصارى ولابقاء السلم عموما).

هذه هي اوضاع اهل الكتاب قبل وبعد تلك التدخلات الاجنبية التي طالما اتخذت من كل ذلك ذرائع لبسط نفوذها وتأمين مصالحها الاقتصادية والسياسية على حساب الدولة العثمانية وعن هذا الطريق ، فنتج عن كل هذه التدخلات مصاعب ربما اضيفت الى المصاعب التي كان يعانـــي منها اهل الكتاب والمسلمون في المجتمع العثماني بسبب ضعف الدولة وسيطرة سوء الادارة والفساد والجهل الذي استشرى فعمت الفوضـــى وســـاد القلق والخوف الجميع في فترات معينة من الحكم العثماني .

التجربة المصرية

عندما استتب الامر لعمرو بن العاص في مصر ودانت له البلاد حتى الاسكندرية استهل عهده بأن ارسل يستدعي الأنبا بنيامين من صومعته في البرية وبعث اليـه عهدا يؤمنـه فيه على حياته وحياة القبط ويطلب منه العودة الى كرسيه ، ومباشرة شؤون كنائسه ، ثم أعلن عمرو وعلى رؤوس الأشهاد بعد ان التقى بالبطريرك بنيامين انه لم يشاهد في حياتـه كلها كاهنا مسيحيا أطهر ذيلا وأنقى صحيفة واجل منظرا منه (١٦٦) •

وفي كل ذلك كان عمرو بن العاص يعبر عن النظرة الاسلامية كمـا ظهرت في كتاب الله والسنة الشريفة ، الى التعامل مع اهل الكتاب ، وعن بداية طيبة لهذه العلاقات التي تحولت في مصر بعد زمن ليس بالطويل في عمر الحضارات ، الى اندماج وتفاعل كانت ثمـاره مبعث فخر واعتزاز في مسيرة الحضارة والانسان عبر العطاء الذي لا يزال ينتشر من مصر فـي مختلف الاتجاهات والابعاد ويعود اثره على مصر بأجزل الفوائد وأسماها من خلال نتائجه وما تتفاعل بـه هذه النتائج مع العلم والفكر والانسان•

نظرة الاحترام تلك الى معتقدات اهل الكتاب لم تكن وليدة تصرف عمرو الشخصي بقدر ما كانت تنتسب الـى اركان النظـام الاسلامـي والفكر الاسلامي •

ولكن هل كان في هذا الموقف دليل فقط على ارادة عدم تدخل المسلمين في شؤون اهل الكتاب تاركين لهم تدبير أمورهم بحرية واستقلال لتنصرف الدولة الى مساعدة المسلمين وتقديم العون المادي والمعنوي لمؤسساتهم دون غيرها ؟

من الخطأ ان نفترض ان الحكومة الاسلامية لم تهتم بالحياة الداخلية لغير المسلمين فقد كانت اكاديمية بيت المقدس وهي اعلى سلطة دينية يهودية في عهد دولة الفاطميين تتسلم منحة اساسية للنفقة عليها ولصياتنها من الخلفاء الفاطميين الامر الذي اعطى لهؤلاء الخلفاء ، بالطبع حق الاشراف على انتخاب رئيس هذه الاكاديمية . كذلك كانت تقدم منحة مقابلة لبيت التعليم اليهودي في العاصمة المصرية .

ولقد أوردت الجنيزة كل المواضيع الدينية اليهودية التي عرضت على السلطات الاسلامية ، مثلما حدث حينما اعترض اليهود على قوانين ابراهيم بن موسى بن ميمون الاصلاحية واعتبروها بدعة وقدموا للسلطات الاسلامية بذلك التماسا لالغائها وكان ذلك في عهد الملك العادل أخ صلاح الدين خليفته في حكم مصر . (١٦٧)

واذا كانت هذه طرق وأصول التعامل بين اليهود والمسلمين في مصر فمن ما تعبر عنه ومن خلالها يمكن تفهم جو الصفاء الذي كان يسود العلاقات مع الاقباط في مصر واذا كان اليهود كما نعلم لم يقدموا للمسلمين أية مساعدة عند الفتح ، او أي تعاون كبير بعده ، فان للاقباط في ذلك تاريخا من التعاون الوثيق والمساعدة الصارخة .

وقد ذكر ابن عبد الحكم صاحب اقدم كتاب عن فتح مصر : أن الانبا بنيامين عندما بلغه مقدم عمرو بن العاص جمع اساقفته وأبلغهم انه لا تكون للروم دولة في مصر وان ملكهم قد انقطع وأمرهم بتلقي عمرو،

والثابت ان القبط كانوا عونا للعرب في فتح بلادهم خاصة عندما زحف عمرو الى الاسكندرية فكانوا يرممون لهم القناطر والجسور ويحضرون لهم المؤن والمعلومات المفيدة ويحاصرون معهم قلاع البيزنطيين ويحولون دون اتصالها سويا وفي هذا يقول ابن الحكم : (فخرج معه جماعة من رؤساء القبط وقد اصلحوا لهم الطرق وأقاموا لهم الجسور والاسواق وصارت لهم القبط عونا على ما ارادوا من قتال الروم) •

والى جانب المصريين كان يسكن زمن الفتح العربي عدد كبير من اليهود يقدر بنحو مائتي ألف وهؤلاء ايضا كانوا من القوى المناوئة للسلطة البيزنطية فهم يحملون لها غلا قديما بسبب ما لقوه من اضطهادات وتشريد على يدها ويد سابقتها الدولة الرومانية الغربية • وفي عهد فوكاس الذي انتفض عليه هرقل تعرض اليهود في جميع انحاء الامبراطورية البيزنطية لموجة جديدة من الاضطهاد وكان فوكاس يأمر بتعميدهم كمسيحيين كرها وقتل كل من يرفض منهم الدخول في المسيحية •

وظل الاسلام ينتشر في مصر باطراد لا سيما بعد أن استوطن المهاجرون العرب في الريف المصري واختلطوا بالمصريين على نطاق واسع• ويحدثنا المؤرخون عن فترات سجلت زيادة كبيرة في معدل الدخول في الاسلام في مصر بين عامي ١٢٤ ـ ١٢٨ هـ (٧٤١ ـ ٧٤٥م) اذ اعتنق الاسلام في هذه الفترة اربعة وعشرون ألف قبطي • وكذلك سنة ١٣٨هـ ـ ٧٥٥م فقد شهدت اسلام الكثيرين من اهل الذمة في مصر حتى لقد أسلم منهم في قليوب وحدها ٤٥٠ شخصا في يوم واحد وتبدو ظاهرة التحول الى الاسلام واضحة من استقراء اوراق البردي المصرية في صدر الاسلام ، فأوراق القرن الأول الهجري تكثر فيها اسماء المسيحيين في العقود الرسمية والمعاملات المختلفة ، ثم تقل اسماء المسيحيين تدريجيا في

اوراق البردي خلال القرن الثاني للهجرة حتى تصبح الغلبة الساحقة لأسماء المسلمين في أوراق القرن الثالث الهجري (١٦٨) .

فالتحول الى الاسلام في مصر لم يكن سريعا ولم تحسم هذه المسألة حسما بعد الفتح ، بل اخذت طريقها في تحول تاريخي كان يشبه الصراع بين الماضي والحاضر ويختمر ببطء عبر وسائل الفكر والاقناع وعبر سلطة الفكر الجديد الذي يقدم الحلول لكثير من مسائل العصر ومشاكله يومذاك .

ولكن هل كانت في المجتمع المصري مشاكل وطروحات تستدعي تقديم الحلول وتعيش مع تطور المجتمع ؟. كانت ازمة خانقة تطوق العلاقات بين الكنيسة القبطية والبيزنطية وتحمل في طياتها الكثير من ظواهر البحث عن الهوية لدى الاقباط .

وقد كانت مساعي هرقل بوضع حد للانقسامات الدينية التي تمزق امبراطوريته فطلب من رجال الاكليروس ايجاد صيغة توفيقية بين مذهب الطبيعة الواحدة ومذهب الطبيعتين وتوصل هؤلاء الى ايجاد المذهب (المونوتيلي) .

ونحن لا نهدف من كل ذلك الى الخوض في مناقشات دينية بل يهمنا ان نظهر أثر ردة الفعل المصرية الداخلية وتأثرها اللاشعوري بمبدأ البحث عن الهوية في تفاعلها مع كل ذلك ! ولم يكن الحل الذي سعى اليه هرقل ليؤلف ارضاء (للشعور بالذات) الذي كان يختلج في حنايا الفكر القبطي والذي كان يختمر في واقع حركة التاريخ المصري .

لقد كان مذهب (المونوتيلي) الجديد في جوهره تنازلا للكنيسة القبطية.ولكن موقف هذه الكنيسة لم يكن ايجابيا بل كان رافضا للمذهب الجديد وهذا ما أدى الى سلسلة من الاضطهادات الدينية سالت فيها دماء

بعض القسس والرهبان ودخل بعضهم الآخر السجون وألقى الجنود البيزنطيون القبض على ميناس شقيق الأنبا بنيامين في الاسكندرية وسيق الراهب صمويل القلموني الى الحاكم البيزنطي بعد ان تزعم تمردا قام به رهبان دير قلمون ولم يسلم عامة الشعب من موجة العنف هذه فتعرض المصريون للكثير منها •

وعن الموقف المصري الصلب يقول بتلر : ان هذا الموقف لم يكن مرجعه اسبابا دينية او منطقية بقدر ما يرجع الى اسباب قومية • فقد كان الهدف اللاشعوري للمصريين التمسك باستقلالهم الديني او المذهبي كان كل ذلك يطرح مبدأ التحدي امام المجتمع المصري الباحث عن الاستجابة لهذا التحدي ، فهل قدم الفكر الاسلامي والنظام الجديد استجابة في هذا المجال وفي غيره ؟

ان النظام الجديد قدم كوادره الفكرية في اطار من المساواة بين الشعوب (يا ايها الناس انا خلقناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا •) عبر دعوة الى وحدة هذه الشعوب في اطار من العدالة وعدم التفرقة بينها من حيث الجنس واللون (لا فرق بين عربي واعجمي الا بالتقوى) •

الفكر الجديد اذن لا يعتمد مقاييس التفرقة التي كانت تمارسها بيزنطية بين الشعوب والمذاهب ولا يعطي للعرب الفاتحين من الحقوق المدنية والقومية ما يميزهم عن غيرهم • ان المذاهب الاسلامية لم تكن قد برزت بعد الى الوجود • وكان في فكر القادمين الجدد اذن واعمالهم ما يطرح الحلول ، وكان بين هذه الحلول ما يتفاعل مع المجتمع المصري فيشبع حاجاته الفكرية ويتفاعل ربما مع تطور هذا المجتمع فتبرز فيه آثار التغيير بحيث ينبثق عن كل ذلك ما يغير وجه المجتمع المصري

القديم ويبدأ التحول الذي يتم خلال قرنين من الزمن ويؤدي الى تعريب مصر بوجهيها المسيحي والمسلم .

ولا جدال في ان الاسلام لم ينتشر سواء في مصر او غيرها بالقوة والارهاب وكما يرى بتلر اذا كان ثمة ظاهرة انتشرت بقوة السلاح فهي سيطرة العرب السياسية وليست عقيدتهم الدينية . (١٦٩)

ولا بد ان تتقصى الاسباب في الفروقات بين الفكر الجديد وما اقام من مبادىء وحطم من تقاليد وبين ما كان يحيط بمجتمع الاقباط قبيل العصر الاسلامي من فكر وعمل وعادات وتقاليد ، بين حاجات اجتماعية كانت تسعى لتتحقق في الفكر والعمل وبين تحديات كان يطرحها الحكم والفكر البيزنطيان مخالفة لمنطق تحقق تلك الحاجات وما يشبعها ويملأ الفراغ الذي كان يزيدها الحاحا ويزيدها شعورا بالاحباط فتتوضح ظاهرة البحث عن الهوية التي تسعى لتحقيق الذات عبر الثورة على الافكار المستوردة والحكم الغريب والعادات الداخلية يفرضها الحاكم البيزنطي في صلف وعناد رهيب .

فالضغط والارهاب يريد ان يفرض مذهبا يتفق عليه اهل بيزنطة او رجال الدين البيزنطيون ، ويبعد الاقباط المصريين عنه تلك التفرقة التي كانت تنخفض بهم عن المنزلة الاجتماعية والسياسية التي يتمتع بها الرعايا والحكام من الروم بينهم ، في لا شعورية تكاد تظهر آثارها في كل ما يقولون وما يفعلون .

والحكم والادارة يقومان على الروم في تمييز يحصر شؤون الحكم والادارة بهم دون المصريين . والمساواة الاجتماعية بين الروم والمصريين كانت تنهار باستمرار عبر تلك الاضطهادات المتتابعة في استنادها الى المذهب المتميز بين اصحاب المعتقد الواحد . الحاجة الى المساواة والحاجة

الى العدالة والى حرية الفكر والمعتقد التي ترفع الظلم وتبعد الاضطهاد ، كل هذه القيم كانت تختلج في مخيلة الشعب المصري وضميره عندما وصل المسلمون العرب حملة الدين الجديد والنظام الجديد فماذا رأى المصريون الاقباط في كل ذلك وماذا فعلوا وهل وجدوا ما يعبر عن حاجاتهم الفكرية والاجتماعية في العدالة والمساواة وابعاد الظلم والاستعباد ؟ لا مجال لاستعادة ما سبق ان تحدثنا عنه من هذه الشؤون وهذه المفاهيم التي احتواها الاسلام وعبر عنها نظامه او نظمه السياسية التي توالت عبر مختلف العصور . ولكننا في صدد الوقائع التي تثبت ذلك والتي كان مجالها المجتمع المصري في مطلع الفتح الاسلامي .

فالمساواة العملية التي تحققت كانت ربما ابعد مما كان يسعى اليه المصريون في مثالية معبرة خلال العديد من الوقائع ، والحرية العملية التي تستقيم معها كانت ايضا تتجاوز كل الحدود وتظل تقدم للاجيال المقبلة دروسا تنطلق من الواقعة الواحدة لتتلون بتلون واختلاف حاجات كل عصر ، والقصة التي بقيت مثلا ودرسا وعنوانا لتمسك المسلمين بالعدل والحرية والمساواة هي قصة المصري الذي ضربه محمد بن عمرو بن العاص وأبوه والي مصر يومذاك لان فرسه فازت في سباق دون فرسه وكيف اقتص عمر بن الخطاب خليفة المسلمين في ذلك الوقت من عمرو ابن العاص وابنه ، ثم قال عبارته الخالدة : « أيا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا » هذه القصة كان لها كما يروي المؤرخون وقع السحر حين شاعت بين المصريين في دفع الناس الى الاسلام دون ضيق او اكراه .

أليس فيها الاستجابة لكل تلك التحديات التي كان يطرحها الفكر والعصر في ذلك الزمن بين ابناء المجتمع الواحد ؟

فاذا اضفنا الى كل هذا ما جاء في رسالة الخليفة علي بن ابي طالب

(ع) الى واليه على مصر من حث على العدالة والمساواة والعطف على الرعية ككل والاعتناء الشديد بالفئات الاجتماعية المحتاجة للعون والمساعدة من معاقين وغيرهم ودحض التفرقة من حيث الدين والجنس واللون في زمن كانت قبله بقليل تشعل مصر كلها تفرقة تستند الى المذهب بين ابناء العقيدة الدينية الواحدة ، في هذا الزمن بالذات جاء الخليفة الذي يعبر عن انسانية المبادىء الاسلامية في قوله لواليه على مصر في حديثه عن المصريين (فانهم صنفان اما أخ لك في الدين او نظير لك في الخلق) كما سبق ان بينا •

واخلص المصريون للدولة الاسلامية وحافظ المسلمون على حقوق الاقباط وحرياتهم في المعتقد والفكر والاجتماع واستمرت هذه الحقوق واستمرت هذه الحريات ما استمر حكم مختلف الدول الاسلامية بمختلف أنظمتها ومختلف حكامها ، وكان المسيحيون واليهود يعاملون كمواطنين لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم في مختلف نواحي الحياة المدنية السياسية منها والاجتماعية وقد فتحت امامهم جميع مراكز الحكم فتقلدوا مراكز الوزارة مرارا وفي عهود مختلفة سبق ان اشرنا اليها ولكن كيف كان موقعهم من الادارة بعد الفتح الاسلامي ؟

يحدثنا المؤرخون بأنه لاول مرة منذ زمن طويل اصبح للمصريين بعد الفتح الاسلامي دور في ادارة بلادهم وكان للاقباط من المسيحيين الحصة الكبرى في هذا الدور فقد استخدم العرب الفاتحون القبط في كثير من الوظائف وبخاصة ما يتعلق منها بجمع الضرائب والاعمال الحسابية واحلوهم في ادارة بلادهم محل الروم الذين كانوا قبل الفتح العربي في نفس وظائفهم واعمالهم ، فكان منهم حكام للكور ورؤساء للدواوين ، بالاضافة الى بعض الوظائف الصغيرة ، ومن هؤلاء عامل يدعى ميناس استبقاه المسلمون في عمله كحاكم للمنطقة الشمالية ، وآخر يدعى

شنودة وكلت اليه حكومة الريف وثالث تولى حكومة الفيوم وكـان بالحكومة المركزية في الفسطاط كاتبان قبطيان لادارة مصر العليا ومصر السفلى وبرز في عهد مروان ابن عبد الحكم كاتب قبطي يدعى أتناسيوس الرهاوي بلغ درجة الرئاسة على ديوان الاسكندرية وتلقب في المكاتبات الرسمية بلقب الكاتب الافخم وكان بديوانه تحت رئاسته عشرون كاتبا زيدوا الى اربعة واربعين وفي عهد عبد العزيز ابن مروان كان والـي الصعيد قبطيا اسمه بطرس وحاكم مريوط قبطيا اسمه ثاوفانس (١٧٠) .

ولكن المؤرخين يتحدثون عن ثورات قام بها الاقباط فـي مصر ويتحدثون بما ينبيء عن انها كانت تتيجة تخلي بعض الحكام المسلمين عن المفاهيم والمبادىء التي ذكرنا ، في شؤون الحكم ، وكانت الاطمـاع الشخصية قد اخذت طريقها الى عقول هؤلاء وقلوبهم فافسدتها وبعثت فيها وفي الاعمال التي قاموا بها ما ينبيء عن الانحراف الذي يؤدي الى الفساد ، ولكن مدة هذه الثورات من الزمن وسرعة اعادة الامور الـى طبيعتها كانت تؤدي الى التقليل من تأثيرها على مجرى الحياة في مصر وعلى ديمومه المبادىء الاسلامية في التسامح والحرية والعدالة .

كان هم بعض الولاة الاثراء السريع وكانوا يرون الطريق اليه في زيادة الجزية على الاقباط وقد ظهر شيء يشبه ذلك من عمرو بن العاص نفسه في ولايته الثانية حيث اشتط على القبط وصادر اموال بعضهم وكان للمنازعات والحروب والفتن الدامية التي حدثت في صدر الدولـة الاسلامية اثرها في ذلك . والمظالم التي ادت اليها هذه الاحداث لم يكن ينجو منها المسلمون أنفسهم .

ولو قارنا عدد الثورات التي قام بها الاقباط في مصر مع عدد الفتن والثورات الداخلية للمسلمين في مختلف مذاهبهم لما كان لها ان تبدو كثيرة او ذات اهمية .

اولى هذه الثورات كانت في العام ١٠٧ ه ويحدثنا المقريزي بانها اخمدت خلال ثلاثة اشهر .

عام ١٢١ ه انتفض الاقباط في الصعيد وعام ١٣٢ ه ثاروا في سنمور وعام ١٤٢ ه كانت ثورتهم في رشيد وعام ١٥٠ ه ثاروا في سخا وشبرا وعام ١٥٦ ه انتفض القبط ببلهيب ثم خلدوا الى الهدوء حتى عام ٢١٦ه حيث كانت لهم ثورة استدعت مجيء المأمون الى مصر لاخمادها .

اما الثورات التي حدثت في عهود بني امية فقد كان سببها جشع بعض الولاة والخلفاء وحاجتهم الى المال الذي كان يصرف في بعض الاحيان في وجوه غير صحيحة ويبذر في طرق بعيدة عن اوامر الدين ونواهيه وكانت الحاجة الى المال تستدعي زيادة الضرائب ومنها الجزية بطبيعة الحال ويتحدث المؤرخون عن قصة جرت وقائعها في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز وقد اشتهر بورعه وتقواه فقد استعظم الوالي الاموي بشر بن صفوان تناقص الخراج بسبب كثرة الخارجين عن النصرانية الى الاسلام واراد ان يضع حدا لهذه الظاهرة وانبأ عمر بن عبد العزيز بذلك فأغلظ له عمر القول والمعاملة وقال له مؤنبا : ان الله قد بعث محمدا هاديا لا جابيا .

كانت الثورات التي قام بها الاقباط على اختلاف اسبابها ومسببيها نتيجة انحرافات لم تلبث ان قومت وزال أثرها واصبحت ذكرى تاريخية فحسب ، ولكنها لم تزعزع مسلسل العلاقات الحسنة بين ابناء الوطن الواحد ولا أزالت تمتع الاقباط المسيحيين بالحقوق والحريات التي سبق الحديث عنها ولا روح التضامن والاندماج في المجتمع المصري الذي كان نتاجا تاريخيا لذلك التفاعل المستمر سياسيا واقتصاديا وفكريا مع الحضارة الاسلامية ، يؤيد كل ذلك موقف الاقباط من الصليبيين وحروبهم وهو الموقف الذي يؤكد لنا كون اسباب جميع

هذه الثورات لم تتوغل في ضمير الاقباط كمجتمع ولا دخلت شعورهم الوطني فاحدثت فيه الخلل والثغرات ولولا كل ذلك لكان منطق الامور يملي عليهم الوقوف الى جانب الصليبيين عند غزوهم لمصر ولكن ما حدث كان عكس هذا المنطق لان مدة الوفاق او الاندماج وزمنه واسبابه ونتائجه والمبادىء التي رسمت خطوطه كانت اقوى من ان تتأثر بثورة ضد نزوات حاكم او انحراف فئة ، فتطور الاحداث لدى الاقباط اذن كان في اتجاه معاكس لظواهر الثورة التي ما كانت تشتعل الا لتخبو في مدة ليس لها في التاريخ سوى أثر الحدث العابر الذي لا يغير مجرى الامور ولا يبدل في وجهاتها . لقد اعترض الاقباط على اعتبار الغزاة الصليبيين مسيحيين مثلهم لانهم فطنوا الى زيف الشعار الذي يحملون . (وانما كانت النظرة القبطية اليهم على قدر الحقيقة غزاة يريدون اغتصاب ارض الوطن . وفشل الصليبيون في احتلال مصر فثارت ثائرتهم وزاد من حنقهم موقف الاقباط منهم فلم يساعدوهم بل تصدوا لهم مثل المسلمين يدا واحدة وجيشا واحدا يدفع غزو المعتدين فكان ان اصدر الصليبيون قرارا بمنع اقباط مصر من زيارة القبر المقدس في القدس (١٧١) ولما انهزم الصليبيون ابتهج الاقباط لدحرهم حتى ان الملك الكامل لما رأى ذلك منهم رفعهم وقربهم وعمل على ما فيه راحتهم (١٧٢))

وقد كان موقف الكنيسة القبطية من الارساليات التبشيرية يشير الى رفض مشابه لما حدث من موقفها من الحروب الصليبية . كان هدف الارساليات الاميركية والارساليات البريطانية محاربة الكنيسة القبطية والقضاء عليها وان اختلف الاسلوب المتبع في الوصول الى ذلك الهدف . فبينما كان الانكليز يحاولون التغلغل داخل الكنيسة القبطية لنشر تعاليمهم وتطويعها كان الاميركيون يرون ضرورة العمل السريع للقضاء عليها .

وكان ذلك الموقف الرافض لهم في مصر تعبيرا عن رغبة الاقباط

في حفظ الدين المسيحي في مصر بعيدا عن اي تدخل اجنبي او تعاليم دخيلة على معتقداتهم • وهكذا ادت مواقف الاقباط من الصليبيين واهدافهم الاستعمارية الخالصة التي كانت تقوم على خلاف ما ينادون به ، الى تجنيبهم الكثير من المتاعب التي تعرضت لها بعض الاقليات المسيحية واليهودية التي ساعدت الصليبيين خارج مصر بدافع من اغراءات متمادية في القيمة احيانا ومن حقد جاهل يتناسى مصلحته الوطنية وراء اغراضه وغاياته الشخصية والعنصرية والدينية •

ولكنها فوق ذلك كله كرست تمسكهم بوطنهم وامتهم وابقت على علاقاتهم الاجتماعية الخاصة والعامة بعيدة عن متاهات التمزق والانصياع وراء تكون جديد لبنى اجتماعية جديدة ، غير مأمونة المصير ولا مضمونة العواقب ونشأ عن كل هذه الظروف التاريخية التي ذكرنا في خيرها وشرها مفهوم جديد للجامعة الوطنية ساهمت فيه المحن القاسية والثورات التي تتابعت بالقدر الذي عرفته مساهمة ايام النضال المشترك الطويل جنبا الى جنب بين المسلمين والاقباط •

وفي الوقت الذي كانت الاخطار تهدد كيان المسلمين ككل وكان التتار من جهة والصليبيون من جهة اخرى يخططون للقضاء على الدولة الاسلامية ، كان لموقف الاقباط من المسألة الاسلامية من الاثر ما يمكن ان يؤدي الى ترجيح الكفة لاي من الطرفين ، ولكنه انبثق من الروح الوطنية الصافية المتماسكة مع الحضارة التي حضنتها ولم تفرق بينها وبين المسلمين في شيء ولم تبخل على الاقباط بشيء فحققت المساواة التي انبتت التطور والتقدم في كل ربوع مصر وجعلتها مهد الفكر والثقافة •

تاريخ الاسلام في مصر يتماشى مع اوضاع مستقرة وجيدة لاهل الكتاب جعلتهم ينصهرون في المجتمع الاسلامي بشكل او بآخر عبر ذلك التسامح الذي سبق الحديث عنه • واذا كان الاقباط قد تمتعوا

بالحريات لعامة والحقوق الكاملة فان يهود مصر لم يكونوا أقل حظوة في الحصول على الحقوق ذاتها والتمتع بالحريات ذاتها • ويحدثنا التاريخ عن ان امور الدولة الفاطمية (التي قامت في مصر عام ٩٦٩ م) قد نظمت على يد رجل اعمال يهودي ذي كفاءة ادارية عالية هو يعقوب بن كلس الذي اعتنق الاسلام في اواخر حياته واصبح الوزير الاول للدولة الجديدة •

وقد جاء هو ايضا من العراق ، ولكنه قبل ان يتصل بالفاطميين امسك في الرملة (ثم في عاصمة فلسطين) بوكالة التجار وهي وظيفة كانت له علاقة بها • وربما كانت تشابه عمل القناصل من مدن ايطاليا التجارية وكان مشابها له في الجيل التالي اليهودي ابو سعد التستري ، الذي جاءت اسرته من جنوب فارس عبر العراق الى مصر وكان لبعض الوقت اقوى رجل في الدولة الفاطمية (١٧٣) وقد ظهر ان كاتبا في القرن العاشر يشير الى حقيقة ان القبول بسفتاجة كان اكبر من القبول بدخل من الخراج مما جعله يصل الى قرار مؤداه بأن (التجار اقوى سطوة من الوزراء) (١٧٤) علما بأن اليهود في كل انحاء المشرق العربي لم يتأثروا بالصليبيين وفتوحاتهم خلال كل علاقاتهم بالمسلمين لانهم لم يكونوا على الفة مع الشعارات التي حملها الصليبيون معهم من جهة ولان لتاريخهم مع مسيحيي اوروبا من الذكريات ما كان يدفعهم دفعا الى المعسكر الآخر او على الاقل الى الحياد التام وهم لم يسلموا مع كل ذلك من الحقد الصليبي وكانت مذابحهم في بيت المقدس مثلا كبيرا من امثلة القتل والدمار التي حملها الصليبيون الى هذه المنطقة • وطالما ان حديثنا يتناول يهود مصر فان من الواضح انهم كانوا في علاقاتهم مع المسلمين وتمتعهم بالحقوق والحريات في ممارسة شعائر دينهم وبناء كنائسهم في وضع متميز جعلهم يحصلون على ما ذكرنا من المساعدات والنفوذ •

ولا بد من ان نتذكر بعدئذ عهد المماليك الذين حملوا كل ثقل الدفاع عن الدولة الاسلامية تجاه عدوين جبارين هما التتار والصليبيون •

فماذا حدث لاوضاع اهل الكتاب في ظل حكمهم وهل تأثرت في مناعتها او ضعفها بهذا الدور الكبير الصعب الذي قدر لعهد المماليك ان يتحمل اوزاره ونتائجه ؟

حكمت دولة المماليك مصر والشام منذ منتصف القرن الثالث عشر للميلاد وقد ولدت كما ذكرنا في ظروف صعبة قاسية اذ كان عليها لحظة مولدها ان تواجه اكبر خطرين هددا الشرق العربي الاسلامي واتفقا على ان لهما عدوا واحدا مشتركا كبيرا يتمثل في الاسلام والمسلمين وجرت اتصالات كثيرة بين التتار وامراء الغرب من اجل دخولهم المسيحية في دعوة لسحق الاسلام بعدئذ • ولكن التتار اشترطوا دخول البابوية وكافة ملوك وامراء الغرب المسيحي تحت سيادتهم لاتمام الخطوة (١٧٥)•

وصل الصليبيون الى دمياط في مصر واحتلوها وقد وقف الاقباط مع مسلمي مصر في وجههم كما ذكرنا واستمرت حياة المسيحيين واليهود على حالها من الاستقرار والنفوذ حتى دخول نابليون بونابرت مصر في مطلع القرن التاسع عشر ونهاية القرن الثامن عشر حيث اطل العصر الحديث وبدأ ذلك الاصطدام الحضاري الذي ولد مختلف التيارات الفكرية الجديدة في هذه المنطقة من الشرق •

ونحن نريد ان نطل على تاريخ الاقباط الحديث من خلال وصف قدمه احد افراد البعثة العلمية الفرنسية التي رافقت نابليون بونابرت، لحالتهم الراهنة كما وجدها عند وصول البعثة جلبير دي شابرول وابرزها في دراسته عن سكان مصر المحدثين ، والبعثة لم تكن كامرأة القيصر بالنسبة لما كتبت ودونت ونشرت وكذلك جلبير ، رغم توخي الدقة فيما كانوا

يدونون ويكتبون وينشرون ، خصوصا عندما يتعلق الامـر بشؤون اسلامية من عقيدة او شريعة •

وتظهر في هذه الدراسة بوضوح تناقضات يسهل دحض الوهمي من اطرافها ، نظرا لبعده عن كل ما كتب المؤرخون اللاحقون ولتناقضه مع الحقائق والمسلمات التي لا ينازع بشأنها احد • فبينما يتحدث عن دور الاقباط الضئيل حين يقول : ولا يلعب الاقباط في مصر الا دورا ضئيلا ومهارة شعبهم هي مصدر حياتهم (ص ١٥) نسجل له في مكان آخر العبارة التالية : وقد لعبوا دورا في سياسة بلادهم بل ان المماليك انفسهم لم يكن بمقدورهم ان ينهوا امتيازا كهذا تدعمه مبادىء دينهم اكثر مما تدعمه العادة وفعل الزمن •

تناقض آخر ربما يبدو اشد اهمية يظهر حين نـرى دي شابرول يتحدث عن عيوب يتصف بها الاقباط مـن جشع وغيره فينسبها الـى الاذلال الذي تعرضوا له ثم نراه في مكان آخر يفصل من الوقائع ما ينم عن تمتعهم بحرية العبادة وحرية التصرف والحرية السياسية •

فعن عيوب يتصف بها الاقباط يقول دي شابرول : وبرغم هذا فان الاقباط لا يخلون من العيوب ـ وهذه العيوب انما هي نتيجة حتمية لتلك الحالة من الاذلال التي اتهوا اليها تحت حكم الاتراك ، فحيث انهم كانوا على الدوام مضطرين للاستكانة وللتظاهر بخلاف ما يبطنون فقد اصبحت الغالبية منهم تتصف بصفات الجشع وبأخلاق الاجراء المرتزقين• وهذه بالتأكيد هي مسيرة كل الشعوب المقهورة على مدار التاريـخ فالتقاعس والوحشية هما النتيجة الطبيعية للعبودية والاذلال • وبعـد الحديث عن الاذلال اللاحق بهم تحت حكم الاتراك ، حيث لا يقدم المؤرخ اية واقعة تثبت ذلك ولا يسرد اي مثال حي على ما يسميه الاذلال ، بعد ذلك نراه ينتقل الى الحديث عن ما يصور تمتعهم بحرية المعتقد وحرية

العبادة وحرية التصرف والحرية السياسية مؤكدا على استمرار هـذا الامتياز .

وليس يضير التاريخ الاسلامي في شيء ان يكون قد حدث ما يشبه الاذلال في عهد الاتراك فهذا العهد لم يكن مقدسا ولا حمل طابع الكمال عند المسلمين الذين تعرضوا هم ايضا خلال فترات طويلة لاضطهاد زاد عن كل ما تحمله اهل الكتاب ربما ، ولكن هذه الفترات لم تكن التاريخ العثماني كله ولا تاريخ الحكم الاسلامي كله بل كانت تعـود لانحرافات وتعديات تنتج عن ظروف خارجية وداخلية تعـود لضعف الدولة اكثر مما تعود لقسوتها ، وتعود لاستبداد وجهل الحكام دون ان يتحمل وزرها الاسلام كدين ونظام حياة .

ولكننا نواجه في ما يسرده المؤرخ فيما بعد تناقضا مع ما ذكر من ظلم واذلال وما رتب عليه من نتائج وصفات فهو يقول في حديثه عـن الاقباط (١٧٦) : ومع ذلك فقد بقيت لهم على الاقل حرية العبادة ، ذلك ان محمدا (صلعم) الذي كان سياسيا محنكا قد ترك للشعوب التي خضعت لسيطرته حرية ممارسة شعائرهم الدينية كما ترك لهم الحق فـي ان يسيروا امورهم بموجب قوانينهم الخاصة لكن داخل اطار سيطرة النظم الاسلامية ، وقد سار على نهجه القويم الخلفاء من بعده ، ولعل الديانة الاسلامية تدين بنجاحها السريع لهذا الاعتدال الحكيم اكثر مما تدين لقوة السلاح .

ومهما يكن الامر فان الاقباط ـ وعموما كل مسيحيي الشرق ـ قد لعبوا دورا في سياسة بلادهم بل ان المماليك انفسهم لم يكن بمقدورهم ان ينهوا امتيازا كهذا ، تدعمه مبادىء الدين اكثر مما تدعمه العادة وفعل الزمن .

انه يتناقض هنا مع ما ذكر من اذلال واضطهاد الاقباط عندما يعترف بتمتعهم بحرية العبادة • ورغم خلطه بين ما جاء في كتاب الله وما جاء في سنة الرسول وما يبدو من جهله لمصادر الشريعة في الاسلام فانه تلاحظ في كلامه صورة لما يتمتعون به من حرية ممارسة شعائرهم الدينية) وحرية التصرف (ان يسيروا امورهم بموجب قوانينهم الخاصة) والحرية السياسية (وعموما كل مسيحيي الشرق قد لعبوا دورا في سياسة الاسلام) • ان ما يقرر دي شابيرول في دراسته لا يعنينا الا من حيث كونه يعبر عن الحالة التي كان عليها الاقباط في مصر عند وصول بعثة نابليون والحريات التي يتمتعون بها ، وليس من حيث ما تحمل من احكام تتعلق بالدين الاسلامي وتعامله مع سائر الاديان •

ويظهر من حديثه ان الاقباط كانوا يتمتعون بشيء من الاستقلال القضائي حتى خارج نطاق الاحوال الشخصية في ما يتعلق بالخلافات التي تظهر بين الاقباط وحتى اننا نرى لمحكمة البطريرك بعض الصلاحيات فيما يتعلق ببعض الخلافات بين افراد مسلمين واقباط فالمسلم مضطر لرفع دعواه امام البطريرك احيانا • يقول دي شابيرول : وتتخذ امة الاقباط كرئيس اعلى لها وكزعيم ديني ودنيوي حبرا هو الشخصية الاولى في الكنيسة ويلقب بالبطريرك ، ولا تعرف لسلطته حدود الا ما تفرضه العادات المستقرة وارادة حكام البلاد • وهو يفصل في كل الخلافات التي تقع بين كل رعيته • لكن حكمه في ذلك ليس نهائيا اذ يمكن للاطراف المتنازعة باتفاق فيما بينها ، ان ترفع الامر الى القاضي الذي يقر عادة حكم البطريرك ، اما الجنح فتعامل بطريقة اخرى ، فالبطريرك لا يفصل الا في الجرائم الصغيرة التي لا تتطلب الا عقابا اصلاحيا فعندما يتهم قبطي على سبيل المثال بالسرقة من احد المسلمين ، فان المسلم يرفع شكواه الى البطريرك ، اما اذا كان المسلم على عكس ذلك هو السارق

فان القبطي يرفع شكايته امام القاضي او يطلب العدالة من حاكم المدينة نفسه ويقوم الطرف القبطي بنفسه بتقدير حقوقه امام المحاكم .

اما حوادث القتل والجرائم الكبرى فليست من اختصاص محكمة البطريرك ، فهي من اختصاص الضباط المكلفين من قبل شرطة المدن بمطاردة ومعاقبة كبار المذنبين .

من هذا الكلام للمؤرخ الفرنسي نلاحظ ان في النظام الاسلامي الحاكم في نهاية عهد المماليك وما كان فيه من فوضى واضطراب وخروج عن احكام العدالة باسم الدين وعلى حسابه ، كانت محكمة البطريرك ذات صلاحية للنظر في جميع امور الاقباط المدنية والجزائية باستثناء حوادث القتل والجرائم الكبرى وانها ذات صلاحية ايضا للفصل في الدعاوى التي يقيمها المسلمون على افراد من الاقباط ، وعندما يكون الجاني من المسلمين والمدعي من الاقباط تقام الدعوى امام القاضي او امام حاكم المدينة نفسه وفي هذه الحالة يتمتع الطرف القبطي بحق تقدير حقوقه بنفسه امام المحاكم .

ربما يرى الباحث المنصف في هذه الامور التي يرويها دي شابيرول امتيازا يتمثل في حق القبطي بالدفاع امام محكمته الملية حتى فيما يتعلق بقسم كبير من الدعاوى المدنية .

اما لماذا لم تمنح المحكمة الملية حق البت بالجنايات والجرائم الكبرى فربما يعود ذلك الى عدم رغبة البطريرك بزج نفسه في هذه الامور التي ربما تعلقت بأمن الدولة في انظمة كنظام المماليك تخضع لدكتاتورية صارخة ربما تعدت كل حدود القانون والنظام ، مما يعرض هيبة البطريرك وكيان طائفته لمشاكل هو بغنى عنها .

ويلاحظ المؤرخ المذكور ان اختيار البطريرك يتم على الدوام من

بين رهبان دير سان انطوان ويتم ذلك بالانتخاب وعندما يراد اختيار خليفة له فان المطارنة وكبار القسس ينضمون الى كبار رجالات الامة القبطية وتتكون الجمعية العمومية من ٤٠ ـ ٥٠ شخصا ثم يشرعون في عملية الانتخاب ويعين الراهب الذي يحصل على اكبر عدد من الاصوات في منصب البطريرك •

ويلاحظ دي شابرول ايضا (ان للقبطي ثقة عمياء في قساوسة طائفته ولهؤلاء القسس تأثير كبير على النفوس ، وبمقدورهم بقليل من الحيلة ان يسيئوا استغلال ذلك التقديس الذي يحيطهم الناس به ليعودوا بالنفع على انفسهم • لكنهم في غالب الاحيان جهلة مثل باقي ابناء الشعب وليس بينهم الاعدد ضئيل للغاية قد وصلوا الى درجة من العلم يستطيعون معها ان يقرأوا كتب الطقوس الدينية وهي الكتب الوحيدة التي ما تزال تستخدم اللغة القبطية حتى اليوم •

ويبدو ان التعليم ميسور لابناء الاقباط لجميع الاطفال الذكور في سن الدراسة اذ يرسلون ابناءهم الى مدارس صغيرة حيث يتعلمون القراءة والكتابة الى جانب المبادىء الاولى للدين • لكن دى شابرول يلاحظ (ان الفتيات لا يستطعن الذهاب الى المدرسة الا بموافقة أمهاتهن اللاتي يعترضن على ذلك في بعض الاحيان • ولم نشاهد في القاهرة فتاة واحدة تتردد على المدرسة وعلى العكس من ذلك في الصعيد حيث يذهبن الى المدارس هناك مثل الأولاد ولا ينقطعن عن الذهاب الى المدرسة حتى في سن الثامنة أو التاسعة وهو السن الذي يبدأن فيه في التشكل ولا يعدن اطفالا) •

والكاتب اذ يصف مظاهر الحياة في مصر يلاحظ اذن ان جميع الابناء يذهبون الى المدارس واذا كان يلاحظ ايضا ان الفتيات لا يستطعن الذهاب الى المدرسة الا بموافقة أمهاتهن وان فتيات القاهرة لا يذهبن مطلقا الى المدرسة ، فان اسباب ذلك عند الاقباط لا تتعدى العادات والتقاليد ولا تعود

الى موانع يضعها النظام السياسي وهو من أشد الانظمة الاسلامية تفككا في ذلك الحين ، يظهر ذلك كون جميـــع الفتيات في الصعيد يذهبن الى المدرسة دون أي حائل • واذا كانت حرية التعلم بهذا القدر من السعـــة والشمول فان تقاعس البعض في ارسال بناتهن لا يتأتى عن مـا يمس بهذه الحرية • ولم يكن ذلك الزمن بمؤات لفرض التعليم الالزامي في مصر •

اذن كان الاقباط حتى مطلع القرن التاسع عشر يتمتعون بحريـة المعتقد وحرية التصرف وحرية التعلم والحرية السيسية بالقدر المتعارف عليه في مصر في تلك الظروف وبشكل يجعلهم (يلعبون دورا في سياسة بلادهم مما يستدعي تطورا كبيرا ، وهذا ربما يعني ان سائر مسيحيي المشرق يتمتعون مثلهم بهذه الحرية في ظل الحكم المملوكي وانهم يتمتعون بشيء من الاستقلال القضائي يكاد يصل لدرجة الامتياز ، وان اختيار رئيسهم يتم بالانتخاب وان اكثر قساوستهم (جهلة مثل بقية الشعب) [١٧٧]

فكيف تطورت هذه الاوضاع بعد ذلك الزمن وبعد ان تزايدت الدول المسيحية في اوروبا قوة وشدة وزاد تدخلها في شؤون البلاد الاسلامية سعة وعمقا ؟

من نتائج هذه الاوضاع التي كانت تميز الاقباط نشأت الروح الوطنية التي سادت مصر بعدئذ على شيء من الوحدة والوئام بين جميع الطوائف•

لقد تفاعلت اوضاع الاقباط بعد احتلال نابليون وأدت فـــي نهاية القرن التاسع عشر الى بعث الروح الوطنية بكل معطياتها ، رغـم الاحتلال البريطاني الذي لم يتمكن من القضاء على الوحدة الوطنية رغم كل الظروف التي أحاط بها مصر وكل الاساليب التي استعمل من اجل القضاء على هذه الروح •

وليس غريبا ان يكون الاقباط في طليعة المواجهة مع الحكم البريطاني

وأن يكون ذلك تنيجة المساواة الكاملة التي تمتعوا بها في أحلك ظـروف مصر وأشدها استبدادا خلال الحكم الاسلامي •

يقول لوثروب ستودارد في كتابه (حاضر العالم الاسلامي) :

فهذه المفاسد الناشئة عن تيار التغرب انما هي من الاسـباب الكبرى في انتشار روح البغضاء والكره في أصقاع الشرق لكل شيء غربي وقـد عمت هذه الروح حتى شملت الكثير من اولئك الواقفين على طبائع حضارة الغرب وعمرانه حق الوقوف ، فساعد ذلك كله على ازدياد الروح الرجعية المقاومة لسيطرة الغرب السياسية •

هنا يمكن ان نتساءل : هل اقتصرت (المقـاومة لسيطرة الغـرب السياسية) على المسلمين وحدهم من دون المسيحيين الذين حاول هـذا الغرب نفسه استمالتهم وجعلهم أداة لتحقيق غاياته السياسية والاقتصادية والثقـافية ؟•

ان الواقع الاجتماعي والسياسي والتاريخي يثبت العكس فـي كـل ما صدر عن سياسيي الغرب من قول وعمل ، فهم لم يفرقوا فيما ينسبـون الى الشرقيين بين مسيحي او مسلم رغم كل مـا ظهر من محاولات لنشر بذور الفتنة في تصنع المؤازرة والتأييد لبعض الطوائف ، في هذه الفترة من الزمن •

وكلمة اللورد كرومر التي تتناول جميع الشعوب الشرقية دون تمييز تبدو معبرة في هذا المجال : (في حال حكم الشعوب الشرقية يجب فـي المقام الاول اتباع ما هو خير وصالح لهـذه الشعوب ، ولكن ليس مـن الضرورة اتباع ما تخاله هي لنفسها خيرا ومصلحة) • (١٧٨) وفي ذلـك اشارة الى حالة العجز الفكري التي يتهم بها الشعوب الشرقية عامة •

يقــول الامير شكيب أرسلان في تعليقه علــى كلام اللــورد كرومر وأعماله (١٧٩) : وان جميع ما يدعيه هذا الرجل وأمثاله من عــدم قابلــية الشعوب الشرقية للرقي ، ان هــو الا من الاستدلالات الاستعمارية الــتي مرماهم فيها معروف ، وهو ان يجعلوا حكمهم لهذه الشعوب سرمدا .

ويقول الكاتب الامريكي لوثروب ستودارد:وفي مصر عنصر نصراني قديم الارومة هم الاقباط الذين لم يدينوا بالاسلام عند طمو الفتح العربي وعددهم اليوم يبلغ العشر من مجموع قطين مصر . فبلاد مثل مصر ، مختلط لمختلف الاجناس والاصول والعقائد وصنوف الثقافة والتهذيب .

هذه الاجناس المختلفة الاصول والعقائد ، ذات الثقافات المختلفة ، اثبتت منذ نهاية القرن التاسع عشر الذي يتكلم عنه المؤلف ، عبــر مختلف الحركات الفكرية والسياسية انها تحمل سمة الأمة الواحدة التي تجمع بين كل هذه الاصول والعقائد في بوتقة وطنية واحدة .

الاختلافات وخاصة الطائفية منها كانت بعيدة عن كل ما جرى ، فمن الوجهة الفكرية أدت مختلف وجوه الثقافة الغربية والانبهار الذي أحدثته والهزة التي نجمت عنها في مصر الى ظهور حــركة سياسية شعارها (مصر للمصريين) تشرب اصحابها العقائد الغربية كالجنسية والوطنية وسعــوا ليجعلوا مستقبل مصر في مأمن من الطوارىء التي تهدد كيانها عبر استقلالها واقتصــادها .

ومما يلاحظ ان هذه الحركة كانت بعيدة عن الطابع الديني تهــدف لجمع المصريين تحت ظــل راية الوطن ومقــاومة المستعمرين البريطانيين لاجلائهم وللحصول على الاستقلال . وقد كان لها بين الاقباط من المؤيدين ما اعطاها الطــابع الوطني العــام بعيدا عن التفرقة الدينية او العرقية او الاجتماعية .

وفي سنة ١٨٨٢ انفجر بركان الثورة بقيادة عرابي باشا وهـو من ضباط الجيش ومن عامة الشعب فكـان ، والكلام لا يـزال للوثروب ستودارد ، اول متحدر من اهل مصر القدمـاء من الأرومة النيلية ، نهض للقيام بقيادة الثورة ومـا اسرع ما لبى نداءه عامة الشعب وهم يصرخون (مصر للمصريين) في محاولة لطرد الاجانب من مصر • واذا كانـت هذه الثورة قد انهارت بدخول البريطانيين مصر على اثرها ، حيث نزل الجيش البريطاني وقاتل الثوار وانتصر عليهم في موقعة (التل الكبير) واحتل مصر بكاملها ، فانها كحادثة تاريخية ظهرت آثارها عبر مراحل مقاومة الاحتلال التالية ، في شمولية بعيدة عن أي تحرك طائفي •

حكم اللورد كرومر مصر خمسا وعشرين سنة ، ولكن الشعور القومي مـا زال ينمو في نفوس المصريين حتى بات عند نهاية العقد الأخير مـن القرن التاسع عشر حقيقة واقعة بتجمع المصريين من جميع الأديان •

جميع الحركات التي ناهضت الحكم البريطاني بما فيها الحركة التي تزعمها الشيخ محمد عبده المصلح الاسلامي الشهير كانت تنادي بالوحـدة والالفة بين جميع الطوائف والاديان وكانت حركات المقاومـة السياسـية تعبيرا صادقا عن هذا الاتجاه الذي يقول عنه المؤرخ ستودارد المشار اليه :

(ولعل الامر الاحرى بالاعتبار والاجدر بالتدبر في جميع القضـية ان المصريين قاطبة وقد تغلغلت في نفوسهم نشوة العصبية ، علـى اختلاف احزابهم محافظين وغلاة ، متفقون تمامـا على ان لا يعتبروا مصر تابعـة للامبراطورية) •

ثم كان عهد مصطفى كامل يسير على نفس النهج في تحرير مصر من الانتداب البريطاني • وكان في كل ما يقول ويعمل يشدد علـى الوحـدة والمساواة ، المساواة في الحقوق والواجبات التي تشمل جميع المصريـن

دون تفرقة . وكان مما كتبه في العام ١٨٩٦م تحت شعار : (المصريون لمصر ومصر للمصريين) :

« ان الحضارة المصرية لن يستوي لها ساق فـي المستقبل ولن يشيد لها بناء الا اذا قامت على سواعد اهل مصر واشترك فيها كل مصري ، وعلم الفلاح والتاجر والاستاذ والطالب ان الانسان ذو حقـوق معنوية مقدسة ، وأنـه ما خلق ليكون آلة مسخرة في يد غيره بل ليحيا حياة عقلية انسانية راقية انما بالوطنية ارتقت الأمم الى ذروة العلى . »

ونلاحظ هنا عدم الاشارة الى الدين او التراث وهو ما لم تخل منـه مقالة في العصور السابقة ، ربما كان ذلك ناشئا عن محاولة البعد عـن اثارة العواطف الطائفية بقدر ما هو خاضع لتأثير الحضارة الغربية الحافلة بمختلف المفاهيم الجديدة وفي التفسيرين يبرز الاهتمام بالوحدة الوطنية التـي حملت الاقباط على المساهمة في جميع الحركات الوطنية ويبرز هذا الدور في كثير مما كتب في ذلك العصر من مقالات وما صدر مـن كتـب وقد جاء في مقال عنوانه : (الظلام المخيم فوق مصر) نشر فـي احدى مجلات العلوم الكبرى (١٨٠) وهو يوضح : « ما قد بلغته الروح الوطنيـة والعصبية من الشدة الكبرى في مصر اليوم ، وذلك فيما اتخذ من محاولات للقضاء على جميع الحريات السياسية قضاء تامـا . وكان من شأنه كـم أفواه الصحف الوطنية كما خانقا مما قد توقعه ارباب النظر الصائب وهـو انـه قد حمل سواد المسلمين على الانقلاب الى حـال هياج واضطراب ، واوصل الاقباط المخلصين الى المجافاة فالمغاضبة ووغر الصدور » .

ولا بد من اجل تقصي اسباب هذا الكلام من مراقبة الاحداث التي جرت في مصر منذ العام ١٩١١ م وما كان من انذار كتشنر للمصريين من ان بريطانيا لا تنوي الجلاء عن وادي النيل ولا تعد اهل مصر اهلا للحكومة الشوروية النيابية حاضرا ومستقبلا ، وان الأجدر بالمصريين ان ينصرفـوا

عن مزاولة السياسة التي لا يصلحون لها (الى الزراعة التي يجيدونها في فن ومهارة) • ثم عطلت الحكومة البريطانية جميع الصحف المصرية الوطنية وشتتت شمل زعماء النهضة وقادة الحركة فزجت فريقا منهم في غياهب السجون واعتقلت البعض الآخر ونفت بعضهم ورافق ذلك على ما يقول المؤرخون سكون يشبه العاصفة لم يلبث ان تبدل الى اضطراب شديد •

لم يكن الاقباط بعيدين عن كل تلك الحركات التي تنادي بالسيادة المصرية • وكانت مظاهر الفكر الاسلامي تنادي بالالفة والمحبة في نشاط ملفت نحو تقصي مختلف مصادر الشرع الاسلامي بحثا عن وجوه الالفة والمحبة والتضامن الذي يتصل في عمق معانيه ليشمل مختلف المؤمنين في درجة اولى والبشر في درجة أبعد شمولية • ويشترك في ذلك مؤلفون مسيحيون ومسلمون ونرى مثلا في قراءة جرجي زيدان للتاريخ الاسلامي على ضوء معطيات العلم والعصر ملامح جديدة تظهر لحقائق خالدة ، وتحليلا عميقا لأسباب الاحداث ودوافعها يستخرج من خلالها الكثير مما عز فهمه واستيعابه على غيره • وكانت ثورة الرأي العام المصري بكل طوائفه خلال الحرب العالمية الاولى وبعدها مؤثرة في تعبيرها عن تضامن واتحاد شديدين : وفي ذلك يقول احد المؤرخين [١٨١] : وقد راع الشعور الوطني الشديد ارباب النظر والاستقصاء وهالتهم ثورة العصبية الجنسية المصرية، تلك الثورة التي كان من شأنها ان وحدت جميع طبقات الامة وألفت بين الاسلام والنصرانية : اذن كان الاقباط عاملا هاما في الثورة ضد الانتداب الانكليزي واشتركوا في جميع المظاهرات التي جرت في نهاية الحرب العالمية الاولى » •

وفي ذلك يقول كاتب ايطالي [١٨٢] تعليقا على التظاهرات الكبرى التي جرت في مصر خلال سنة ١٩١٩م : « ان هذه هي المرة الاولى في

التاريخ ، رأينا فيها الرايات خفاقة والاعلام خطارة في مصر وقد نسجت خيوطها أهلة وصلبانا ظهرت في وادي النيل » .

وجاء على لسان سيدة فرنسية قضت معظم حياتها في مصر (١٨٣) :
« قسيسون اقباط يعظون في المساجد الاسلامية وعلماء شيوخ مسلمون يعظون في الكنائس النصرانية ، طلبة من السوريين والموارنة والمسلمين ، وسيدات مصريات وتركيات ، جميعا على وئام وثيق واتحاد مكين في سبيل القضية الوطنية » .

اشتراك الاقباط في حركات التحرر والمظاهرات جنبا الى جنب مع المسلمين ومواعظ القسيسين في المساجد والشيوخ المسلمين في الكنائس يضاف الى ذلك النشاط النسائي الوطني ، مظاهر صادقة معبرة عن الوحدة الوطنية التي تحررها حرية المعتقد من قيود التعصب الديني المحطم لعرى الاتحاد الوطني ، وفوق ذلك كله يتجاوز الفكر الديني في انفتاحه على حقائق اسسه ، قيود التفرقة والتنابذ في معطيات تتجلى من خلالها عظمة الخالق في سماحة تعاليمه وسعة آياته وسمو مشيئته .

والأقباط الذين عرفوا كما سبق ان بينا ، اهم مناصب الدولة عبر مختلف عصور الحكم الاسلامي فكان منهم الوزراء والكتاب والأمراء والذين ساهموا مساهمة فعالة في البناء الحضاري الضخم الذي أنجز في قوة وفعالية ، وكان اثرهم واضحا في مختلف عصور التاريخ المصري ، تعرضوا لهزات كانت اسبابها غريبة عن جسم المجتمع الاسلامي لانها مضرة بذلك الجسم اكثر من ضررها اللاحق بهم لانها كانت تبدو نتيجة استبداد او انحراف اكثر منها انعكاسا لنظام حكم أو مؤسسات دولة .

ومنذ العام ١٩١٩م اصبح دور الاقباط اشد وضوحا في الحياة السياسية في مصر بعد كل المحاولات التي جرت لاستدراجهم في خدمة

المصالح السياسية والاقتصادية لبريطانيا وغيرها من الدول المسيحية ، ولم تنتج هذه المحاولات سوى آثار محدودة وعلى صعيد شبه شخصي بعيدا عن أي استقطاب كبير فاعل ومؤثر .

ويحدثنا التاريخ عن ان نتائج مشابهة لمحاولات مشابهة حدثت بين المسامين ولم تتعد ايضا نطاق الخصوصيات البعيدة عن الاستقطاب الكبير المؤثر . فالبريطانيون تصوروا ان طبقة الفلاحين المصريين كانت تميل (وتدين بنعمتها اليهم) على حد تعبير جريدة (التيمس) اللندنية على لسان السير فالنتين تشيرول (١٨٤) على أثر (قيام سواد الفلاحين المصريين) ضد الاحتلال البريطاني وهو ما يعتبره مفاجأة غير سارة في ذلك الزمن الذي يلي مباشرة نهاية الحرب الكونية الاولى .

ومنذ العام ١٩٢٢م أصبح اشتراك الأقباط في كل حكومة مصرية أمرا بديهيا ومؤكدا بوزيرين اثنين في أغلب الوزارات وزاد في تأكيد الوحدة الوطنية ظهور حزب الوفد وتقدمه على النطاق الشعبي على أثر مواقف وطنية معينة . وكانت مساهمة الاقباط فيه شديدة وتأييدهم له كبيرا وكان منهم بعض من أقطاب هذا الحزب الذي تسلم السلطة لفترات طويلة بعد ذلك التاريخ .

وبعد هذا يصبح التحدث عن اوضاع اهل الكتاب منذ مطلع القرن التاسع عشر حتى اليوم في مصر ممكن التحديد على أساس المساواة مع اخوانهم المسلمين في جميع النواحي المدنية والتمتع بالحريات التي كان يتمتع بها المسلمون كمواطنين ، واذا كان ما حدثنا عنه دى شابرول يصف أوضاع الأقباط عند دخول الفرنسيين الى مصر ومن هذه الاوضاع ما هو أقرب الى الامتيازات منه الى المساواة ، واذا كان استقلالهم في ادارة أمورهم وكل ما يتعلق بهم هو اهم ما كانوا يتمتعون به من حقوق قبل مجيء نابليون وفي ظل حكومة اسلامية كانت بمنأى عن الغزو العسكري ، فان

اوضاعهم بعد الاحتلال الفرنسي وبعد الجلاء الفرنسي لا يمكن ان تتصور في حالة سيئة ، لأنه حتى بعد الجلاء عن مصر صار نظام الحكــم الاسلامي فيها ضعيف الاستقرار معرضا لضغط خــارجي متواصل شديد مــن دول مسيحية غربية انتهى باحتلال مصر من قبل الجيش البريطاني فــي مطلع الربع الاخير من القرن التاسع عشر .

وبلغ الصراع ذروته بعد الاحتلال البريطاني لمصر وكان دور الأقباط كما بينا متضامنا مع مواطنيهم في مقاومة هذا الاحتلال بنفس الشدة والعنف الذي قاومه بهما سائر المواطنين من المسلمين مما أثار الدهشة والاستهجان لدى رجال السياسة والفكر الغربيين وكان مثار تعليقات في الصحف قدمنا نموذجا منها .

وفي مطلع القرن العشرين اخذ مفهوم المواطن والمواطنية يزداد تبلورا عن طريق المفاهيم الحضارية الجديدة من جهة والممارسات الوطنية التي كانت تفرضها مداخلات الاحتلال البريطاني من جهة اخرى . وساد نــوع من المساواة العصرية في دستور حديث واستمرت الاوضاع متساوية بين جميع المواطنين تقطعها بين الحين والآخر فترات استبداد تشمل جميع المصريين بخيرها وشرها من مسلمين وأقباط .

ان سرعة استجابة الأقباط للتحدي التاريخي الوطني الذي نجم عن احتلال بريطانيا لمصر كان في نظر البريطانيين ظاهــرة تستحق الاهتمام . ولكن هل كانت كذلك في عرف التاريخ ونظر قواعده ومؤثراته ؟.

عدة ملاحظات تبرز في هذا المجال أهمها ان التاريخ لم يعــرف فاتحا يتمتع بتأييد ابناء البلد المحتل الا ويكون ذلك نتيجة اضطهاد سابق أعاق معطيات التطور الاجتماعي والسياسي والاقتصادي لدى الفئات التي قدمت الولاء لمن خلصها من ذلك الاضطهاد .

ولو كان الأقباط قد تعرضوا للاضطهاد على يد المسلمين من مواطنيهم لتحتم ان يتم ذلك على حساب الوحدة الوطنية ، لان الاستبداد والظلم اذ يعيقان حركة المجتمعات نحو الافضل والأحسن ، يحطمان كل أثر للشعور الوطني وليس أقسى من الاحساس بعدم المساواة في تحطيم ذلك الشعور .

في منتصف السبعينات بدأت كما تعلم التحولات الكبرى في اتجاهات مصر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وكان كل ذلك يحتاج لدوافع داخلية وخارجية ، لعبت السياسة الدولية دورا كبيرا في تهيئتها وقولبة أحداثها ودفعها في مجاري المجتمع المصري عبر اجهزتها في الداخل والخارج .. وكانت الظواهر المعبرة عن تلك الاتجاهات تتوالى شديدة حينا متراخية بطيئة حينا آخر .

عام ١٩٧٣م خرج المستشار جميل صادق المرصفاوي رئيس محكمة النقض في مصر ، عن صمته فجأة ليدلي بعدة تصريحات قال : (ان اللجنة العليا لتطوير القوانين قد انتهت من مشروعات القوانين وارسالها الى وزارة العدل لتطبيقها على كل السكان من المصريين وغير المصريين والمسلمين وغير المسلمين عملا باقليمية القوانين [١٨٥] وقد أوجز هذه القوانين ، والكلام للدكتور شكري غالي ، فاذا بها لا تخرج عن مقترحات الازهر .

وبالرغم من ان هذه الأفكار الرسمية قد واكبتها حملة رسمية ايضا على اليسار والالحاد والمنظمات الاسلامية الا أن الكنيسة القبطية قد استقبلتها وكأنها المستهدفة بها اولا واخيرا .

وفي السابع عشر من يناير (كانون الثاني ١٩٧٧م) عقد أخطر مؤتمر ديني مسيحي في تاريخ البلاد منذ ستة وستين عاما [١٨٦] وقال البيان الذي صدر عن المؤتمر ولم ينشر : (ووضع الجميع نصب أعينهم ـ رعاة

ورعية ـ اعتبارين لا ينفصل احدهما عن الآخر : أولهما الايمان الراسخ بالكنيسة القبطية الخالدة في مصر والتي كرستها كرازة مرقس الرسول وتضحيات شهدائنا الابرار .

والأمر الثاني الأمانة الكاملة للوطن المفدى الذي يمثل الاقباط أقدم وأعرق سلالاته حتى انه قد لا يوجد شعب في العالم له ارتباط بتراث أرضه وقوميته مثل ارتباط القبط بمصر) .

ثم عرض البيان للمسائل المطروحة للبحث وهي : حرية العقيدة ، وحرية ممارسة الشعائر الدينية ، وحماية الاسرة ، والزواج المسيحي ، وتكافؤ الفرص ، وتمثيل المسيحيين في الهيئات النيابية ، والتحذير من الاتجاهات الدينية المتطرفة .

وقد عقد مؤتمر قبطي في ملبورن عاصمة استراليا [١٨٧] يوم السبت ٢٥ يونيو سنة ١٩٧٧ م وفي سيدني يوم الاحد ٣ يوليو سنة ١٩٧٧ م بحثا في نفس القضايا التي وردت في البيان المشار اليه اعلاه ، وهكذا ظهرت هذه المحاولات لايجاد (مسألة قبطية) في الاعلام الخارجي حتى ان مجلة متخصصة صدرت بالفرنسية في باريس تدعى (العالم القبطي) وكما حدث عام ١٩١١م حين عقد (المؤتمر الاسلامي) المضاد لمؤتمر الأقباط وكاد يتكرس الانقسام الطائفي تحت راية الاحتلال البريطاني فقد عقد في شهر تموز مؤتمر (الهيئات والجماعات الاسلامية) تحت رعاية الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الجامع الأزهر واشتركت فيه الهيئات والجمعيات الاسلامية في مصر وكان البيان الذي صدر عنه حريصا على خاتمة تقول : (اشترك في المؤتمر الازهر وهيئاته) أي أنه كبيان مؤتمر الاسكندرية المسيحي يستظل بالشرعية [١٨٨] .

ان ظل التصنع والاثارة يكمن وراء كل هذه الوقائع التي سارت

في طريق اثارة الفتنة الطائفية في مصر • إن تاريخ مصر الحديث والفكر الذي عبرت عنه سلسلة من ابنائها أمثال رفاعة الطهطاوي ومحمد عبده وعلي عبد الرزاق وطه حسين ليتناقض في وقائعه ومعطياته مع كل هذا الاتجاه الطائفي البعيد عن كل ما طالب به اولئك المفكرون من اصلاح ديني وديمقراطية وفتح لباب الاجتهاد ، فكانوا أشد وأبلغ تعبيرا عن الوجدان العربي العام وعن الضمير الشعبي في مصر وعن المبادىء الاسلامية التي حملها تراث كبير قديم من التسامح والوئام وتقديس حريات الآخرين ، وظل الفكر الديني المتعصب بعيدا عن ايجاد قاعدة شعبية ذات أبعاد كافية لايصال ممثل واحد الى الحكم ، والملاحظة السوسيو ثقافية على هذا التفكير الذي شهدته نهاية العقد الثامن من القرن العشرين انه في غالبيته الساحقة (مستورد) وليس نباتا أصيلا في أرض مصر وأرض العرب ، كما يقول الدكتور غالي شكري •

لقد كان الاقباط عامة في طليعة صانعي حركات التحرر الحديثةفي مصر وكانت التدخلات والمؤامرات الاجنبية وراء جميع الازمات التي اخمدت دون ان تؤدي واحدة منها الى زعزعة الوحدة الوطنية التي كان يسعى اليها اعداء مصر في كل زمان ومكان • كما كانت الرعاية التي قدمها المواطنون المسلمون بمن خرج منهم من مفكرين وحكام تنبثق في مختلف ملامحها وتطوراتها من المبادىء الاساسية التي قدمها النظام الاسلامي للعلاقة بين المواطنين من مختلف الأديان • ومهما تعرجت هذه العلاقة في تباعد وتقارب خيوطها عبر مختلف الأزمنة فان الرابطة العامة المنبثقة عن تلك المبادىء قد حافظت على حد ادنى دائم حفظ للأقباط حرية المعتقد وممارسة الشعائر والفكر الديني على الأقل ، في أخطر الظروف وأدقها حساسية بالنسبة للوطن وللمواطنين ككل ، وكان من نتائج ذلك اندماجهم وانصهارهم مع اخوانهم بعد أية سحابة من تشنج مهما بلغت قسوة الوقائع

الناجمة عنه ، ولم تؤد جميع الجهود الاجنبية التي بذلت في تاريـخ مصر الحديث من اجل خلق التصدع الطائفي الى تحقيق اهدافها فواجهت نفس المصير الذي واجهته مثيلاتها في السابق سواء في عصر الغزو الصليبي أو الفرنسي او غيرهما • ويمكن في سبيل توضيح ما ذكرنا الاستمـاع الى هذا الكلام للدكتور ميلاد حنا :

في ٢٠ ابريل ١٩١٩ م احتفل الاقباط بعيد القيامة فتحول الى عيد قومي للأمة كلها ، فازدحمت دار البطريركية على اتساعها بالعلمـاء وطلاب الأزهر وألقى كل من المشايـخ مصطفى القـايات ومحمد أبو شادي وعلي سرور الزنكلوني خطبا تفيض بمعاني الاتحـاد ورد عليهم كثير من الاقباط بخطب مماثلة من بينهم ابراهيم تكلا وخليل مطران وغيرهم • وبعد ذلـك بأيام في ٢٤ ابـريل ذهب وفـد من السيدات الأقباط في مظاهرة لتعضيد مجموعة مماثلة من السيدات المسلمات في جامع السيدة زينب بالقاهرة •

وتكرر عيد الاندمـاج والانصهار مرة اخرى يوم ٢٩ يونيو من نفس العام حيث احتفل المصريون جميعا بعيد الفطر المبارك في الجامـع الأزهر بالقاهرة وفي جامع ابو العباس بالاسكندرية وفي كـافة انحـاء البلاد ، فقد كانت دور العبادة هي الأماكن المؤهلة منطقيا لتجمهر وتجمـع المواطنين في ذلـك الوقت •

ان ثورة ١٩١٩م التي كانت بداية لتحرر المرأة ومشاركتها للرجل في الكفـاح السياسي تعبر عـن انصهار جميـع العناصر الوطنـية مـن قبطية واسلامية في بوتقة واحدة من اجل تحرير الوطن بكامله •

ان الحركة الوطنية المصرية قد أدركت بوعي ان الوحـدة والتعـاضد بين المسلمين والأقباط هما من اهم الاركان لدرء الثغرات التي ينفذ منـها الاستعمار فيتمكن من شق الحركة الشعبية وتحويل الصراع الأساسي الى

صراع جانبي وربما كان حزب الوفد برئاسة سعد زغلول قد بالـغ فـي تأكيد هذا المعنى فأصر على المبالغة في عـدد الاقباط في كـافة المستويات القيادية في الحـزب [١٨٩] .

وبعد ثورة ١٩٥٢م ، حرص العهد الجديد بقيادة الرئيس عبد الناصر على تحقيق المساواة التامة للمواطنين وقد شملت هذه المساواة الاقبـاط بشكل واضح وقد ابتكر الرئيس اسلوبا جديدا يضمن تواجد الاقباط على المسرح السياسي عبر عشر دوائر انتخابية حصر تمثيلها بالمرشحين الأقباط في جميع المجالس النيابية [١٩٠] .

ولا نزال نلمس ونرى في هذه الايام كلامـا يتناقض مـع التاريـخ ومع الحاضر يلمع في خواطر بعض المفكرين في مصر وغيرها ومـن غريب ما نشهد رفض بعض الكتاب اظهار اسمائهم عبر مـا يكتبون وينشرون وعلى سبيل المثال نقرأ الكلام التالي تحت توقيع غامض J.P. P.H في مجلة (لوموند) الفرنسية [١٩١] : وهم (الأقباط) يتحاشون دخـول بعض القطاعات الادارية بسبب التفرقة غير المتطورة وغير المعتـرف بـها في المعاملة التي لم تزل تمارس ضدهم .

وليس يدرى ماذا يقصد الكاتب بمثل هذه العبارات في حديثه عـن مجريات نظام سياسي بكامله ؟. واذا كان يعترف ان هذه المعاملة (غـير معترف بها) ، فكيف يؤكد انها لا تزال تمارس ضدهم ؟ .

اذا كان القانون والمعاملة لا يعترفان بها فكيف تظهر ؟ ومـا هـي الوقائع التي تعبر عنها على الصعيد الرسمي ؟ . الكاتب لا يبرز شيئا مـن ذلك والدليل الوحيد الذي يقدمه يبقى اشد غموضا ويتجلى فـي أنـهم (يتحاشون دخول بعض القطاعات الادارية) واذا كان الدليل يجب ان يقوم على عنصر الضغط الذي يمارس وليس على ردة الفعل الناتجة عن الحـقد

فان ذلك الوصف يتوارى امام منطق القانون والحياة ، ولا يمكن ان نأخذ به ضمن هذا التناقض الذي يحيط بطريقة سرده وواقعه •

ثم أننا نجد في بعض مـا جاء في المقال استطرادا ربما يساعد علـى دحض هذا الادعاء حين نواجه هذا الكلام :

وعدد افراد هذه الطائفة يتراوح بين ٥ ــ ٦ ملايين نسمة ويجعل من الأقباط اكبر أقلية مسيحية في العالم العربي ، واللغة القبطية التـي تنتمي الى اللغة الفرعونية لم تعد مستعملة الا في بعض الكتب الدينية • وأفـراد هذه الطائفة يتوزعون على مختلف طبقات البناء الهرمي للمجتمع المصري من ابسط المهن مرورا بالعمال الزراعيين والتجار وصولا الى طبقةالبورجوازية الكبـرى) •

ان في هذا التوزع دليلا على مساواة تتم ضمن حريـة اقتصادية لا يمكن بدونها الوصول الى جميع طبقات المجتمع والاندماج فيها ، وفيه تصوير واضح لمتانة اوضاع الاقباط وتمتعهم بكل الحقوق المدنيـــة التي يتساوون فيها مع المسلمين منذ عهد المماليك كما ورد على لسان البعثة الفرنسية بل ويتمتعون ببعض من امتيازات لا تعطى لأية أقلية في أي بلد ، كحق محاكمهم الخاصة في محاكمة أفراد من الاكثرية المسلمة عندما يكون المعتدي من أفراد هذه الاكثرية،كما ورد في وصف البعثة للحياة الاجتماعية في مصر ، ونعتقد بأن ما كتبته هذه البعثة يفوق في قربه من واقع الحياة ، كل مـا جاء به الكاتب المجهول في الجريدة الفرنسية الكبرى •

الهوامش

١ — Rev. Annales No 3 - 4 Mai - Août 1980. P 787

٢ — روح الاسلام لسيد امير علي ص ٢٥٧ . ٣ — ٤ — المرجع السابق ص ٢٦٥ . ٥ — رسالة التوحيد للامام محمد عبده ص ١٠١ . ٦ — مجلة العربي عدد اغسطس ١٩٨١ ص ٤٣ ، لفهمي هويدي . ٧ — روح الاسلام ص ٨ . ٨ — نهج البلاغة للامام علي بن ابي طالب ص ٥١٩ . ٩ — الفتنة الكبرى لطه حسين ص ١٠١٥ (المجموعة) . ١٠ — نهج البلاغة ص ٥١٥ . ١١ — يحيى بن سعيد ص ٩٢ نقلا عن كتاب الحضارة الاسلامية في القرن الرابع.

١٢ — المرجع السابق . ١٣ — الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم منز ص ٩٠ ج ١ . ١٤ — Hist. of Persia Vol I . ١٥ — اليعقوبي ج ٣ ص ٣٤ . ١٦ — Rev. Annales No 4 - 1980 P. 792 . ١٧ — كتاب الديارات للشابشتي ص ١٨ . ١٨ — الاغاني ج ١٩ ص ١٣٨ . ١٩ — ديوان الشريف الرضي ص ٩١٧ . ٢٠ — الخطط للمقريزي ج ١ ص ١٥٧ . ٢١ — المرجع السابق .

٢٢ — الحضارة الاسلامية لآدم متز ج ٢ ص ٢٤٠ . ٢٣ — ابن الاثير الجزء الثامن ص ٢٢٢ .

٢٤ — المقريزي ج ١ ص ٢٠٧ . ٢٥ — المرجع السابق ص ٢٦٨ . ٢٦ — الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ج ١ ص ٦٤ . ٢٧ — المرجع السابق ص ٦٧ . ٢٨ — المرجع السابق.

٢٩ — كتاب الديارات للشابشتي . ٣٠ — المرجع رقم ٢٦ ص ٦٨ . ٣١ — المرجع رقم ٢٦ ص ٧٠ — ٣٢ — المرجع رقم ٢٦ ص ٦٨ . ٣٣ — مجلة الازمنة الحديثة (الفرنسية) لجان بول سارتر ص ٨٣٥ عدد ٢٥٣ عام ١٩٦٧ . ٣٤ — المرجع رقم ٢٢ ج ١ ص ٩١ . ٣٥ — الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ص ٧٥ ج ١ . ٣٦ — بتأحيا ص ٢٧٥ — ٢٨٨ .

٣٧ — المرجع السابق . ٣٨ — حسن المحاضرة للسيوطي ج ٢ ص ١١٧ . ٣٩ — مجلة الازمنة الحديثة (الفرنسية) عدد ٢٥٣ عام ١٩٦٧ ص ٨٢٣ . ٤٠ — اليهودية والاسلام لروزنتال ص ١١ . ٤١ — تاريخ اليهود لديبنوف نقلا عن مجلة الازمنة الحديثة . ٤٢ — المرجع رقم ٣٩ . ٤٣ — القرآن والسلطان لفهمي هويدي ص ١٥١ . ٤٤ — أزمة الديمقراطية الاوروبية لبوافان

باريس ١٩٣٥ ص ٤٧١ ٠ ٤٥ ـ القرآن والسلطان لفهمي هويدي ص ١٥١ ـ ١٥٢ ٠ ٤٦ ـ المرجع رقم ٣٩ ص ٧٨٦ ٠ ٤٧ ـ نقلا عن تذكرة ابن حمدون التي نشرها امدروز عام ١٩٠٨ مرجع ٢٢ ٠ ٤٨ ـ في تطبيق الديانة الاسلامية على نواميس المدينة لفريد وجدي ص ١١٤ ٠ ٤٩ ـ المرجع السابق ص ١١٥ ٠ ٥٠ ـ نهج البلاغة ص ٥٢٢ ٠ ٥١ ـ المرجع السابق ص ٥١٥ ٠ ٥٢ ـ تراجم الحكماء للقفطي نقلا عن جولد تسهير في كتابه العقيدة والشريعة في الاسلام ص ٣١٠ ٠ ٥٣ ـ دي لاروك ، رحلة الى سورية ولبنان عام ١٧٢٢ ج ٢ ص ٢٧٠ ـ ٢٧١ ٠ ٥٤ ـ مرجع رقم ١٫٦ ص ٧٨٥ ٠ ٥٥ ـ ساويروس ج ١ نقلا عن كتاب المجتمعات الاسلامية للدكتور شكري فيصل ص ١٠٠ ـ ١٠١ ٠ ٥٦ ـ المرجع السابق ص ١٢٧ ٠ ٥٧ ـ تاريخ الطبري ١ ـ ٥ ـ ٢٥٨٨ ٠ ٥٨ ـ تاريخ الطبري نقلا عن جولد تسهير في كتاب العقيدة والشريعة في الاسلام ص ٣١١ ٠ ٥٩ ـ الاسلام والنصرانية للامام محمد عبدة ص ٧٠٠ ٦٠ ـ يحيى بن سعيد ص ١٠٨ نقلا عن (الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري) ج ١ ص ٩١ ٠ ٦١ ـ المرجع السابق ص ٥٧ ٠ ٦٢ ـ العقيدة والشريعة في الاسلام للمستشرق جولد تسهير ص ٣١١ ٠ ٦٣ ـ مجلة انال الفرنسية ص ٧٨٧ عدد أيار ١٩٨٠ ٠ ٦٤ ـ الاسلام والنصرانية للشيخ محمد عبدة ص ٨١ ٠ ٦٥ ـ تاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان ج ٢ ص ٢٠٨ ٠ ٦٦ ـ المرجع السابق ج ١ ص ٧٤ ٠ ٦٧ ـ المرجع رقم ٦٥ ٠ ٦٨ ـ روح الاسلام ليسيد امير علي ص ٢٦٥ ٠ ٦٩ ـ المرجع رقم ٤٨ ص ١١٤ ٠ ٧٠ ـ الحضارة الاسلامية في القرن الرابع ج ١ ص ٦٠ ٠ ٧١ ـ راهب زار القدس حوالي العام ١١٦٥ م ٠ ٧٢ ـ راهب زار القدس حوالي عام ١١٨٥ م ٠ ٧٣ ـ لقب رئيس اليهود في بغداد ٠ ٧٤ ـ راجع رقم ٧١ ـ ٧٢ ٠ ٧٥ ـ روح الاسلام لسيد امير علي ٠ ٧٦ ـ المرجع رقم ٢٢ ج ١ ص ٧٦ ٠ ٧٧ ـ تاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان ج ٤ ص ١٣٢ ٠ ٧٨ ـ المرجع السابق ٠ ٧٩ ـ كتاب الخراج ص ٨٨ ٠ ٨٠ ـ روح الاسلام لسيد امير علي ص ٢٦٥ ٠ ٨١ ـ يحيى بن سعيد ص ٩٢ أ ٠ ٨٢ ـ المرجع السابق ٠ ٨٣ ـ تاريخ مصر وولاتها للكندي ٠ ٨٤ ـ المرجع رقم ٨١ ٠ ٨٥ ـ ابن الاثير ج ٧ ص ٢٩ ٠ ٨٦ ـ المرجع السابق ج ٩ ص ٨٦ ٠ ٨٧ ـ السيوطي ج ٢ ص ١٧ ٠ ٨٨ ـ تاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان ج ٤ ص ١٣٤ ٠ ٨٩ ـ المقريزي ج ١ ص ٤٩٢ نقلا عن تاريخ التمدن الاسلامي ص ١٣٢ ٠ ٩٠ ـ راجع الرقم ٨٠ ص ٣٦٦ ٠ ٩١ ـ كتاب الوزراء ص ٩٥ نقلا عن تاريخ الحضارة الاسلامية لمتز ج ١ ص ٨٤ ٠ ٩٢ ـ المرجع رقم ٨٨ ص ١٣٠ ج ٤ ٠ ٩٣ ـ المنتظم ص ١٩٢ ب ٠ ٩٤ ـ الدولة العربية الاسلامية للدكتور علي حسني الخربوطلي ٠ ٩٥ ـ الاسلام عقيدة وشريعة للامام الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الازهر ص ٤٤٥ ٠ ٩٦ ـ الاية ١١٣ من سورة النساء ٠ ٩٧ ـ روح الاسلام لسيد امير علي ص ٢٦٢ ٠ ٩٨ ـ المرجع السابق ٠ ٩٩ ـ المرجع رقم ٨١ ٠ ١٠٠ ـ الاسلام عقيدة وشريعة للامام شلتوت ص ٤٤٨ ٠ ١٠١ ـ الاية ١٠٦ من سورة النساء ٠ ١٠٢ ـ المرجع رقم ١٠٠ ص ٣٧٤ ٠ ١٠٣ ـ ص ٥٥ طبعة ليدن ٠ ١٠٤ ـ كتاب الخراج ص

٢٩ ب ٠ ١٠٥ ـ الفتنة الكبرى علي وبنوه لطه حسين ص ١٠٠٨ (المجموعة) ٠ ١٠٦ ـ المرجع السابق ص ١٠٢١ ٠ ١٠٧ ـ تاريخ الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ج ١ ص ٦٧ ٠ ١٠٨ ـ كتاب الخراج لابي يوسف القاضي ص ٦٩ ٠ ١٠٩ ـ المرجع رقم ١٠٧ ص ٦٥ ٠ ١١٠ ـ المرجع رقم ١٠٨ ٠ ١١١ ـ المرجع رقم ١٠٧ ص ٨٣ ٠ ١١٢ ـ عيون الاخبار لابن قتيبة ص ٩٦ طبعة ١٨٩٩ ٠ ١١٣ ـ تاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان ج ٤ ص ١٢٩ ٠ ١١٤ ـ تاريخ الوزراء ص ٩٥ نقلا من المرجع السابق ٠ ١١٥ ـ كتاب الديارات نقلا عن المرجع ١٠٧ ص ٨٥ ج ١ ٠ ١١٦ ـ مسكويه ج ٥ ص ٣٥٢ ٠ ١١٧ ـ مرجع رقم ١٠٧ ص ٨٦ ٠ ١١٨ ـ ابن الاثير ج ٨ ص ١٨ ٠ ١١٩ ـ القضاة للكندي ص ٥٩٥ ٠ ١٢٠ ـ البيروني في الآثار ص ٢٩٩ ٠ ١٢١ ـ المسعودي في مروج الذهب ٠ ١٢٢ ـ كتاب الديارات ص ٣٧ ٠ ١٢٣ ـ مجلة المشرق ج ٩ عام ١٩٠٦ ص ٢٠١ ٠ ١٢٤ ـ القرآن والسلطان لفهمي هويدي ص ٢١٢ ٠ ١٢٥ ـ المرجع السابق ٠ ١٢٦ ـ الاسلام والنصرانية للامام محمد عبدة طبعة ١٣٤١ هـ ٠ ١٢٧ ـ المرجع السابق ص ١٦ ٠ ١٢٨ ـ ابن خلكان ج ٢ ص ٣٦ ٠ ١٢٩ ـ المرجع السابق ٠ ١٣٠ ـ الاسلام والنصرانية للامام محمد عبدة ص ١٨ ٠ ١٣١ ـ تاريخ التمدن الاسلامي ج ٣ ص ١٦٠ ٠ ١٣٢ ـ طبقات الاطباء ج ١ ص ١٢٤ ٠ ١٣٣ ـ العرب في التاريخ لبرنارد لويس ص ١٩٥ ٠ ١٣٤ ـ تاريخ التمدن ج ٣ ص ١٦٥ ٠ ١٣٥ ـ المرجع السابق ٠ ١٣٦ ـ مجلة الازمنة الحديثة الفرنسية لسارتر ص ٨٢٩ عدد ٢٥٣ سنة ١٩٦٧ ٠ ١٣٧ ـ المرجع السابق ٠ ١٣٨ ـ مجلة أنال الفرنسية ص ٧٩١ عدد أيار ١٩٨٠ ٠ ١٣٩ ـ تعبر كلمة جنيزة عن حجرة تتخذ كمخزن ملحق بالمعبد اليهودي ٠ ١٤٠ ـ دراسات في التاريخ الاسلامي تأليف س٠ دجوتياين ص ٢١٤ ٠ ١٤١ ـ المقدسي ص ٢٤٢ ٠ ١٤٢ ـ الحضارة الاسلامية لآدم متز ج ١ ص ٢٦٧ ٠ ١٤٣ ـ المرجع السابق ص ٢٦٤ ٠ ١٤٤ـ ابن الاثير الجزء السابع ص١٩٢ ٠ ١٤٥ـ تاريخ الدولة العثمانية لمحمد فريد بك ص١٦٤ ٠ ١٤٦ ـ جريدة الاهرام عدد ٢٢ ـ ١٠ ـ ١٩٤٤ ٠ ١٤٧ ـ المرجع رقم ١٤٥ ٠ ١٤٨ ـ المرجع رقم ١٤٥ ص ١٦٤ ٠ ١٤٩ ـ العقيدة والشريعة في الاسلام لجولد تسهير ص ٣١١ ٠ ١٥٠ ـ مجلة العربي عدد محرم ١٤٠٢ هـ نوفمبر ١٩٨١ ابراهيم الفحام ٠ ١٥١ ـ المرجع السابق ص ٤٤ ٠ ١٥٢ ـ المرجع رقم ١٥٠ ٠ ١٥٣ ـ مجلة الامة الكويتية عدد تشرين الثاني ١٩٨١ ص ٩٢ ٠ ١٥٤ ـ الجزء الاول من تاريخ جودت باشا ٠ ١٥٥ ـ المرجع رقم ١٤٥ ٠ ١٥٦ ـ قاموس فيليب جلاد نقلا عن تاريخ الدولة العثمانية ٠ ١٥٧ ـ المرجع رقم ١٣٦ ص ٧٩٦ ٠ ١٥٨ ـ المرجع السابق ص ٧٩٧ ٠ ١٥٩ ـ العرب في التاريخ لبرنارد لويس ص ٢٣٧ ٠ ١٦٠ ـ المرجع السابق ص ٢٣٨ ٠ ١٦١ ـ تاريخ الدولة العثمانية لمحمد فريد بك ص ٤٧٥ ٠ ١٦٢ ـ كتاب (أسس انقلاب) لاحمد مدحت ص ٤٨٠ نقلا ٠ ١٦٣ ـ ١٦٤ ـ المرجع السابق ص ٤٨٤ ٠ ١٦٥ ـ المرجع رقم ١٣٨ ص ٧٨٨ ٠ ١٦٦ ـ تاريخ العرب لفيليب حتي ج ١ ص ٢٢٠ ٠ ١٦٧ ـ دراسات في التاريخ والنظم الاسلامية

لجوليان • ١٦٨ ــ المسألة الطائفية في مصر ص ٦٢ • ١٦٩ ــ المرجع السابق •
١٧٠ ــ الرافعي وعاشور : مصر في العصور الوسطى • ١٧١ ــ تاريخ الكنيسة
القبطية للشماس منسى القمص ص ٥٤٢ • ١٧٢ ــ تاريخ الامة القبطية لنخلة روفيلة
ص ١٧٨ طبعة القاهرة ١٨٩٨ نقلا عن (المسألة الطائفية) • ١٧٣ ــ المرجع رقم ١٦٧
ص ١٤٠ • ١٧٤ ــ زوال الخلافة العباسية ج ٣ ص ١٣٨ • ١٧٥ ــ مجلة العربي عدد
ديسمبر ١٩٨١ ص ٥٤ الدكتور عاشور • ١٧٦ ــ وصف مصر تأليف دي شابيرول
ترجمة زهير الشايب ص ١٦ • ١٧٧ ــ المرجع السابق • ١٧٨ ــ كتاب حاضر العالم
الاسلامي للوثروب ستودارد ترجمة عجاج نويهض ص ٣٥ • ١٧٩ ــ المرجع السابق ص٦٢•
١٨٠ ــ المجلة الاسيوية نيسان ١٩١٤ م نقلا عن كتاب حاضر العالم الاسلامي ص ١٢٦ •
١٨١ ــ المرجع رقم ١٧٨ • ١٨٢ ــ مجلة Revue de Paris ١٥ سبتمبر ١٩٢٠
نقلا عن المرجع رقم ١٧٨ ص ١٦٤ • ١٨٣ ــ مجلة كاربارا دلاسيرا الايطالية ٣٠ ديسمبر
١٩١٩ نقلا • ١٨٤ ــ المرجع السابق • ١٨٥ ــ جريدة الجمهورية المصرية عدد ١١ ــ ٦ ــ
١٩٧٧ ــ ١٨٦ ــ المسألة الطائفية في مصر د• غالي ص ٣٦ • ١٨٧ ــ ١٨٨ ــ المرجع
السابق • ١٨٩ ــ د• ميلاد حنا (المسألة الطائفية) ص ٢١٢ • ١٩٠ ــ المرجع السابق
ص ٢١٥ • ١٩١ ــ جريدة لوموند الفرنسية عدد ٨ أكتوبر ١٩٨١ •

فهرس

ملاحظة : رغم جميع الاحتياطات التي اتخذت لم يخل هذا الكتاب من بعض أخطاء مطبعية قليلة جدا لا تخفى على القارىء .

بيروت ـ لبنان

هاتف ـ ٢٣١٢٤٨

كتب للمؤلف :

- حرب تشرين في مواقف ومشاهد من خطوط العدو ١٩٧٣ .
- أزمة الضمير الديمقراطي في احداث لبنان ١٩٧٧ .
- الثورة الايرانية في أبعادها الفكرية والاجتماعية ١٩٧٩ .
- الاسلام والتطور الحضاري ١٩٨١ .